نماذج من تصوف المسلمين

علم الأولياء

للحكيم الترمذى + ٣٢٠ هـ

تقديم ودراسة وتحقيق وتعليق

دكتور

سامي نصر لطف

كلية الآداب - جامعة عين شمس

الناشر

مكتبة الحرية الحديثة

جامعة عين شمس

نماذج من تصوف المسلمين

علم الأولياء

للحكيم الترمذى + ٣٢٠ هـ

تقديم ودراسة وتحقيق وتعليق

دكتور

سامى نصر لطف

كلية الآداب - جامعة عين شمس

الناشر

مكتبة الحرية الحديثة

جامعة عين شمس

نماذج من تصوف المسلمين

علم الأولياء

للحكيم الترمذي + ٣٢٠ هـ

تقديم ودراسة وتحقيق وتعليق

دكتور

سامي نصر لطف

كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

الناشر

مكتبة الحرية الحديثة

جامعة عين شمس

صهيب حسن الشافعي الأشعري

بسم اللہ الرحمن الرحیم

تصـــدير عـــام

قال تعالى فى كتابه العزيز : (يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر الا أولو الألباب ـ البقرة / ٢٦٩) ٠ نحمدك اللهم ، ونستــــتهديك الحق ، ونسألك الصــدق فى القول ، ونستعينك الاخلاص فى العمل ، ونتضرع اليك أن تهبنا من العلم والحـــكمة والمحبة ما وعدت به الصديقين من عبادك ، المخلصين من عبيدك ، وبقدر ما هيأتنا له وأعددتنا من أجله ، وبقدر ما أصلحنا أنفسنا وأهلنا ذواتنا له ، ونصلى ونسلم على رسولنا الذى اصطفيته من رســـلك وأنبيائك فكان هو النبى والرسول الخاتم وكانت رسالته أكمل الرسلات ، وكان الدين الذى أرسلته به أكمل النعم التى ارتضيتها لعبادك ٠

وبعـــد ٠٠٠

فان معرفتى بالحكيم الترمذى ـ صاحب المخطوط الذى نقدمه للدراسة والتحقيق ـ ترجع الى أواخر عام ١٩٦٣ ، حين اخترت أن يكون بحثى للماجستير عن (المعرفة الصوفية) ، ثم كان على قبل تسجيل موضــــوع الرسالة أن أطمئن على المادة العلمية أولا ، ثم استوثق من قدراتى الذاتية على الخوض فى موضوع كهذا ثانيا ٠ فوجــــدت المادة العلمية غزيرة ومتنوعة ، ولكن وجدت أن قدراتى قاصرة عن البحث فى موضوع كهذا بحثا عميقا ودقيقا ، حيث وضعت الجدية فى البحث ، والصدق مع النفس معيارين أوليين لى وأنا لم أزل فى أول طريق البحث العلمى ، فتركت موضوع الصوفية ومعرفتهم، وأخترت موضوعا آخر كان هو موضوع رسالتى للماجستير عن (التوليد عند متكلمى الاسلام ، وهو بحث فى الحرية والمسئولية الانسانية)٠

ولكننى أشهد أننى حينما تركت موضوع المعرفة الصوفية ، تركته تركا مؤقتا ، عازما على أن أعود اليه حينما أجدنى قد اكتسبت كثيرا من القدرات التى يحتاجها بحث كهذا ، وحينما أجد زادى وعتادى يؤهلانى للخوض فى ذلك الموضوع بالمعيار الذى وضعته لنفسى كباحث فى أول الطريق ٠

ولقد كان الحكيم الترمذى من شخصيات البحث التى وضعتها فى خطتى آنذاك ، نظرا لأن كتبه ومصـــنفاته كانت لا تزال مخطوطة حينئذ ، الا كتاب الرياضة وأدب النفس الذى كان قد نشره محققا كل من د٠ آربرى ، والدكتور على حسن عبد القادر ، القاهرة سنة ١٩٤٧ ٠ وكتاب (بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب) الذى كان قد نشره نقولا هير ، القاهرة سنة ١٩٥٨ ، وكتاب (نوادر الأصـــول) الذى نشر فى اســـتانبول سنة ١٢٩٣ هـ ٠ وهذه الكتب الثلاثة المنشورة حينئذ ، أى سنة ١٩٦٣ ، كانت وحدها لا تكفى للوقوف على آراء الترمذى الحكيم فى التصوف والمعرفة الصوفية ، فرجعت الى تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، فوجدت للترمذى كثيرا من المخطوطات المتناثرة بين مكتبات العالم ، وكان مما وجدت للترمذى، كتابا يسمى (علم الأولياء) ومن عنوانه أدركت أنه ربما وجدت فيه العناصر الرئيسية للمعرفة الصوفية كما يراها الترمذى ، فطلبت الاطلاع على النسخة المخطوطة الموجودة بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية ، ومكننى رئيس قسم المخطوطات آنذاك من الاطلاع على هذه النسخة ، وكان رحمه الله ــ وهو الأستاذ فؤاد سيد ــ دليلا للباحثين ، ومرشدا لهم ، ومشجعا اياهم فى كل ما يلجأون اليه فيه ، بل لا أبالغ اذا قررت هنا أنه كان الكومبيوتر البشرى فى اختزان كل المعلومات عن المخطوطات ، رحمة الله عليه وعلى أمثاله وهم قلة نادرة فى الاخلاص والعمل وفى تشجيع الباحثين ٠

وحين تناولت مخطوطة الترمذى وتصفحتها فى بضـعة أيام ــ حيث كانت طاقة الشباب وعزيمته فى مقتبل عمر الانسان تجعلاه يعمل بلا ملل ولا كلل من الصباح الى المساء ، الى أن تقفل دار الكتب أبوابها ، وهو جهد لا يقدم عليه الانسان لأنه شكل كثيرا من قدراته ــ أقول حين تناولت مخطوط الترمذى (علم الأولياء) وجدته رغم صغر حجمه ، ذا قيمة علمية فى مجاله لا يجب اغفالها ، ووجدت تفريعات فى المعلومات ، وتنويعات فى الموضوعات، مما حفزنى الى أن أنسخ (*) هذا المخطوط محاولا تحقيقه ونشره فى يوم أرى نفسى فيه قد أهلت لذلك ، وأجد قدراتى قد استعدت ونمت ونضجت حتى أخرجه على الصورة اللائقة به ، وفى الاطار الذى أرتضيه له ، وأرضى به ومن خلاله عن نفسى وعن عملى ٠

(*) راجع التعليقات والحواشى ــ القسم الثالث ــ تعليق رقم : ٥٥٨ ٠

ثم حان ذلك فى حوالى سنة ١٩٧٩ فراجعت النسخة التى نسختها على النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية ، ولاحظت مدى التطور الذى جرى على قدراتى من خلال اصلاح بعض الكلمات التى قرأتها خطأ أثناء النسخ فى المرحلة الأولى سنة ١٩٦٤ ٠ وكنت أثناء فترة المراجعة أعد نفسى للرحيل فى اعارة الى جامعة الفاتح فى ليبيا ، ومكثت هناك فى الفترة من سبتمبر سنة ١٩٧٩ الى منتصف يوليو سنة ١٩٨٠ حاولت أثناء هذه الفترة اعداد المخطوط للنشر ، فخرجت آياته القرآنية وهى تزيد على ١١٤ آية ، وخرجت الأحاديث النبوية التى وردت فيه وهى حوالى ٤٢ حديثا ٠ كما تمكنت فى تلك الفترة أن أضع بعض الحواشى والتعليقات ، واضعا فى اعتبارى أن تكون التعليقات تفصيلية الى حد كبير حسب غموض الفكرة التى هى تعليق عليها ٠

وعدت الى القاهرة فى منتصف يوليو سنة ١٩٨٠ وكان على أن أحول مكان اعارتى الى جامعة صنعاء باليمن الشمالية لاعتبارات خارجة عن ارادتى ، ووفقنى الله لتنفيذ ما أرادته لى جامعة عين شمس ، وحين وصلت الى صنعاء اليمن وجدت هدوءا موحشا ، وشعرت بغربة حقيقية لا عن وطنى فحسب ولكن غربة عن نفسى أيضا ، وأيقنت أن لا خروج من تلك الوحشة المحيطة بى ومن ذلك الاغتراب المتمكن منى ومن كيانى الا بمعايشة التصوف والصوفية ، من خلال الاطلاع على مصنفاتهم وبعض ما كتب عنهم ، خاصة وأنهم عانوا غربة غريبة عن مجتمعهم بل وعن ذواتهم فكانت أحوالهم ومقاماتهم وكل مواجيدهم نتاجا لكل ما شعروا به ٠ ولا أحسب نفسى قادرا على سلوك مسلكهم ، ولا الاقتداء بهم فى تجاربهم ، ولكن لعلى استطيع أن أفيد من هذه التجارب وتلك المسالك ، أو لعلى أتمكن من اعداد نفسى وتأهيل ذاتى للافادة من كل ذلك اذا قبلنا الله فى عفوه وشملنا برحمته السابقة غضبه ٠

ثم كان على أن انتهى من تحقيق نص الترمذى ومن تعليقاته أول الأمر ، حتى لا يظل عملا معلقا أو كالمعلق ، ووجدته بمثابة المقدمة الضرورية للخلاص مما أنافيه من غربة وضياع ، وخطوة ضرورية للدخول الى محراب التصوف والصوفية ، وكأن أنهاء هذا المخطوط شرطا لازما لامكان خوضى فى مجال علوم الصوفية ومعارفهم ، تلك المعارف التى تراجعت عن البحث فيها منذ أواخر سنة ١٩٦٣ كما ذكرت فى أول التصدير هذا ٠

وهكذا أنهيت تعليقاتى على النص المخطوط ، وهى تزيد عن ضعف عدد صفحات المخطوط كما يلاحظ القارىء ، ثم كان على كذلك أن أقدم دراسة وافية عن الموضوعات الواردة فى المخطوط ووضعها فى اطار آراء الترمذى الحكيم فى كثير من كتبه التى شاء لها أن ترى النور منذ سنة ١٩٦٤ الى الآن . وكانت هذه الدراسة التى شرعت فى وضعها ليست من قبيل الترف العلمى أو الحشو ، بل من قبيل الأمانة فى التحقيق ونشر التراث اذا أريد له أن يكون علميا ونافعا ، كما أنه من قبيل الاتساق الذاتى مع نفسى ومنهجى الذى وضعته معيارا وأنا لم أزل فى أول الطريق كما أشرت .

اننى لم أشأ أن أقدم نصا فقط يفيد الباحث من بعد ويساهم فى اثراء مكتبة احياء التراث ، ولكننى أردت أن أقدم عملا علميا متكاملا عن مشتملات المخطوط بقدر ما تيسر لى من الجهد ومن التوفيق .

واذا أردت أن أعرف الكتاب الذى نقدم له ، وهو كتاب علم الأولياء ، للحكيم الترمذى لقلت : ان هذا الكتاب من كتب الحكيم الترمذى يعد من الكتب الكثيرة التى تركها لنا وضمنها بعضا من آرائه وأفكاره حول بعض القضايا والمسائل التى كانت تعرض له ولمعاصريه فى منطقة ما وراء النهر ، والتى التقت مع كثير من القضايا والمسائل التى عرضت لآخرين فى مناطق أخرى من العالم الاسلامى والعربى ، من قبل الترمذى ومن بعده .

وكتاب علم الأولياء ليس مجموعة خواطر مثل بعض كتب الترمذى الحكيم ، كما أنه ليس كتابا لتحديد معانى بعض الكلمات والألفاظ مثل البعض الآخر من كتبه ، ولكنه كتاب ملىء بالأفكار العميقة وبالآراء الدقيقة . ونلاحظ أنه يتبع فى عرضها المنهج التركيبى والتحليلى ، اذ أنه يضع الفكرة مجملة ثم يحللها الى مكوناتها من الألفاظ ، وقد يشير فى كثير من الأحيان الى معنى كل حرف من الحروف التى يتكون منها كل لفظ ، والى دلالته فى أكثر من صورة .

وكأن الترمذى أراد أن يبين أهمية علم الاسماء والحروف فى العبادة الحقة وفى المعرفة الالهية اليقينية ، وهذه من الحكمة الباطنة أو الحكمة العليا على حد عبارته .

لمعرفة طريق التصوف ، والتدرج فيه من خلال الأحوال والمقامات ، وهو كتاب ضرورى لمعرفة القضايا التى عرضها فى كتابيه : ختم الأولياء ، والمسائل المكنونة ، اذ ان فيه كثيرا من المفاتيح التى تفهم بها القضايا الغامضة فى كثير من كتبه ٠

وان هذا الكتاب لم يخل أيضا من بعض العبارات والقضايا التى أوردها فى كتبه الأخرى ، ولعل هذه سمة أساسية فى كتب الترمذى ورسائله، مما يجعل مهمة محققى كتبه ميسورة فى نسبة أى كتاب من كتبه اليه ، باعتبار أن منهجه متشابه ، وأسلوبه متقارب الى حد ما ، وطريقته فى الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية مطردة فى كل رسالة وكتاب من رسائله وكتبه ٠

ولقد وضع الترمذى فى كتاب علم الأولياء عدة مسائل وقضايا متداخلة ومختلطة ، رأينا أن نقسمها الى الموضوعات الآتية :

مقدمة عامة ـ اشتقاق الاسم لغة ومعنى ـ كيف تعلم سيدنا آدم عليه السلام ـ ابتداء اللغات ، والله الاسم الأعظم ـ فكرة الواحد حسابيا وميتافيزيقيا ـ علاقة الأسماء بالمسميات ـ الانسان ـ النفس الامارة ومجاهدتها ـ تقسيم العلم ـ العبودية والربوبية ـ النور الالهى ـ الصلاة والتوبة رياضة للنفس ـ أسماء الله الحسنى ـ تقسيم العلماء ـ علاقة العبد بالله ـ فلسفة العبادات ـ صدق التوحيد ـ سر الله تعالى (القدر والعلم المكنون) ـ العلم الحضورى للقلب ـ بين العلم والحكمة ـ علم التقوى ـ تقسيم التقوى ـ أنواع التدين ـ معانى الصلاة بين العبد والملائكة والله سبحانه ـ معانى الرحمة الالهية ـ أثر النفس الخبيثة فى المعرفة ـ الصبر والشكر ودرجاتهما ـ جزاء الصبر والشكر ـ حقيقة الصابر والصبر والشاكر والشكر ـ بين الاسلام والايمان ـ عود الى الشكر والصبر من حيث الاشتقاق لفظا ومعنى ـ فضل العلم وطبيعته ـ الايمان طريق المعرفة ـ بين العلم والمعرفة ـ اليقين هو معرفة الله ـ محبة الله ـ الحب طريق المعرفة ـ قيمة النية فى العمل ـ قيمة الصلاة فى الصف الأول ـ درجات المتقين ـ عذاب النار الشامل ـ اتقاء عذاب النار ـ تقوى التوحيد ـ تقوى صلة الرحم ـ بين الشكر والحمد ـ فضل التسبيح والاستغفار ـ الذكر

طريق الحب - الحب طريق المعرفة الحقة - التعرف هو التجلى الالهى - تفسير الترمذى لقول لا اله الا الله - فلسفة النفى والسلب (معانى اللا ··· والليس) أى التنزيه والانكار المطلقين ·

ويلاحظ أننا أشرنا الى كثير من الموضوعات التى اشتمل عليها مخطوط الحكيم الترمذى ، وهى موضوعات تكاد تغطى كل جوانب التصوف الاسلامى بمعناه الدقيق العميق الواسع · ولكننا فى دراستنا للمخطوط وأراء الترمذى من خلاله ومن خلال كتبه الأخرى سنتبع تصنيفا آخر وعرضا مختلفا للموضوعات ·

نسخ المخطوط :

أما عن نسخ المخطوط فان النسخة التى اعتمدنا عليها هى نسخة دار الكتب المصرية برقم ٦٩٤ مجاميع طلعت ، وهناك نسخة أخرى برقم ١٠٥٦ الجمعية الآسيوية كلكتا ، ونسخة ثالثة رقم ٨٠٦ خراجى أوغلو ، والنسختان الأخيرتان لم نستطع الحصول على واحدة منها رغم تعدد المحاولات ، مع أنهما كانتا لن تغيرا شيئا مما وصلنا اليه فى قراءة النسخة الوحيدة التى حصلنا عليها ·

ولقد روى فريد الدين العطار عن أبى بكر الوراق أن للحكيم الترمذى كتبا فى المعرفة وألقى بها فى النهر ، وكانت رواية العطار فى صيغة أسطورية لا تسهل مهمة الباحث فى الاستيثاق منها أو الوقوف منها موقفا حاسما بالرفض أو القبول ·

طبيعة المخطوط :

واذا أردنا أن نتحدث عن طبيعة المخطوط وطريقة كتابته فان أول ما يلفت النظر هو ورود عبارة (قال أبو عبد الله رحمة الله) بين كثير من مواضع المخطوط خاصة عند بداية كل فكرة جديدة ، ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن هذه النسخة مملاة على كاتبها ، أو منسوخة من نسخة أخرى مملاة على من كتبها ·

وكذلك فان همزات النهاية وكثيرا من همزات الحروف الوسط لم

يكتبها الناسخ كالحال فى كلمات : الأسماء ، السناء ، والثناء ، البهاء ٠٠ وغيرها مما يماثلها من الكلمات ٠ كما أن الناسخ كثيرا ما كان يهمل أحرف الجر التى توضح الكلمة أو المعنى أو العبارة ، ولا نستطيع القطع بما اذا كانت هذه أخطاء من الناسخ أم من النسخة الأم التى هى مفقودة ومن ثم لم نتمكن من الحصول عليها ٠ (راجع الحواشى ، تعليق رقم ٢٥٩) ٠

ومن أخطاء الناسخ أيضا ورود عبارة ذكر الترمذى أنها قول لعيسى عليه السلام ، وهى : (لعبيد أتقياء ولأحرار كرماء) ووجدنا الناسخ كتب هذا القول هكذا : (لا عبيد أتقياء ولا أحرار كرماء) وهـــــذا يؤكد كتابة المخطوط املاء وسماعا وليس نقلا بالنظر والابصار ٠ (راجع الحواشى ، تعليق رقم ٢٩٥) ٠

وهناك بعض الأخطاء من الناسخ تتعلق باهماله فيما يتصل بالآيات القرآنية التى كان يكتبها خطأ ، أحيانا باضـــافة كلمة أو اسقاط أخرى ٠ (راجع الحواشى ، تعليق رقم ٢٨٣ ، وتعليق رقم ٣٢١ ، وتعليق رقم ٣٢٤)٠

مهنجنا فى التحقيق :

ولقد اتبعنا فى التحقيق طريقة الحـذف والاضـــافة ، وتغيير بعض الكلمات وأخرى بما يتناسب مع اللغة العربية الشائع استخدامها فى أيامنا هذه ، وهكذا فيما يتصل باضافة الهمزات الى أماكنها من الكلمات والجمل ،

واصلاح الأخطاء النحوية والاملائية واللغوية ٠ مع تصحيح الآيات القرآنية وتخريجها هى والأحـــاديث النبـــوية التى وردت فى متن النص (راجع الحواشى ، تعليق رقم ٤٧٨ ، وتعليق رقم ٤٩١) ٠

والترمذى له أسلوب خاص فى استخدام الآيات القرآنية اذ انه كثيرا ما كان يقتطع أجزاء من الآيات للاستدلال بها على تأكيد فكرة ما ، دون أن يلتزم بنص الآية وحرفيتها ٠ (راجع الحواشى ، تعليق رقم ٣٧٨ ، ٥٧٠) ٠

كما كان يمزج أحيانا بين آيتين أو أكثر من سورتين مختلفتين ، مثلما

مزج بين قول الله تعالى : (وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر - القمر / ٥٠) وبين قوله عز وجل : (وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب - النحل / ٧٧) وذلك فى العبارة التى قالها الترمذى نتاجا للآيتين : (وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب) ٠

ولقد لاحظنا على الترمذى تناقضا فى بعض الروايات التى يرويها ، وفى بعض الآراء التى يقدمها ، وذلك مثل ما ذكره حول التقسيم الثلاثى للعلم والعلماء والذى رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى قوله : (فيما جرى فى غير حديث : عالم بالله وبأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، وعالم بالله ليس بأمر الله) ، ثم يعود فى موضع آخر ويشير الى نفس التقسيم الثلاثى ويورده على أنه مروى عن سيدنا عيسى عليه السلام ويقول : (وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال : العلماء ثلاثة ، عالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله تعالى ليس بعالم بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله تعالى ٠ وكان عيسى عليه السلام جعل العلم بتدبير الله وربوبيته مع العلم بالله تعالى علما واحدا ، وانما صيرناه ثلاثة أنواع اذ أردنا أن يتميز عند من لا يعقل علم الله تعالى من تدبيره ، لأن علم التدبير للعباد هو داخل فى باب العبودية ، وعلم الله هو الثناء الذى يظهر على الألسن من بساتين القلوب - النص ، الاشارة رقم ٣٥٨ / ٣٦٠) ٠

وواضح تناقض الترمذى حول جعل تقسيم العلم والعلماء ثلاثيا عنده ، وواحدا عند سيدنا عيسى ، مع أنه أورده فى صورة ثلاثية أيضا ، وناهيك عن أنه فى موضع آخر سنجد تقسيما ثنائيا عنده للعلم والعلماء ٠

ولعلنا نتلمس مخرجا لهذا التناقض الظاهر فى آراء الترمذى حول العلم والعلماء اذا تأملنا فى تجريبية هذا الحكيم ، باعتبار أنه لم يقسم العلوم ، ولم يصنف العلماء على هذا النحو أو ذاك بوصفه مفكرا نظريا فحسب ، قد عكف وانزوى مكتفيا بالنظر والتأمل فى مسألة علمية أو أخلاقية أو اجتماعية دون مطابقة بين الواقع والنظر ، بل ان الحكيم أيضا قد عايش أهل العلم وباشرهم ونظر الى أعمالهم ، وحصر اهتماماتهم ، وقارن بين بعضها وبعض ، وقرب بين ما يمكن تقريبه ، وقابل منها ما يقبل المقابلة ، ثم صنفها ورتبها فاذا هى على هذه الصورة ٠ فكان الترمذى من أصحاب المنهج

العلمى التجريبى ، الذى يقوم على خبرة الحياة ومعاينة أحوال البشر ٠

وسنجد تلك النزعة التجريبية أوضح فى مواضع أخرى من المخطوط ، كما سنجد نزعات أخرى لدى الترمذى ٠

فلسفة النفى والسلب :

واذا كان للترمذى بعض المتناقضات ، فقد كانت له مزايا كثيرة ، من خلال آرائه ، سنلاحظها ونؤكد على كل منها أثناء الدراسة التى ستلى هذا التصدير ، ولكن من هذه المزايا ـ الأن على سبيل المثال فقط ـ ما أتى به من تفرقة طريفة بين كلمتى (ليس ، لا) من حيث افادة كل منهما لمعنى غير ما تفيده الأخرى ، مما يلتقى مع فلسفة النفى والسلب بالمعنى المعاصر والحديث ، كما يقترب من تفرقة المعتزلة بين العدم المطلق الذى هو سلب كامل للوجود والغاء له ، وبين المعدوم الذى هو مرحلة من مراحل الوجود ، ودرجة من درجاته ، وهو ما يدخل عندنا فيما نسميه بالعدم الوجودى ٠

والترمذى فى تفرقته بين اللا ، والليس يقول : (ان (لا) كلمة نفى وتنزيه ، أبرزها الجليل لينفى بها كل معبود دونه عن أن يكون مثله ، وتنزه بها ربك عن أن يكون له شبه ، أو يكون له فى ملكه شريك أو ولد كما زعم الكفار والمشركون ، وكفرة أهل الكتاب ٠ والنفى والتنزيه هو التسبيح والتبرئة ٠ وأما (ليس) فهى كلمة جحود وانكار ، وليس للانكار والجحود ههنا معنى ولا موضع ، انما ههنا موضع النفى والتنزيه ، وهما التبرئة والتسبيح ، وقد دعى الله الخلق اليهما ، وبهما أمر ، لا بالجحود والانكار ، وذلك أن القوم لم يكونوا ينكرون أو يجحدون أن ليس فى السماء اله ، وأنهم يزعمون أن له ولدا شبهه وهو عيسى ، وأن له شريكا فى ملكه وهو هذه الأصنام ، وأنه قد اتخذ صاحبة وهى مريم ، وأنه اصطفى البنات على البنين وهن الملائكة ، وأن الشمس والقمر والشجر والكواكب له شركاء فى ملكه ٠ وقد قال الله تعالى فى كتابه يحكى عن قولهم : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله ـ العنكبوت / ٦١ » فدعى الله خلقه الى أن ينفوا عنه مقالاتهم الرجسة ، وينزهوه عن ذلك كله ، وينفوا الآلهة التى اتخذوها من دون الله ، ويوحدوه بوحدانيته فى

ربوبيته · فاذا قال لا اله ، وزعـــم أن ترجمته ليس اله فانما أنكر الاله المستحق ، وبه جحد ، وهو الرب تبارك وتعالى اسمه ـ راجع النص الاشارة ٥٦٦ : ٥٧٥) ·

واذا كنا نلاحظ أن هذا المجال الذى فرق فيه الترمذى بين النفى والسلب أو بين التنزيه والجحود من خلال استخدام أداتين للنفى : ليس ولا ، كان مجال تأكيد لدقة اللغة العربية عن اللغة الفارسية وقدرتها فى التعبير العميق والدقيق عن المعانى المرادة بواسطة ألفاظها التى مدت على مدها ، الا أننا أيضا أمكننا أن نستنتج بعدا جديدا ، لنواحى وأبعاد حكمة الترمذى ، ألا وهو فلسفة النفى والتنزيه من جهة وفلسفة السلب والانكار من جهة أخرى ، فلسفة التوحيد والنفى من جهة وفلسفة الالحاد والشرك منجهة أخرى، بما لم يسبقه اليها مفكر اسلامى بنفس العمق والدقة فى التحليل والتفصيل ، والشرح والتدليـــــل ·

وذلك الاتجاه يضاف الى تعدد جوانب فلسفته مما سنعرضه من بعد فى دراستنا عن الترمذى الحكيم ·

القسمة الثنائية لموضوع مخطوط علم الأولياء :

ولقد لاحظنا أن الترمذى فى موضع ما من المخطوط يشــير الى أن المخطوط كله يعد قسمين ، وذلك يمكن استنتاجه من قوله : (فهذا معنى الصلاة منه سبحانه على عباده عندنا ، ··· يتلوه الجزء الثانى فى اختلاف الناس فى الشكر والصبر وفى تقدم أحدهما على الآخر ـ راجع النص ، اشارة رقم ٣٦٦) ولعله قصد بذلك أن الجزء الأول من المخطوط هو ما يختص بصلاة الله على عباده ، ورحمته بهم ، وحبه لهم ، وقربه منهم ، وتعرفه اليهم ليعرفوه ، وبالتالى فان هذا من الله يستلزم من العبد فعلا مردودا به ، ووفاء منه وأخلاصا ، وتلك هى موضوعات الجزء الثانى من المخطوط ، وهى تلك التى تتصل بأحوال الصبر والشكر والحمد والتسبيح والاستغفار والصلاة والتوبة وكل ما يتصل بجوانب العبادة والعبودية من العبد لخالقه ، وسنرى كيف أن هذه الأحوال من العبادات هى طريق الحصول على الرحمة الالهية ، وسبيل الوصول الى العناية الالهية ، واستمرارها فى امداد الله تعالى عبيده بها وبغيرها من نواحى لطفه ورعايته ·

وكأن المخطوط على صورته هذه من فلسفته وتعميقه للعبادات التقليدية، يعد صورة حقيقية للعلاقة المتبادلة بين الخالق والمخلوق ، بين الله والانسان ، بين المعبود والعابد ، وبين الربوبية والعبودية ، بين المعرفة والعارف ، وبين المحبوب والمحب ، بين عناية الله ورعايته لخلقه وعلمه بهم ولطفه ورحمته ، وبين هؤلاء الخلق موضع العناية والرحمة الالهية ، ومقصد العلم واللطف الالهيين ، وهدف الرعاية الربانية ٠

وهكذا فاننا بنشرنا لهذا المخطوط ، بعد دراسته المتأنية ، وبعد التعليق التفصيلى عليه ، نكون قد قدمنا صورة شاملة ومتكاملة ـ الى حد ما ـ لما كان عليه التصوف الاسلامى فى القرون الأربعة الأولى بوجه عام ، وعند الترمذى الحكيم بوجه خاص ٠

فاذا لا حظنا جميعا تحقق الهدف واتساقه مع المنهج الذى وضعناه وقصدنا اليه من تحقيق هذا الكتاب ونشره على هذه الصورة ، فان هــذا هو حسبنا وما نسعى اليه ، وان لم يتحقق هذا الهدف فحسبنا أننا سعينا جاهدين من أجل هدف ما ولكن لم نتمكن منه ولم نوفق اليه ، ولا ذنب لنا اذا عارضتنا المقادير ، وعلى الله قصد السبيل ؟

القاهرة ـ طرابلس ـ صنعاء
٩ يونيو سنة ١٩٨١

سامى نصر

(القســـم الأول)

دارســـة فى علم الأوليـــــاء

وفى

آراء الترمذى الصـــوفية والفلســـفية

الدراســـة والآراء

بعد أن وقفنا على أهمية كتاب علم الأولياء للترمذى ، وبعد أن أشرنا الى طبيعة المخطوط الذى اعتمدنا عليه فى التحقيق ، وبعد ذكرنا منهجنا وأسلوبنا فى التحقيق ، وبعد أن أوجزنا أهم الموضوعات التى يشتمل عليها الكتاب موضوع التحقيق ، وبعد أن أعطينا بض النماذج على تناقض الترمذى فى بعض الأحيان وعلى طرافته فى بعض الأحيان الأخرى ، بعد كل ذلك الذى جمعناه فيما سميناه بالتصدير العام وما يســـميه البعض بمقدمة المحقق والتحقيق ، نقدم الآن ، وهنا فى القسم الأول من عملنا هذا ودراستنا على آراء الترمذى الصوفية والفلسفية والفكرية والعقائدية مستعينين بالكتاب موضوع التحقيق فى الدرجة الأولى ، وببعض كتبه الأخرى فى الدرجـــة الثانية ٠

ولا أدعى هنا أننى أقدم عملا كاملا ووافيا عن الترمذى الحكيم ، لأن هذا العمل أوسع وأشمل من أن تحتويه دراسة كهذه ، فضلا عن أنه يحتاج الى مجال آخر غير مجال التحقيق ، وربما نتمكن من استكمال بعض الجوانب التى سنغض عنها الطرف هنا فى عملنا الذى نعده الآن عن (فكرة الواحد فى التصوف الاسلامى) وسيكون الترمذى من بين من نتناول آراءهم فى هذا العمل باذن الله ، بل اننا ربما تعمدنا عدم التوسع فى بعض جوانب تصوفه وتفلسفه هنا ، وتعميقها ، تاركين ذلك الى العمل الآخر الذى أشرنا اليه منذ قليل ، والذى نسأل الله أن يوفقنا الى الفراغ منه فى خلال العام المقبل سنة ١٩٨٢ وأن يرى النور عما قريب ٠

وبادىء ذى بدء فان علينا الآن أن نقف سويا على بعض ما يتصل بالحكيم الترمذى ، من هو ؟ ومن هم أساتذته وتلامذته ؟ ؟ ولمـــاذا سمى بالحكيم دون سابقيه من الصوفية ولاحقيه ؟ ؟ وما هى مكانته فى عصره ، ثم أثره فيمن بعده ؟ ؟

ان الحكيم الترمذى علم من أعلام الثقافة الاسلامية فى أوج مجـــد الحضارة الاسلامية وعزها ، تعرض لما تعرض له ، مثاله من نكاية وكيد ، فكما ظلمه القدامى فقد أساء فهمه المحدثون حول نظرية الولاية عنده بوصفها عصب مذهبه ٠

ولم تعطنا كتب السير والتراجم التفاصيل التى كنا نسعى الى معرفتها ، أو نتوقعها عن حياة هذا المفكر ٠ وما أشبه حظ المصنفات بحظ صاحبها ، فكان منها ما هو بعيد عن أيدى الباحثين ، وكان منها ما هو بعيد عن عقولهم وأفهامهم وان وجد بين أيديهم ٠ وربما أساء البعض فهم مقصده الأسنى الذى كان يرمى الى تحقيقه من وراء آرائه ، وذلك لغموضها وعمقها ، أو لقصورهم عن تحليلها وتفنيدها التحليل والتفنيد الذى هى به جديرة ٠

ونحن هنا ، وان كنا لا نغفل بعض المقدمات التى قدمت بها كتب الترمذى التى نشرها المحققون ، وكما لا نستطيع أن نغفل الأبحاث التى دارت حول بعض اتجاهات الترمذى وآرائه ، ومنها : بحث عن المعرفة عنـــد الحكيم الترمذى لعبد المحسن الحسينى ، سنة ١٩٦٨ ، وبحث عن نظرية الولاية عند الترمذى لعبد الفتاح بركة سنة ١٩٧١ ، الا أننا لم نجد كثيرا مما كنا نتوقعه وننتظر ممن يكتب عن الترمذى الحكيم ٠

وبطبيعة الحال فان كل هذه المحاولات هى علامات بارزة على طريق البحث فى آراء الترمذى ، كما أنها اشارات للباحث وتنبيهات تســــتوقف نظره وتسترعى انتباهه ، ولا يجد مناصا من الرجوع اليها والوقوف عليها ، وان كان لابد أن يتجاوزها ولا يجب أن يتوقف عندها ، وتلك هى طبيعة البحث العلمى فى ميدان العلوم الانسانية بل وفى سائر الميادين بوجه عام (*) ٠

من هو الترمذى ؟ ؟

والحكيم الترمذى هو أبوعبد الله محمد بن على الحسن بن بشير بن هارون ، المحدث الزاهد الحكيم الترمذى ، ولد بترمذ حوالى عام ٢٠٥ هـ وتوفى بها حوالى عام ٣٢٠ هـ (**طبقات الشافعية ـ السبكى جـ٢ ، ص ٢٤٥**) وقارن فى ذلك المناقشة التفصيلية التى قام بها الدكتور بركة ، ص ١١ ، ٣٥ من الجزء الأول من الكتاب المذكور) ٠

(*)راجع مقدة الدكتور عبد الفتاح بركة عن نظرية الولاية عند الترمذى ، وأنظر فى طريقة عرضه لكل المحاولات السابقة عليه حيال اراء الترمذى ، لنقف على مدى تقليله من قيمة تلك المحاولات السابقة ، بل والتعريض بالبعض منها ، وذلك خاصة فى ص ٧ ، ٩ ، ١٩ ، ٢٠ من من كتابه المذكور ـ القاهرة سنة ١٩٧١ م ٠

من هم أساتذته ؟ ؟

أما عن أساتذته فانهم (كما ذكر أصحاب تاريخ بغداد ، ولسان الميزان ، وميزان الاعتدال) يمكن وضعهم على النحو التالى :

١ - والده على بن الحسن الترمذى
٢ - قتيبة بن سعيد الثقفى البلخى ٠
٣ - صالح بن عبد الله الترمذى ٠
٤ - صالح بن محمد الترمذى ٠
٥ - سفيان بن وكيع ٠
٦ - الحسن بن عمرو بن شقيق البلخى ٠
٧ - أحمد بن خضرويه ٠
٨ - أبو تراب النخشبى ٠
٩ - يحيى بن معاذ الرازى ٠
١٠ - يعقوب بن شيبة بن الصلت ٠

ومن الواضح أنه قد تتلمذ على نخبة ممتازة من العلماء ، بينهم الفقيه والمحدث والمتصوف والزاهد ، أماشيخه المباشر فكان أحمد بن عاصم الأنطاكى ٠

وفى هذا يقول ابن حجر ، نقلا عن ابن النجار فى تذييله على تاريخ بغداد من أن شيوخه كثرة ، الا أنه يكفى ما ذكرناه لمعرفة البحر الذى كان يستقى منه الترمذى فى نشاطه العلمى **(راجع لسان الميزان جـ٥ ص ٣٠٨)**٠

من هم تلامذته ؟ ؟

أما عن تلامذة الحكيم ومريديه ، فقد أشار هو نفسه الى كثرتهم ، ولكن كتب التراجم والسير لم تبرز لنا الا عددا ضئيلا منهم ، وهم :

١ - أبو محمد بن منصور القاضى ٠
٢ - أبو على منصور بن عبد الله بن خالد الهروى ٠
٣ - أبو على الحسن بن على الجرجانى ٠

٤ - أحمد بن محمد بن عيسى ·
٥ - أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق ·
٦ - محمد بن جعفر بن محمد بن الهيثم بن عمران ·

ويعلق الدكتور عثمان يحيى على هذا العدد بقوله : (ويبدو واضحا من هذا الثبت أن حظ شيخنا من الأتباع والمريدين كان ضئيلا ، لا يناسب تماما وجلال قدره وعظيم خطره - (**مقدمة ختم الأولياء ، نشرة عثمان يحيى ص ٣٧ ، بيروت ١٩٦٥**) ·

لماذا كان الترمذى حكيما ؟ ؟

أما عن سبب تسميته بالحكيم ، فيجب أن نشـــير أولا الى أنه لقب بألقاب عديدة ، منها ما سمى نفسه به ومنها ما سماه غيره به ، وتلك الألقاب هى : الامام - المؤذن - المحدث - الحافظ - الزاهد - العالم العلامة · ولقد أختلفت هذه الألقاب بين رسالة وأخرى من آثاره التى تركها ·

أما تلقيب الترمذى بالحكيم فكان هو الأكثر شيوعا وانتشارا وكأنه لصيق به وباسمه وكنيته · ولقد وجدنا مناقشة لهذه المسألة - أى سبب تسميته بالحكيم - عند بعض الباحثين ، حيث أثاروا هذا التساؤل على النحو : (لماذا انفرد الترمذى من بين شيوخ الصوفية بهذا اللقب ؟ ! لأنه كان على معرفة بتركيب الجسم ، مما يدل على أنه درس الطب ؟ أو لأنه كان حريصا على أن يجمع فى تآليفه بين الناحية الروحية القديمة للثقافة الاسلامية ، وبين المنهج العقلى الذى جد فىعصره ؟ أو لأن الترمذى كان أول مسلم بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الاغريقية ، فكان بالتالى الممهد لمذهب العرفان فى التصوف الاسلامى ، وبهذا مهد السبيللأعمال الفارابى ؟ ؟ (راجع جـ ٨ من مقدمة عثمان يحيى لختم الأولياء ، وقارن ص ٧ مقدمة عبد المحسن الحسينى لكتاب الحقيقة الآدمية للترمذى) ·

ونلاحظ تناقضا فى بعض هذه التعليلات وذلك مثل قول عثمان يحيى بأن الترمذى كان أول مسلم بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الاغريقية ، وهو قول غير دقيق لأن الكندى المتوفى حوالى ٢٥٣ هـ ، وأبا الهذيل العلاف المتوفى عام ٢٣٤ هـ ، وابراهيم النظام المتوفى عام ٢٥٦ هـ ، كانوا أول من

تأثر بالفلسفة اليونانية فى عصرهم ، ولقد أشارت المصادر الى ذلك فضلا عن أن آرائهم ذاتها تؤكد ذلك التأثر . ومع ذلك فان العلاف والنظام لم يلقب واحد منهما بلقب الحكيم ، أما الكندى فهو وحده الذى لقب به ، بوصفه أول فلاسفة العرب والاسلام . وعلى ذلك فان ارجاع تسمية الترمذى بالحكيم الى ذلك السبب ليس صحيحا .

ولعلنا نرجع السبب فى ذلك الى قدرة الترمذى على سبر أغوار النفس الانسانية ، واستكناه باطنها لمعرفة علة مرضها وكيفية معالجتها ، وتلمسه العلاج فى أساليب فلسفية وفى مفاهيم عقلية وروحانية ، كالتطهير والتأديب والتهذيب والرياضة الروحية والمجاهدة الذاتية ، وعند هذه المفاهيم التى تدخل تحت ما يسمى باماتة الذات والشهوات عند فلاسفة الأخلاق .

كما أننا نرجح أن يكون الترمذى قد لقب بالحكيم لمنهجه فى الحديث عن الانسان ، مفهومه وكيفية خلقه وتسويته وتقسيم أدوات معرفته بين حواس ظاهرة وأخرى باطنة ، وسنرى الى أى حد كان حديث الترمذى عن الحواس الباطنة حديثا طريفا كل الطرافة ، وكانت معظم آرائه فيها أصيلة كل الأصالة، حين قسمها الى صدر وقلب وفؤاد ولب ، وجعل لكل أداة من هذه الأدوات درجة من المعرفة ومرتبة من حيث اليقين والصدق .

وكذلك فان تحليلاته الرائعة والعميقة للألفاظ والمصطلحات تدل على خبرة واسعة ودراية شاملة بالأشياء وبالأسماء وبالمعانى . ولعلنا نتمكن فى يوم ما من أن نتناول المصطلح الفلسفى عند الترمذى بالبحث والاستقصاء .

ثم ان كثيرا من الأمثلة التى كان يسوقها الترمذى بقصد توضيح فكرة أو تبسيط رأى ، انما تدل على منحى تجريبى فى تفكير الترمذى ، كما تدل أيضا على خبرة بالنفس الانسانية وعلى وعى بالعقل الانسانى ، وكيف أن الانسان يفتقر دائما – فى تصديقه بمعظم الأشياء – الى استدلالات وأمثلة من الواقع لكى يمكنه تصور الفكرة وتعقلها ، ومن ثم الاعتقاد بها . فالتجريد كما نعلم يبدأ من الواقع ويرتبط به ارتباط الكليات بالجزئيات التي استخلصت منها ، وينتمى الواقع الى الفكر أنتماء الجزئى الى الكلى .

ومما يمكن أن نضيفه الى أسباب تسـمية الترمذى بالحـكيم ، تلك التقسيمات الطريفة للعلم ، وتقسيمه الحكمة الى عليـا ودنيا ولعله قد وصل فى حياته الى الحكمة العليا وحصل على هدفه الأسمى ، ومن هنا استحق أن يكون حكيما لاتساق آرائه مع هدفه منها ، ومع المنهج الموصل الى تحقيق هذا الهدف ٠

ونحن سنحاول أن نؤكد هذا الاتجاه التجريبى فى آراء الترمذى الحكيم فى مواضع كثيرة من دراستنا هذه ، وفى غير موضـع فى تعليقاتنا على المخطوط ، لأننا لو تركنا العنان لعقلنا من أجل تبرير تسمية الترمذى بالحكيم وتفسيرها ، لما وسعت لذلك صفحات وصفحات ، لأن الأمر حينئذ يحتاج الى تحليل كل آراء الترمذى من هذه الزاوية ، ولعلنا نتمكن من القيام بهـذه المهمة فى مجال آخر حين نتناول المنهج الفلسفى عند الحكيم الترمذى ٠

الشريعة مصدرا لآراء الترمذى :

لاحظنا فى قائمة أساتذة الترمذى التى أوردناها ، والذين كانوا شيوخه ومصادره للحصول على كثير مما حصل عليه من علوم ومعارف ، أن من هؤلاء الأساتذة من كان فقيها ومن كان محدثا ، ومن كان زاهدا ومن كان متصوفا ، وهكذا فأن تنوع هؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم الترمذى جعل معارفه متنوعة أيضا ومن ثم متكاملة ، فلقد استطاع الترمذى أن يتقن علم الفقه والحديث فى المرحلة الأولى ، كما أمكنه أن يستكمل ما يحتاج الى أخذه عن المحدثين ، ثم أشار هو الى أن الله تعالى شرح صدره فحفظ القرآن واستنار به قلبـه ٠

ونحن نرى أن اتقان الترمذى للقرآن وعلومه وللسنة وعلومها كان له أثر فعال فى اتجاهاته الفكرية وفى كثير من آرائه التى أفرد لها كتبه وتصانيفه المتنوعة ٠ هذا اذا لم نغفل العنصر الذاتى المتمثل فى شـخصية الترمذى وعقليته ، وأسلوبه فى استجابته لما تلقاه من معارف وثقافات اسلامية ٠

وكذلك فان المتأمل فى كتب الترمذى يلاحـظ كيف أنه كان فريدا فى معرفته العميقة بالقرآن الكريم ، واحاطته الدقيقة بكثير من أسرار معانيه ، وكذلك كان أيضا فيما يتصل بالسنة النبوية ومناهجها ٠

ولسنا بحاجة الى اعادة القول بأن كتب الترمذى ورسائله لا تخلوا من الآيات القرآنية التى يؤيد بها رأيه ، بل فى كثير من الأحيان يأخذ رأيه من تفسير آية أو صياغة بضع آيات بطريقة بارعة ، وكذلك أيضا فيما يتعلق ببعض الأحاديث النبوية التى يستند اليها فى أفكاره ، ويستمد منها بعض الأفكار الأخرى ٠

وهكذا كانت الشريعة الاسلامية ـ قرآنا وسنة ـ بشتى العلوم والمعارف التى تتفرع عنها ، مصدرا خصبا لمعظم آراء الترمذى ان لم تكن مصدرا لكل حكمته واقواله ، وكأنه استطاع أن يعمق الأفكار الشرعية ، ويستكنه أسرار الشريعة ويخرج منها بآرائه ، وهو فى ذلك لم يخرج على الشرع وان كنا لا نستطيع أن نضعه فى اطار واحد ، وهو السنة ، لأن اتجاهاته متنوعة ، وآراءه متشعبة ، بحيث لا نستطيع أن نختم جميع فكره وآراءه بخاتم واحد ، أو نوسمها بسمة واحدة ، فلقد كان الحكيم الترمذى مفكرا موسوعيا ومن ثم اسشتحق أن يلقب بلقب الحكيم ، الذى يحتـــاج من صـــاحبه الى قدرات خاصة ، ومواهب كثيرة ، والى تنوع فى المصادر التى يصدر عنها فكره ، ونحسب أن الحكيم الترمذى كان كذلك ٠ ولكننا فى كل الأحوال نرى الشريعة كانت القاسم المشترك فى كل مصادر حكمة الترمذى وتصوفه ٠

موقف الترمذى من الشيعة :

أتهم الترمذى بأن بينه وبين الشيعة الامامية رابطة نسب وصلة وثيقة نظرا لوجود بعض أوجه الشبه بين فكرة الامامة عند الشيعة والولاية عند الصوفية ، ولقد كدنا أن نتهمه بذلك حين وجدناه يقول فى رسالة فى تفسير قول لا اله الا الله : (ان البعض فسر هذا القول تفسيرا ظاهريا وكتم الباطن وما فى حشوه ـ راجع نص الرسالة الملحق بكتاب علم الأولياء ـ القســم الثانى) ونحن اذا أخذنا هذا القول على ظاهره لكان الترمذى مستخدما منهج الشيعة الباطنية فى تفسير القرآن ، وهو منهج التأويل ، ولكننا حين بحثنا عن جوهر هذا القول وحقيقته وجدناه يرى أن لـــكل قول من أقوال القرآن حقيقة ظاهرة وحقيقة باطنة أعمق وأدق ، وهو ما نسميه بتفســـير القرآن بحسب روح النص ومعناه وليس فقط ظاهره ومبناه ٠

ولعل الاتجاهات السائدة فى عصر الترمذى كانت ذات تأثير عليـــه

بطريقة ما ، وان كان هذا لا يؤدى الى أن نحشره فى زمرة الشيعة أيا كان اتجاهها ٠

ولقد ناقش الترمذى الشيعة فى كثير من دعاويهم نظرا لاتصال مشكلة الامامة عندهم بنظرية الولاية عنده ، ولن نتمكن هنا من عرض كل مناقشاته معهم التى حفلت بها مؤلفاته الكثيرة ، ولكننا سنعرض فقط نموذجا واحدا منها ، بما يفيدنا فى تحديد علاقته بالتشيع وموقفه من أهله ٠ وبمـا يبرز نوعية التصوف الذى كان يمارسه الحكيم ويدعو اليه ، وكيف أنه لم يكن يعتزل المجتمع أو يبتعد عنه كما كان يفعل معظم الصوفية ، بل كان يساهم فى كل جوانب الحيـاة الفكرية والثقافية فى عصره بما أنار العصـور التالية له ٠

واذا كان لنا أن نصنف التصوف الى تصـوف سلبى انعزالى والى تصوف ايجابى اجتماعى ، حسب مشاركة المتصوف ومساهمته فى مجتمعة أو بعده واحتجابه ، فان الترمذى كان يعد رائدا من رواد التصوف الايجابى الاجتماعى أى التصوف المساهم الفعال ، ومن هنا يكون أقرب الى الجانب العملى منه الى الجانب النظرى المحض ٠

ومن المقولات الخاصة بالشيعة والتى تتشابه فيها مع بعض مقولات الترمذى ، فكرة العصمة التى يستندون فى اثباتها الى الأدلة النقلية ، مثل قوله تعالى : (انما يريد الله ليذهب عنـكم الرجس أهـل البيت ويطهركم تطهيرا ـ الأحزاب / ٣٣) ويرون أن أهل البيت الذين تعنيهم الآية هم على وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم ، وأنها دليل على عصمتهم ، وكذلك قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ـ النساء / ٥٩) ففى ذلك تأكيد للعصمة بحسبان أن الله تعالى لا يأمر بطاعة من ليس معصوما عن الخطأ ، والا اجتمع الأمر والنهى فى الفعل الواحد ، لأن الخطأ ـ وهو مأمور به ـ منهى عنه ، ويرون أن أولى الأمر المذكورين فى الآية الكريمة هم الأئمة المعصومون من أهـل البيت (راجع الأصول العامة للفقه المقارن ، الأستاذ محمد تقى الحكيم ، جـ ١ ص ١٤٩/ ١٥٩ مواضع متفرقة) ٠

والى جانب الآيتين السابقتين يوجد حديث الثقلين الذى يستند اليه

الشيعة فى فكرة عصمة الأئمة ، ونص الحديث يرويه الترمذى عن حذيفة بن اسيد الغفارى ، رضى الله عنه قال : (لما صدر رسول الله من حجة الوداع خطب فقال : أيها الناس ، انه قد نبأنى اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبى الا مثل نصف عمر الذى يليه من قبل ، وانى أظن أن يوشك أن أدعى فأجيب ، وانى فرطكم على الحوض ، وانى سائلكم حين تردون على عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفوننى فيهما ، الثقل الأكبر كتاب الله تعالى ، سبب طرفه بيد الله تعالى وطرف بأيديكم ، فاستمسكوا فلا تضلوا ولا تبدلوا ، والثقل الأصغر عثرتى ، أهل بيتى ، فانى قد نبأنى اللطيف الخبير أنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض ـ (راجع نوادر الأصول للترمذى ص ٦٨/٦٩) ٠

ويعلق الاستاذ محمد تقى الدين صاحب الأصول العامة للفقه المقارن ، بأنه يستدل بهذا الحديث على عصمة أهل البيت وبقاء العترة الى جانب الكتاب الى يوم القيامة ، وتميزهم بالعلم بكل ما يتصل بالشريعة وغيرها ، ولزوم التمسك بهم كما يلزم التمسك بالكتاب ـ (راجع الفقه المقارن ج ١ ص ١٦٦) ٠

والترمذى يناقش دعوى الشيعة حول فكرة العصمة ، مبينا تهافتها من حيث أنهم استقوها من الحديث السابق والآيتين السابقتين ، وينكر فهم الحديث على هذه الصورة ،ويرفض أخذ معناه من هذا الجانب ، باعتبار أن العصمة عند الترمذى قاصرة على الرسل والأنبياء فقط ، أما المحنة والابتلاء فلغيرهم من البشر ٠ ويوضح الترمذى أن المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم : (لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، وقوله ما ان أخذتم به لن تضلوا) بأن ذلك واقع على الأئمة السادة منهم ، لا على غيرهم ، لأنه كائن فيهم المخلطون والمسيئون ، وليس بالمسىء والمخلط قدوة ، فيلزمنا الاقتداء بهؤلاء الأئمة من حيث علمهم وفقههم ، لا من حيث عنصرهم وأصلهم ، فاذا وجد هذا الفقه وهذا العلم فى غير عنصرهم لزمنا الاقتداء بهم ، كالاقتداء بهؤلاء (**نوادر الأصول ص ٦٩**) ٠

ويستطرد الترمذى فى مناقشته للشيعة فيقول : (وانما أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما نرى ، اليهم لأن العنصر اذا طاب كان معينا لهم على فهم ما يحتاج اليه ، وطيب العنصر يؤدى الى محاسن الأخلاق ،

ومحاسن الأخلاق تؤدى الى صفاء القلب ونزاهته ، واذ نزه القلب وصفا كان النور أعظم ، وأشرق الصدر بنوره ، وكان عونا له على درك ما به الحاجة اليه من الشريعة ـ نوادر الأصول ص ٦٩) وهذا النص وغيره ، يوضح كون أهل البيت صفوة مختارة من حيث نقاء القلب وصفاؤه وحسن الأخلاق ، مما يؤدى بهم الى ادراك حاجاتهم من الشريعة دون لبس أو خطأ باشراق نور القلب على الصدر ٠

ثم يعقب الترمذى أيضا على فهم الشيعة لقول الله تعالى : (أطيعوا اللهوأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) بقولهمفسرا هذه الآية : (فانما يلى الأمر منا من فهم عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فاتهم الحاجة اليه من أمر الشريعة ، ويؤكد صحة رأيه هذا بما يرويه عن جابر وابن عباس وعدة من أصحاب رسول الله فى تفسير هذه الآية الكريمة ، قال : هم العلماء والفقهاء ـ راجع الرد على الرافضة ص ٨٣ مخطوط ولى الدين) ٠

وكل ما نريد أن نستنتجه من موقف الترمذى هنا من بعض آراء الشيعة هو التأكيد على مخالفته لهم وأنه ليس واحدا منهم كما توهم البعض استنادا الى بعض أوجه الشبه بين نظريته فى الولاية ونظريتهم فى الامامة ، مع أن الفرق بين الاتجاهين كبير ٠

منهج الترمذى وأسلوبه :

نلاحظ أن منهج الترمذى وأسلوبه فى صياغة آرائه والتعبير عن أفكاره، فيما يتصل بالمخطوط موضوع التحقيق أو فيما يتصل بكثير من مصنفاته وكتبه التى قرأناها ، نلاحظ أنه يتبع منهج التحليل والتركيب فى بعض الأحيان، وأحيانا المنهج التحليلى وحده ، ومثال ذلك قوله : (وصنف منهم أعلا من هذا ، وهم دعاة الى الله تعالى وتقدس ، اذا فقهوا لما بصروا صور الأشياء فى صدورهم ، وعاينوا ما فى صور الأشياء من المعانى ، لأن المبتغى من صور الأشياء فى الصدور ، وجود ما فى الأشياء من المعانى ، فاذا طالعوا ما فى المعانى كان لهم الوجود فى المعانى ، وروى عن الرسول أنه قال : ما من آية الا ولها ظهر وبطن ، وما من حرف الا وله حد مطلع ، فاذا كان لهم

الوجود ، أى الوجود لما فى المعانى من المطالعة ، سمى ذلك الوجود بصيرة ، وهى بصيرة النفس - راجع النص بالقسم الثانى ، الاشارة رقم ٢٧٠) ٠

وواضح أن الترمذى لا يكتفى بالبحث عن الأشـياء ذاتها فقط لمجرد معرفتها من الظاهر ، ولكن ما يعنيه هو الوقوف على معانى هذه الأشياء ودلالاتها ، فالمعرفة معرفة بظواهر الأشياء ثم هى أيضـــا معرفة بباطنها وجوهرها ، أى معناها وحقيقتها الداخلية التى تميزها عن أشياء أخرى ربما تشترك معها فى الوجود الظاهرى والأوصاف الخارجية ٠

على كل حـــال فان منهج الترمذى فى عرض آرائه وفى التعبيـــر عن أفكاره ، وفى مناقشة آراء الآخرين يمكن تصنيفه فى عدة نزعات أو اتجاهات، تتكامل فيما بينها ولا تتناقض أو تتعارض ، ومن ذلك :

١ - **النزعة التحليلية** : وذلك بأن يرجع باللفظ الى معنـــاه ودلالته الواقعية ، وربطه بين الاسم والمسمى أى بين الشىء ومعناه ، أو بين الدلالة والمدلول ٠ (راجع الحواشى : تعليق رقم ٨ ، ٩ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٧) ٠

٢ - **النزعة اللغوية** : وذلك بأن يحلل كل لفظ الى عناصره اللغوية ، مؤكدا على العلاقة بين الحروف المكونة لكلمة ما وبين هذه الكلمة وبين المعنى الخاص بها ، وكأنما أراد أن يؤكد على أن فى الحرف جزءا من معنى الكلمة ، كما أن فى الكلمة جزءا من معنى العبارة ، ومن مجموع هـذه الأجزاء تتـــكون المعانى الكاملة للكلمة أو للعبارة ٠

٣ - **النزعة التجريبية** : وذلك من أمثلته التى يوردها واستدلالاته التى تدل على استقراء دقيق للواقع ، وذلك بقصد تقريب الفكرة التى أراد أن يعبر عنها وأراد أن يوصلها الى الأذهان بربط الواقع بالفكر ، أو الوجود بالمعرفة ٠

٤ - **النزعة التوفيقية** : وذلك بتحديده للآراء المختلفة حول موضوع ما ، ومحاولة التقريب والتوفيق بين الاتجاهات المختلفة ، وايجاد

الوفاق بين المتخاصمين بازاء رأى أو فكرة ما ، مستندا فى كل ذلك الى قدرته الفائقة على التحليل اللغوى واللفظى ، وعلى خبرته الوافية بمعانى الكلمات ودلالات الأشياء والأسماء ، وكان الترمذى توفيقيا وليس تلفيقيا ٠

٥ - **النزعة الفلسفية** : وهذه النزعة هى التى تجمع النزعات الأربع السابقة ، لأن من يلم بها وتجتمع عنده يصبح ذا منحى فلسفى ، بالاضافة الى قدرة الترمذى على سبر أغوار النفس ، وتقسيمه لقدرات الانسان المختلفة حول الادراك والمعرفة ، وغير هذا مما ذكرناه فى أسباب تسميته بالحكيم ٠

٦ - **النزعة النقدية** : لم يترك الترمذى مجالا من مجالات الفكر الاسلامى الا وخاض فيه ، وأدلى بدلوه ، سواء الفقه أو الكلام أو الحديث أو التصوف ، وله على كل أصحاب هذه المجالات آراء وتحفظات مما يدخل فى عداد النقد ، وقد كان موضوعيا فى نقده وحياديا ، كما كان ايجابيا وليس سلبيا فكثيرا ما كان يقدم البديل الذى يراه صحيحا للفكرة التى تتهافت أمام نقده ٠

٧ - **النزعة الدينية العملية** : تتجلى هذه النزعة فى كل نزعة من النزعات السابقة ، فهى بمثابة العلة الغائية من وراء كل نزعاته تلك ، كما أنها فى نفس الوقت العلة المحركة ونقطة انطلاقه التى من أجلها اتجه كل هذه الاتجاهات ، ونزع كل هذه النزعات المختلفة والمتكاملة فى نفس الوقت ٠ ونقول عن النزعة الأخيرة أنها نزعة دينية عملية لأنها تجاوزت الأسس النظرية التى تناولها وسيلة وأداة لدعوة شاملة الى وفاق واتفاق ، ونبذ وتطهر ، ثم سلوك ووصول ، وغير هذا مما سنلاحظه أثناء هذه الدراسة ٠

فلسفة اللغة عند الترمذى :

تناول الترمذى عدة موضوعات فى كتابه علم الأولياء مما يدخل تحت ما يسمى بفلسفة اللغة العربية أو فقه اللغة العربية ، ومن ذلك بحث الترمذى حول العلاقة بين الاسم ومعناه والشىء الذى يسمى به ، وهل الاسم من حيث

دلالته على الشيء هو نفسه الشيء أم لا ؟ ولقد وجدنا أن هذه العلاقة بين الاسم والشيء ليست مطرودة وضرورية الا اذا كانت اللغة توفقية وليست من اصطلاح البشر واتفاقهم ، ونحن نرى أن اللغة الى الاصطلاح والمواضعة بين البشر أقرب من أن تكون توقيفا كما ذهب الترمذى ٠

فكم من اسم يسمى به شيء له دلالة فى مجتمع ما تختلف دلالته ومعناه عن مجتمع آخر ٠ وابن متون يقول فى ذلك : (قد يصح أن يدخل فى الاسماء قلب ثم لا يقتضى ذلك فى المسميات على ما يحكى عن عباد لأنه منع أن يصير المجاز حقيقة ، والحقيقة مجازا ، وهذا بعيد لأن السواد لو سمى بياضا لم يخرج عما هو عليه فى ذاته ، وعلى هذا يوجد السواد ولا مواضعة عليه أصلا ، ولا يمكنه أن يمنع من صحة وقوع المواضعة من أهل اللغة على خلاف ما وقعت لأنه المعنى ولا يعرف اسمه ، وكذلك فليس الاسم بموجب للمعنى لأن الأعجمى لقن لفظه وان لم يعرف معناها ـ وكذلك القول فى الدابة لأنها وضعت فى الأصل لكل ما يدب ، ثم صار حقيقة فى هذا الحيوان المخصوص ٠ ويعقب ابن متويه على العلاقة بين الاسم والمسمى بقوله : (ويصح عندنا قلب الاسماء والاتيان بمواضعة ثانية اذا حصل فيه غرض صحيح ، وعلى هذه الطريقة حسن الاصطلاح من أهل النحو والعروض والفقه والكلام ، على ألفاظ أفادوا بها غير ما وضعت له فى الأصل ، وقد منع الشيخ أبو القاسم من جواز ذلك الا بوحى ، وأنه متى انقطع الوحى امتنع جوازه ، وما بيناه قد أبطله ـ التذكرة لابن متويه ص ٣٨٠ / ٣٨١) ٠

ولعلنا نلاحظ أن رأى ابن متويه هنا حول الاسم والمسمى وصلة كل منهما بالآخر ، وان كان قلب المعنى من حقيقة الى مجاز أو العكس ، يعد ردا موضوعيا على وجهة نظر الترمذى التى جعل فيها اشتقاق الاسم من سمة الشيء ، وبالتالى فان العلاقة بينهما لا تتغير ، ومن الواضح أنه متفق مع رأيه حول أصل اللغة وكونها توقيفا ، ومن ثم لا يتغير معنى الاسم المشتق من الشيء الذى تعلم سيدنا آدم معناه ودلالته عن الله عز وجل منذ بدء الخليقة ٠

ولكن الترمذى تراجع فى بعض المواضع من علم الأولياء عن نظرته الى ثبات العلاقة بين الاسم والمسمى ، وبالتالى عن توقيفية اللغة وذلك فى قوله : (انما سمى اسما لأنه يضىء لك عن لب الشيء ومكنونه ، ويترجم لك

ويكشف عن مكنون ذلك الشىء ، فهذا تفسير الاسم ، فليس من الاسماء الا وقد وسمه الله باســـم يدل على مكنون ما فيه من الخبر والجوهر ـ راجع النص ، الاشارة رقم ٨ ، ٩) ولعل الترمذى يعنى بذلك أن الله تعالى حين وضع للاشياء أسماءها ، وللالفاظ معانيها ، كانت لا تحمل فى داخلها الخير والفضيلة لا الشر والرذيلة ، وتكون الاشياء حينئذ قد اكتسبت ما فيها من شرور ورذائل من استخدام البشر لها ، لا من تسمية الله اياها ، وهنا يمكن أن تدخل فكرة الاصطلاح والمواضعة فى تسمية الاشياء ومسمياتها عنـــد الترمذى ، واختلاف مدلول الاسم ومعناه من مكان وزمان الى مكان وزمان آخرين ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يمكننا تفسير مسألة المواضـــعة والاصطلاح فى اللغة بين البشر حين نقرر أن كل اسم من الأسماء قد وسمه الله باسم يدل على حقيقته وعلى ما فيه من الخير والجوهر ، أى الحقيقـــة الباطنة والعرض الخارجى ، وفى هذه الحالة يختلف خبر كل اسم بحسب خبرتنا به واستخدامنا له ، ونظرتنا اليه ومن ثم بحسب ما نتفق عليه من معنى له تبعا للاصطلاح المتعارف بيننا ٠

والترمذى حين أكد على حمل الاسم لدلالة المسمى ومعناه ، أكد أيضا على المعنيين الظاهر والباطن للشىء ، كما يلاحظ أنه تحدث عن دلالة الاسماء المختفية فى العناصر ، وكأنه يتحدث عن جواهر متعددة فى الاشياء ، منها المعنوى المجرد الباطن ،ومنها المادى المحسوس الظـــاهر ، وكلاها طريق للمعرفة والاستدلال على الاشياء بعد استخدام الاسماء ، ويلاحظ كيف أن الترمذى يحلل اللغة تحليلا فلسفيا ، ويحلل الفكر منطقيا ، ويحلل الاشياء تحليلا طبيعيا ، كما يحلل صور الأشياء ، بوصفها معانى عقلية عامة وكلية ، تحليلا ميتافيزيقيا ومنطقيا فى آن واحد ٠ وذلك فى قوله : (علم الله آدم كلمة فعلم بها الاسماء كلها ، فانما علم بها لأنها أصل الكلام ، فبالحروف المعجمة ميز كل شىء ،وبالاسماء استدل على الأخبار المكنونة فى الأشياء ، وعلى الجواهر الخفية فى العناصر ـ راجع النص ، الاشارة رقم ٢٤ ، ص ٢٦)٠

ولقد قارن الترمذى مقارنة طريفة بين الاسم والصفة ، كما فرق بينهما تفرقة عميقة ، كما بين قيمة ووظيفة كل منهما ، حين جعل أحد اللفظين خاصا بالمعنى والمنطق أى الفكر والعقل ، والآخر خاصا بالمبنى والنطق واللسان أى الصوت ، أحدهما خاص بالدلالة والآخر خاص بالمدلول ، وذلك فى قوله :

(فالاسم سمة الشيء والصفة ظهور الشيء ووضوحه وبروزه ، فالاسم للمنطق، والصفة للفظ ، فالاسم فى الفم للسان ، والصفة فى العين للعين (راجع النص ، الاشارة رقم ٢٠) وهذا التدرج فى التحليل عند الترمذى ربما يقترب كثيرا من التفرقة بين اللغة حين تعبر عن فكر منطوق ومسموع ،وبين الفكر حين يكون هو الكلمة غير المنطوقة ، ولا يمكننا أن نفصل بين لغة انســـان وتفكيره ، فاللغة فكر منطوق ، والفكر لغة غير مسموعة ولا منطوقة ، ومن هنا جاءت وحدة المنطق واللغة من حيث أنهما نتاج الانسان بوصفه حيوانا ناطقا وعاقلا ٠

ويمكن أن يلتقى بعض كلام الترمذى حول علاقة الاسم بالمسمى ومنشأ اللغـــة ، مع المنطق فى مبحثه الخاص بعـــلاقة الألفاظ من حيث المفهوم والماصدق ٠

وبمناسبة ذكر منشأ اللغة ، فان للترمذى رأيا حول بداية اللغات كلها ، يرى فيه أن الأحرف العربية بصورتها الحالية ، هى أصل اللغات كلها وأصل العلم لسائر البشر ، وأن آدم عليه السلام كان يتحدث العربية ، وأن العربية كانت لغة تعليمه كما كانت لغة الوحى المنزل على أى نبى من الأنبياء ٠

والترمذى فى ذلك قد شط شططا بعيدا اذ أن الانجيل والتوراة لم ينزل وحيهما الا باللغة السريانية والعبرية ، ثم ما موقفه من الآية التى يقول فيها الله تعالى : (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ـ ابراهيم / ٤) وهى تدل دلالة واضحة على أن اللغات اسبق من بعثة الرسل ، كما تدل على اختلاف لغات التنزيل بين الرســالات الســـماوية الثلاث (اليهودية والمسيحية والاسلام) بل ان صحف ابراهيم ومزامير داود كانت كل منها بلغة ليست هى اللغة العربية فى صورتها الراهنة ٠

وهناك للترمذى رأى آخر مؤداه أن سيدنا آدم كان بالفعل أول من وضع اللغة وقسمها على هذا النحو تبعا للأدوات وبحسب الجوارح ،ولعل كل هذا من الترمذى استنتاج مؤسس على التخمين ، وما بنى على التخمين فان العقل لا يصدقه بسهولة ٠ وهو فى ذلك يقول : (فركب آدم عليه الســـلام تركيبا عجيبا ، فوضع العلم بالاسماء والمعرفة بها فى قلبه ، وتصـــويرها

فى صدره وتعبيرها فيما بين حلقة الى شفتيه ، فصير القلب طرفا للعلم ، والصدر طرفا للتصاوير ، والفم طرفا للتعابير ، فركب ـ أى آدم ـ للحروف أدوات ، وجعل الحروف منقسمة على الأدوات ، منها للحلق واللهاة واللسان والاسنان والشفتان (راجع النص ، الاشارة رقم : ١٢ ، ١٣) ٠

ومما يتصل بفلسفة اللغة عند الترمذى ، مسألة بحثها وتلتقى الى حد كبير مع ما يسمى الآن بعلم الصوتيات ، وذلك فى تقسيمه أحرف اللغة على الأعضاء الانسانية ، فى طريقة النطق بها واخراجها ، وما يترتب على ذلك بخروج الصوت والكلام بالطريقة السليمة والمناسبة ، ومن المعروف أن الأعضاء التى تؤثر فى خروج الكلام وفى طريقة نطقة ، وبالتالى وضوح الألفاظ وحروفها أو غموضها ، هى : الحلق ، اللهاة ، واللسان ، والاسنان ، والأنف ، والشفتان ، والصدر الذى له تأثير كبير فى عمق الصوت وقوة تردده ، تلك هى الأعضاء التى يشير اليها علم الصوتيات على أنها تتدخل فى مخارج الحروف وطريقة نطق الكلمات ، أما الترمذى فقد عبر عن هذه الأعضاء بقوله : (فهذه الحروف الثمانية والعشرون حرفا منقسمة على الأدوات ، فحروف الحلق جزء ، وحروف الاسنان جزء ، وحروف اللسان جزء ، وحرف اللهاة جزء ، وحروف الشفتين جزء ، وانما قيل تسعة وعشرون لأن حرف (لا) يتكرر ، وانما (لام وألف) حرفان مقرونان ـ راجع النص ، الاشارة رقم : ١٤ ، ١٥) ٠

والترمذى يربط بين أطراف اللسان والحروف التى تخرج عنها ، ولعله يقصد بأطراف اللسان مقدمته وجوانبه من حيث تأثيرها فى كيفية نطق الحروف وفى مخارجها ، وذلك فى موضع آخر حين يتحدث عن أدوات النطق وأماكن خروج الكلمات والصوت ، مؤكدا على دور اللسان الرئيسى ، وفى هذا يقول: (الكلام للسان لا لغيره، ومملكة اللسان الفم، وحدودها من الصدر الى الشفتين ، فمن الصدر انبعاثه ، فبعضها الى الحلق وبعضها الى اللهاة وبعضها الى الأسنان ، وبعضها الى أطراف اللسان ، وبعضها الى الشفتين ، قرب حرف يجد سبيل بروزه من الصدر فيستغنى عما سواه،ورب حرف يجد السبيل من الحلق فيستغنى عن غيره ،ورب حرف لا يجد المستقر حتى يبلغ الى الشفتين ، فانما تلفظ الحروف بالمستقر ، وهى الحدود ، ولذلك يقال حرف ٠ والحروف هو الحد ـ النص ، الاشارة رقم ١٠٦/١١٠) ٠

ونحن وان كنا نلاحظ هنا أن الترمذى يكرر ما سبق أن تحدث عنه حول تقسيم الحروف على الأعضاء ابتداء من الصدر وانتهاء بالشفتين ، الا أنه وقد بدا لنا قريبا من مجال علم الصوتيات الحديث ، نجده يبين العلاقة المكانية بين الحرف ومصدره ، وأن هذه العلاقة تنتهى بمجـــرد خروج الحرف من مستقره ٠ ثم ان قول الترمذى أن الحرف هو الحد انما كان لبيان كيف أن الحرف، هو نهاية المطاف لحركة العضو الذى هو علته ومصدره ومستقره ٠

ويمكننا على ذلك أن نقرر أن الكلمات هى حدود الجملة ، وأن الحرف هو حد الكلمة الواحدة ، بصرف النظر عما اذا كانت الكلمة أو الجملة ذات معنى أو غير ذات معنى ، وذلك مثلما نقول ان الواحد الحسابى هو حــــد الأعداد الحسابية ونهايتها ، وذلك لأن أى محاولة فى العد والاحصاء ، لابد وأن تنتهى بعدد ما يكون الواحد هو نهايته أيضا ، ومن هنا يمكن القول بأن مبدأ تسمية الواحد من الـ (حد) ٠

ولقد أشار ابن متويه الى عدد الحروف المعجمة ، وحدد المقدور عليه من هذه الحروف ، وبين الفرق بين بعض اللغات واللغة العربية ، وذلك فى قوله : (فأما الحروف المقدور عليها فهى تسعة وعشرون ، ويقع فى بعض اللغات حروف بين الجيم والسين ، والباء والفاء ، والقاف والكاف ، وذلك منتف فى لغة العرب ، وماذاد على هذه الحروف فمجوز فى المقدور ، وان يكون تعذره علينا لفقد آلات مخصوصة ، ثم تلك الزيادة يجـــوز أن تكون محصورة ، ويجوز خــــلاف ذلك فيها ، والله أعلم ـ التذكرة لابن متويه ص ٤٠٠) ٠

وحول ابتداء اللغات واختلافها يشير ابن متويه الى أن الابتداء يكون بالمواضعة ، ثم يحصل التوقيف من بعده ، وهو فى ذلك يتفق مع أبى هاشم الجبائى ، مبررا ذلك بقوله : (لأن الخطاب الصـــادر عن الله تعالى يكون الغرض به معرفة مراده بخطابه ، فاذا لم تتقدم للمخاطب مواضعة على تلك اللغة مع غيره ، ولم يكن فى حكم المواضع مع نفســـه على لغة ، لم يفهم بالخطاب منها شيئا ، فيجب تقدم المواضعة لتصبح معرفة مراد الله بخطابه ، ثم يقع التوقيف من بعد لأنه فرع على ذلك ، فاذا لم تتقدم منهم المواضعة لم يمكنهم أن يعرفوا بالتوقيف شيئا ، لأن ذلك أيضا يكون بكلام ـ راجع تذكرة ابن متويه ص ٢٩٦) ٠

وكما اتضح أن ابن متويه أميل الى القول بأن اللغة تبدأ بالاصطلاح والمواضعة ، فانه يحاول أن يرد على قول القائلين بأنها توقيف ، اعتمادا على تفسير قول الله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها ـ البقرة / ٣١) وهو يرىأن هذه الآية ليست دليلا كافيا على أن اللغة توقيف ، كما يرى أن الله تعالى : (عرفه ـ أى آدم ـ اللغات التى يتواضعون عليها من بعد ، ليصير اخباره بتلك معجزة له عليه السلام ، ويحتمل أن يكون قد عرفه ما يتكلمون به ، فاذا كلمهم على ما يطابق مواضعتهم صار معجزة له ،وليس فيه أنه لم تكن تلك اللغة بمواضعة بينهم ٠ وقد يؤول قوله الاسماء على المسميات لأنه قال : (ثم عرضهم على الملائكة ـ ٣١ / البقرة) وهذا لا يصح الا فى المسميات دون الاسماء ، ولابد من أن يكون تعريف الله تعالى آدم عليه السلام ذلك بعد تقدم علمه بمواضعة على بعض اللغات ليعرف بها غيرها ، وهذا يؤذن بصحة ما قلناه ، ويجب تقدم كونها أسماء ليصح تعليمها من بعد ـ التذكرة ص ٣٩٨) ٠

أما عن اختلاف اللغات من حيث الأصل والمصدر فان ابن متويه أميل الى ذلك وليس الى وحدة أصلها كما هو الحال عند الترمذى ، وكأن القول بالتوقيف كأصل للغة يجعلها غير مختلفة ، والعكس بالنسبة للقول بأنها اصطلاح ومواضعة يؤدى الى كونها مختلفة ، وابن متويه فى ذلك يقول : (الاختلاف ثابت فى اللغات سواء كانت بالتوقيف أو بالمواضعة ، فان قلنا بأنها فى الأصل وقعت عليها مواضعة ، فاختلافها هو لتعذر اجتماع الخلق الكثير على فعل واحد فى وقت واحد ، وان كانت بالتوقيف فالله تعالى خالف بين بعضها وبين بعض ليقع الفصل للسامعين ، وليصير ذلك طريقا لمعرفة الضرير للفرق بين المخاطبين ، كما جعل الادراك طريقا للفصل فيمن يرى ويبصر ٠ واذا حكمنا باختلاف اللغات فلسنا نعنى به اختلاف الحروف ، وانما الغرض اختلاف التراكيب الحاصلة فيها ـ التذكرة ص ٣٩٩) ٠

ومن الواضح أن ابن متويه يقف الى جانب اختلاف اللغات فيما بينها حتى اذا كانت مبتدأة بالتوقيف فضلا عن كونها مختلفة بالمواضعة والاصطلاح ٠ كما أن ابن متويه برغم قوله بالاختلاف فانه أميل الى وحدة الحروف التى تتكون منها اللغات واتفاق تلك الحروف ، ويرجع الاختلاف بين اللغات الى اختلاف تركيب الحروف والكلمات واختلاف ترتيب الحروف

فى الكلمات ، مما يكسب الكلمة معانى جديدة تختلف بها عن كلمة مركبة من نفس الحروف ولكن بتركيب وترتيب مخالف ، فاذا كان ذلك يصح فى اللغة الواحدة ، فأولى أن يصح فى اللغات المختلفة · وذلك كما نقول : سوريا ـ روسيا ـ سوارى ـ رواس ، أو نقول : بلح ـ حلب ـ حبل وغير هذا ·

وابن متويه برغم هذا يشير الى امكان اتفاق لغتين على شىء واحد ، أى على كلمة واحدة تعطى معنى متوافقا بين لغتين ، وذلك يقول عنه ابن متويه : (وقد يقع الاتفاق فى لغتين على شىء واحد ، فان المشكاة وافقت لغة العرب فيها لغة الحبش ، والقسطاس وافقت فيه هذه اللغة لغة الروم ، وقد تقع اسماء معربة كجيل واستبرق وغيرها ، وكابراهيم ويعقوب وغير ذلك من الاسماء العجمية ـ وقد جعل الله تعالى التمكين من آلة الكلام ، ومن تركيب هذه الحروف على وجوه مختلفة ، تفاد بها المعانى أجمع ،وان لم تصح افادتها بغير الكلام من الاشياء المفيدة لكثرة الاتساع فيه دون غيره من نعمه العظيمة ، ومواهبه الجسيمة التى يلزم لأجلها الشكر ، فله الحمد كثيرا ـ راجع التذكرة ص ٣٩٩/٤٠٠) ·

وهكذا نلاحظ تشعب هذا المبحث الخاص بابتداء اللغات واختلافها أو اتفاقها ، وترتيب الحروف والكلمات وعلاقة ذلك بالمعانى أى بين الأشياء واسمائها ، وهو بحث يحتاج الى استقصاء دقيق ، ليس هذا مجاله ، فأتينا هنا من الآراء ما يعطى فكرة للقارىء ، وما يجعله ملما بعناصر المشكلة فى الاطار الذى عرضها الترمذى من خلاله ، ويمكن الرجوع الى الحواشى فى القسم الثالث حيث أوردنا بعض التعليقات المطولة حول هذه الفكرة عند الترمذى وعند الآموى وعند ابن متويه ـ وذلك فى التعليقات رقم : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٣) ·

علم الأسماء طريقا لمعرفة الله :

ذهب الترمذى فى موضع آخر من كتبه الى التأكيد على قيمة العلم بالحروف وكونها أصل الاسماء والأشياء وسائر العلوم ، بل ذهب الى أن معرفتنا للاسماء والحروف واتقاننا لهذا العلم يعد طريقا هاما لمعرفة الله ، وذلك فى قوله : (فان العلوم كلها فى حروف المعجم ، لأن مبتدأ العلم اسماء

الله ومنها خرج الخلق ، والتدبير فى أحكام الله وحلاله وحرامه ، والاسماء من الحروف ظهرت والى الحروف رجعت - (راجع للترمذى تحصيل نظائر القرآن ص ٦٧) وحين نبحث عن المجال الذى يمكن أن تتمثل فيه القاعدة التى أشار اليها الترمذى ، وهى أن الاسم دليل على المسمى ، وأن المعنى فى اسم الشىء ، بناء على ما ذهب اليه من أن اسم الشىء دليل على مكنون ما فيه من الخبر والجوهر ، وأنه السمة التى وسمه الله بها ، نقـــول حين نبحث عن المجال الخاص بذلك يتبين لنا أن كل الاسماء لا تخضع لهذه القاعدة عند الترمذى، ومن ثم لاتدخل جميع الأسماء التى وضعها الانسان واصطلح عليها ، ضمن العلم بالاسماء الذى أراده الترمذى خاصة من قوله : أن الاسم هو السمة التى وسمه الله بها ٠ وكأن المقصود بالاسماء تلك التى وضعها الله ووسم بها الأشياء ، أو ما يسميه الترمذى بالاسماء الأصلية ، وهى التى جاءت من عند الله تعالى مثل قوله تعالى : (انا نبشرك بغلام اسمه يحيى - مريم / ٧) وقوله عز وجل : (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد - سورة الصف / ٦) فالله هو الذى سمى هذه الاسماء ٠

وكأن الترمذى جعل اللغة توقيفا من جهة ، وذلك فيما يتصل بالاسماء التى ذكرها الله تعالى وأسماها بنفسه ، ووضعها فى كتبه الكريمة ، كما أن اللغة اصطلاح أيضا عنده من جهة أخرى فيما يتصل بالاسماء والمعانى التى تواضع الناس عليها ، وبالتالى لم يرد ذكرها فى كتاب الله ومحكم تنزيله ٠ وهذا النوع من الاسماء يخرج عن الاسماء الذى عنى به الترمذى ، ووضعه مع عالم الحروف على قمة العلوم جميعا ٠

وبهذا يكون القرآن الكريم هو أكمل موضوع ومجال لهذا النوع من العلوم بوصفه هو الكلام الأصلى الذى جاء من عند الله ، ولا يستطيع أن يجمع علم القرآن الا من استطاع الجمع بين هذه العلوم ، وهؤلاء يقول عنهم الترمذى : (ومن اجتمع فيه هذه الأنواع من العلم ، فقد جمع الله له علم القرآن ، ولذلك قيل : استدرجت النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى اليه - (راجع للترمذى : خلق هذا الآدمى ص ١٩٩) ٠

على أن الترمذى يتدرج من المبدأ الخاص بعلم الأسماء وقيمته ، الى هدف أسمى وهو أن كل المخلوقات بمسمياتها وأسمائها وأوصافها ومعانيها

تعد سبلا يمكن سلوكها ثم تجاوزها الى ما وراءها ، وهو الله سبحانه الذى جعل الاشياء خلقا له ، تعبر عن صفاته ، أو هى الصفات التى تعبر عن ذات موصوفة هى ذات الله تعالى ، وفى هذا يقول الترمذى : (ان ربنا تبارك اسمه لا يدرك حسا ولا مسا ولا ذوقا ولا شما ولا رؤية ، فأخرج للعباد من قبل أن يخلق صفات ، ولكل صفة نوع من الصنع والعقل والعمل ، ثم جعل لكل صفة سمة بحروف مؤلفة ، وجعل فى كل حرف منها ما وضع فيه من الصنع ، ثم ألفها فصارت اسما لتلك الصفة ، فالاسم راجع الى الصفة ، والصفة راجعة الى الموصوف ، لأنها منه بدت ، فالموصوف موجودة عنده تلك الصفة ، فاذا نظرت الى الصفة تراءت لعيون القلوب الصافية الطاهرة كل صفة على حدتها ، باسمها وبحروفها المؤلفة ، وتعلم كل حرف ما وضع فيه ، واذا نظرت اليه غابت الصفات عن عين قلبك ، لأنها وقعت فى البحر الذى منه خرجت الأنهار - (راجع المصدر السابق للترمذى ص ١٩٥) وهذا الذى ذهب اليه الترمذى قد يحسم مشكلة العلاقة بين أسماء الله الحسنى وصفاته تعالى من جهة ، وبين ذاته من جهة أخرى ، هل هما الله ، أم أنه سبحانه غير أسمائه وصفاته ؟ ؟ ونحن نشك فى المغايرة من الاسم والصفة والذات فيما يتصل بالله ، عند الترمذى الذى جعل الاسم دلالة على المسمى ومعناه ، كما أرجع الاسم الى الصفة ، وأرجع الصفة الى الموصوف ، وهذا يعنى أن أسماء الله الحسنى وصفاته هى هو بعينه بوصفه حقيقة واحدة وذاتالها من الصفات والأسماء ما تعجز عن ادراكه عقول البشر والاحاطة بكنهها وحقيقتها .

والترمذى الذى جعل العلم كله فى الاسماء ، تدرج شيئا فشيئا بحيث جعل العلم كله فى الاسماء الحسنى الالهية ، ثم أرجع الاسماء الحسنى كلها الى الله ، ومن ثم يكون العلم كله كامنا فى اسم واحد فقط هو (الله) ، والترمذى فىذلك يقول: (فأول مابدا منالعلم اسماؤه تعالى، وأول أسمائهتعالى (الله) ثم الاسماء كلها بعد ذلك منسوبة اليه ، فقال ولله الأسماء الحسنى - الأعراف / ١٨٠ ، فجعل الأسماء لاسمه الله ، فاسمه الله مستول على الاسماء ، مطلع عليها - (راجع نص علم الأولياء ، الاشارة رقم ١٨ ، ١٩) .

ولعل كلام الترمذى فى جعل معانى الاشياء فى أسمائها ممكن بحسب الاصطلاح والمواضعة عند كل قوم ، ثم ان معرفة آدم الاسماء كلها من اسم

الله جائز اذا كان المقصود اسماء الله الحسنى التى تفهم وتعرف من اسم الله ، بوصفه سبحانه وتعالى يحمل كل الأسماء الأخرى الخاصة به · وهذا هو صريح الآية ١٨٠ من سورة الأعراف ·

أما أن سيدنا آدم قد تعلم كل الكلام ، وكل اللغات ، وعلم الأشياء كلها بمعانيها وأساميها من مجرد معرفته لاسم الله ، فذلك غير جائز ولا معقول ، الا اذا عنى الترمذى بذلك العلم ، العلم بكون الأشياء مخلوقة لله بحيث يعرفها جملة كمخلوقات من مجرد علمه بالله وباسمه الأعظم وبأسمائه الحسنى ، ولأن أسماءه كلها فاعلة ومؤثرة فان لكل اسم منها دوره فى ايجاد الأشياء والجود بها ·

بهذا يمكن أن نفهم مغزى كلام الترمذى حول معرفة آدم لأسماء الأشياء من معرفته لاسم الله ·

ولقد تحدث الترمذى عن مكانة اسم الله ودوره فى احداث المعرفة الاجمالية بالأشياء ، ثم المعرفة التفصيليه من بعد بمدلولاتها ومعانيها ، وهو يعرض هذه المسألة تحت عرضه لموضوع الاسم الأعظم ، الذى هو اسم الله تعالى ، فيقول : (ان اسم الرب هو الاسم الأعظم المكنون الذى منه خرجت الأسماء ، فمن وصل الى ذلك الاسم المكنون ، وانكشف له الغطاء عنه ، فقد تبتل اليه وانقطع عن الخلق ـ (راجع نوادر الأصول ص ٣٩٥) ويرى الترمذى أن من استطاع أن يصل من البشر الى مكنون هذا الاسم الأعظم ، وهو اسم الله جل وعز ، يمكنه أن يقف على حقيقة سائر الأشياء وجوهريتها ، وكان من أولياء الله المقربين حتى يصل الى أصل العلم ومنبعه ، وهو الله ذاته حين يتكشف له ويتجلى عليه ويتعرف اليه ، وهنا يكون الولى قد وصل الى البحر الذى تتفرع عنه كل الأنهار ، أى منبع المعرفة الأول ومصدرها الرئيسى الذى تفيض منه أنوار المعرفة واشعاعاتها فى صورة شعاب المعرفة الفرعية ، هذا الولى الذى وصل الى العين التى تتفجر منها المعرفة الصافية والعلم الخالص ، يقول عنه الترمذى · (فالغائص فى بحر الله على هذه الكلمات ، هو عبد قد طالع مقاسم الكلمات كيف انقسمت على أمور العباد فى موضع المقسم على العرش وطالع حكمة التأليف لحروف الكلمات فى ملك الملك ، وطالع ما فى حشو كل حرف منها فى المبدأ ـ (نوادر

الأصول ص ٤٠٨) ان هذا الولى الذى وصل الى أصل العلم وحصل معدن المعرفة هو عند الترمذى عالم العلماء ، لأنه من خاصة أولياء الله الذين وثق فيهم سبحانه فأطلعهم على مكنون أسراره الكامنة فى اسمه وأسمائه الحسنى الالهية ٠

والترمذى يربط بين الوقوف على هذا العلم ، أى العلم بالاسم الأعظم ، ومكنون أسراره ، وبين انقضاء الحوائج فى الدعاء ، بل انه يرجع تعدد الأسماء الالهية الى أن لكل اسم خصيصة وسرا معينا فى الخلق من جهة ، وفى قضاء الحوائج من جهة أخرى ، وهو يرى أن من نال هذا العلم فقد نال العلم الذى تقضى به الحوائج ، اذ أن الله تعالى : (أجرى الى العباد من كل اسم حوائجهم ، ومن كل اسم أهدى اليهم ما وضع فى ذلك الاسم لأنه من أجلهم أخرج لهم الأسماء ـ (راجع النص ، الاشارة ١٨ وما بعدها)٠

ولقد أشار ابن خلدون الى مكانة علم الاسماء والحروف ، والذى كان يسمى فى عهده بعلم السيمياء ، وكانت اشارة ابن خلدون الى هذا العلم أثناء مقارنة عقدهابينه وبين علم الطلسمات ، ولعل نص كلامه هو أفيد لنا فى هذا المجال ، وهو فى ذلك يقول : (ان علم أسرار الحروف علم لا يوقف على موضوعه ، ولا تحاط بالعدد مسائلة ، وأن غرته هى تصرف النفوس الربانية فى عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الالهية ، الناشئة عن الحروف المحيطة بالاسرار السارية فى الأكوان ، وهو ليس من قبيل العلوم والقياسات ، وانما مستندهم الذوق والكشف ، وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء ـ بعد أن تعلم أن التصرف فى عالم الطبيعة كله انما هو للنفس الانسانية والهمم البشرية ـ أن النفس الانسانية محيطة بالطبيعة ، وحاكمة عليها بالذات ، الا أن تصرف أهل الطلسمات انما هو فى استنزال روحانية الأفلاك ، وربطها بالصور أو النسب العددية حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الاحالة والقلب بطبيعته فعل الخميرة بما حصلت فيه ، وتصرف أصحابالأسماء انما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الالهى والامداد الربانى ، فيسخر الطبيعة لذلك طائعة غير مستعصية ، ولا يحتاج الى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها ، لأن مدده أعلى منها ، ويحتاج أهل الطلسمات الى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استذلال روحانية الأفلاك ، وأهون بها وجهة ورياضة ، بخلاف أهل

الأسماء فان رياضتهم هى الرياضة الكبرى ، وليس القصـــد التصرف فى الأكوان ، اذ هو حجاب ، وانما التصرف حاصـــل لهم بالعرض كرامة من كرامات الله لهم ، فان خلا صاحب الأسماء عن معـــرفة اسرار الله وحقائق الملكوت الذى هو نتيجة المجاهدة والكشف ، واقتصر على مناسبات الاسماء وطبائع الحروف والكلمات ، وتصرف بها من هذه الحقيقة كان لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات ، بل صاحب الطلسمات أوثق منه ، لأنه يرجع الى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة ـ (راجع مقـــدمة ابن خلدون جـ ٤ ص ١٢٧٠ / ١٢٧٣) ٠

وحول توحيد الترمذى بين اسم الله ، الاسم الأعظم ، وبين ما يرتبط به من الاسماء الحسنى ، ويترتب عليه من أوصاف نجده فى موضع آخر من كتبه ، وهو معرفة الأسرار ، يقول : (أول الاسماء هو الله جل جلاله ، يعنى أول الاسماء هو الله ، لأن الله لما ذكر اسما بقول الله ، ثم نقول الرحمن الرحيم الحى القيوم الملك القدوس فلما كان قوله ٠ الله أول الاســـماء ، كذلك الوله بالله بداية حال العارفين ـ (ص ٦٠ معرفة الأسرار الترمذى) ٠

ونحن نرى أن الترمذى كان صادق التعبير والفكرة ، لأننا لا نستطيع أن نفصل فى الله سبحانه وتعالى ، بين ذات وصفات وأسماء ، فلما كانت ذاته تعالى مطلقة وغير محدودة ، كانت صفاته وأسماؤه أيضا كذلك غيـــر محدودة ولا متناهية ، ومن هنا فان أى أسماء نتصورها له سبحانه فان له غيرها مما يزيد عليها ويتميز عنهـــا ، لأننا لا نســـتطيع أن نحصى هـــذه الأسماء والصفات احصاء تاما ٠ ولا الأفعال أيضا يمكننا أن نحصرها ، لأن الأفعال الالهية تتناسب مع طبيعة ذاته تعالى ، وهى ذات فاعلة قادرة مريدة ، وهى لا نهائية ولا محدودة ، فكذلك تكون أفعالها أيضـــا كذلك لا متناهية ولا محدودة ، لأن الأفعال تنتج عن الذات الفاعلة ، وتتناسب معها ٠

فكرة الواحد عند الترمذى :

ذهب الترمذى الى الربط بين الواحد الحسابى وبين فكرة الاله سبحانه، من حيث أن كلا منهما يعد أصلا ومبدأ لما ينشأ بعده ، فنجـــده ينظر الى الميتافيزيقيا نظرة رياضية ، أو يتناول الرياضيات تناولا ميتافيزيقيا فيقول :

(وأما الواحد فهو أصل العدد ، وانما سمى واحدا على قالب فاعل الأوحد ، فتشعبت منه أشكاله ٠٠٠ والحّاء من الحياة ، والدال من الدين وهـــو الحساب ، وانما حتى الحساب والعدد بأوله ، فأول العدد سبب فى الحياة ، وآخره من الحساب فقيل : حد ٠ (راجع النص ، الاشارة رقم ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤) ٠

ولعل ربط الترمذى بين الواحد العددى وفكرة الواحـــد أراد بهـــا الوحدانية الالهية فى كونها سببا كامنا لنشأة الخلق والأحياء ، ثم اذا ربطنا بين قوله أن أول العدد سبب فى الحياة وقوله أن الواحد أصل العدد ، لوجدنا أن هذا حين ربط أيضا بين الميتافيزيقا والرياضيات من خـــلال ربطه بين الموجودات المخلوقة وبين الأعداد الحسابية (راجع ذلك فى كتابنا عن فلسفة الاسلاميين جـ ١ ص ١٠١ وما بعدها) ٠

ولعلنا نستطيع ملاحظة الرمزية فى التعبير عنـــد الترمذى بين الاله الواحد سبب الحياة ، وبين الموجودات التى هى الأعداد التى تتشـــعب فى سائر صدرها وأشكالها عن الواحد ، فاذا كانت الأعداد من الواحـــد الى العشرة ، ثم الى ما لا نهاية فى امكانية العد الحسابى ، هى تكرار للواحد الذى هو رأس العدد وأصله ، فان سائر الموجودات تتشعب وتتشكل وتتباين وتتكاثر بسبب الواحد ، وهو الله تعالى سبب الحياة والأحياء والمصـــدر الأوحد للخلق والمخلوقات ٠

والترمذى حين يرى أن الواحد أيضا هو الحد والنهاية فلعله أراد أن يؤكد أن لكل شىء وموجود حدودا تحدده وتميزه عن باقى الأشياء ، وهذه الحدود المميزة هى نهايات الأشياء بحيث لا تتداخل فى أشياء أخرى أو تختلط معها ، وهذه الحدود والنهايات تدخل فى باب الكم وهو مقولة تنتمى الى مبحث الحساب وعلم الأعـداد ، كما أن آخر الأشياء ومصـــيرها الى يوم الحساب ، يوم سداد الديون ، لتجزى كل نفس بما كسبت أو اكتسبت ، وهى عملية حسابية مؤسسة على أساس أخلاقى هو سلوكنا فى دنيانا هذه ، وذلك هو مغزى التكليف الذى أتت به كل الرسالات السماوية دون اختلاف بينها ، لأنها أتت من مصدر واحد هو الواحد ٠

وقد يبدو الترمذى فى حديثه عن الواحد بهذه الصورة الحسابية وقد اقترب من الاتجاه الفيثاغورى أو الأفلوطينى حول فكرتهما عن الواحد من الناحية الميتافيزيقية ، ولكننا لا نستطيع القطع بوجود علاقة بينه وبين واحد من هذين الاتجاهين أو بهما معا ، وربما كانت هذه الفكرة من بنات أفكاره قياسا على أنه كان يرى أن الحرف أصل الكلمة ، أو الاسم وبالتالى أصـــل العلم كله ـ (راجع التعليقات فى القسم الثالث : ١١ ، ١٥ ، ٣٣) ولعل هذا الاحتمال الأخير هو الأصح ، اذ ليس غريبا على عقلية الترمذى الحكيم أن تصل الى أن الواحد هو أصل العدد ابتداء ، دون افتقار الى مصادر غريبة عليه أو أجنبية · خاصة وقد رأينا أن لهذه الفكرة علاقة وثيقة بكون الواحد وهو الله تعالى هو أصل الكثرة العددية فى العالم ، وهى المخلوقات ، وبكون فكرة الواحد تعبيرا رمزيا رياضيا عن العــلاقة بين الخلق والمخلوق ، أى الله والعالم ·

واستمرارا من الترمذى لتوضيح فكرة الواحد ، نجده يتناول مرحلة خلق المخلوقات فى عالم قبل هذا العالم ، سماها بمرحلة الخلق فى المقادير ، وهو يرى أن فكرة الواحد قد وضحت للخلق فى هذه المرحلة ، ومن ثم كانت أقرب الى الفطرة وهو فى ذلك يقول : (فالخلق فى المقادير مأخوذون بالعبودية للزوم الحجة ، فمنهم من وفى ، ومنهم من أبقى ولم ينقض العهد ، ومنهم من هرب ونقض العهد ـ (راجع النص ، الاشارة رقم ٩٢) ولعل الترمذى يقصد هنا ما يسمى بميثاق التوحيد ، وعقد العبودية لله الواحد ، وهو ما أخذ فيما يسمى بميثاق عالم الذرات ، والذى تشير اليه الآية الكريمة : (واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفســـــهم : ألست بربكم !!؟ قالوا : بلى شـــهدنا ، أن تقولوا يوم القيـــامة انا كنـا عن هـذا غافلين ـ الأعراف / ١٧٢) وواضح ما فى هذه الآية من تأكيد على أن كل بنى البشر قد اطلعوا على حقيقة الاله ، وتعرفوا عليها ، وتكشفت لهم وتجلت فى حياة سابقة على هذه الحياة ، وفى مرحلة من الخلق سابقة على مرحلتنا الدنيوية هذه التى تلازم فيها الأرواح والأنفس الأبدان ، وذلك هو أيضــا ما يؤكد فطرية التوحيد والتسليم للواحد ، والنزعة الكامنة فى كل منا الى التدين ، وان كان يحتــاج البعض الى بعض الوقائع المكتســـبة حتى يعود لفطرته ، أو تظهر فيه هذه الفطرة وتتجلى بعد زوال الحجب المانعة لها عن الظهور والتجلى ·

ويرتبط بحديث الترمذى عن فكرة الواحد والتوحيد ، حـــــديثه عن ما أسماه بيوم البدء أى يوم الخلق الأول ويوم الحد أى يوم النهاية ، وهى فكرة أيضا قد فلسفها الترمذى وعمق القول فيها بصورة تستدعى الوقوف عندها بعض الشىء لما لها من علاقة خاصة بكيفية خلق الانسان وهبوط أصله ـ أى سيدنا آدم ـ فى أرض الله هذه ٠

والترمذى عن يوم البدء هذا يقول : (فانهم فى البدء فى المقـــادير خلق ، ثم عبيد ، ثم شىء ، ثم متخذون عبيدا ، ثم قد لزمتهم الحجة ، ثم مصروفون الى مكان الأعراف ، ثم الميثاق ، ثم يستخرجون من الأصـــلاب والأرحام الى دار الامتحان واقتضاء الوفاء ، وتمييز الطبقات للثـــواب والعقاب ، ثم مردودون الى اللحود ، ثم منشورون عن اللحود ، ثم محشورون الى العرضة ، ثم مرجوعون الى الله الذى ابتدأهم فى المقادير ، ثم موقوفون على الثواب والعقاب ، مقتضون وفاء ما اعترفوا به وقبلوه يوم الميثاق ، ثم ترجع كل طبقة منهم الى ما علم لهم وبرز لهم من مشيئتهفى تلك المقادير يوم البدء ـ (راجع النص ، الاشارة رقم : ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧) ٠

ولعلنا نلاحظ أن الترمذى قصد بيوم البدء هذا ، بداية النشأة الأولى للخلق ، وذلك فى حياة قبل بدء الحياة على الأرض ، بهبوط سيدنا آدم عليه السلام ، ولعلنا يمكننا أن ندرك ذلك حين نتأمل قول الله تعالى لآدم وحواء بعد أن اقتربا من الشجرة التى منعهما سبحانه منها وحذرهما من الاقتراب منها ، ولكنهما خالفا أمر ربهما واستجابا لغواية الشيطان وأكلا منها ، قال تعالى لهما ، ولمن فى أصلابهما وأرحامهما من المخلوقات المكنة الكامنة : (اهبطوا منها بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين ـ الأعراف / ٢٤) ٠

وبصرف النظر عما اذا كان الهبوط سقوطا فى الدرجة والمرتبة والمكانة أو هبوطا مكانيا من السماء الى الأرض ، أو من مكان الى آخر ، نقول بصرف النظر عن نوعية الهبوط فاننا نستطيع أن ندرك وجود حياة قبل هذه الحياة التى اتحد فيها جسم الانسان بروحه ٠ فالبدء هو بدء الخلق الالهى للانسان، وهو لم يزل فى العلم الالهى وفى عقله ســـبحانه ، وهى مرحلة من الخلق تسبق مرحلة القلق من خلال الأمر الالهى ، ثم فعل التكوين ٠

ويمكننا أن نلاحظ طرافة التصور الذى يسوقه الترمذى للانســـان ، وتدرجه بين أنواع ودرجات مختلفة من الحياة ، حياة قبل دنيانا هذه ، ثم حياتنا فى دنيانا وعالمنا هذا ، ثم حياة ثالثة فى القبر أى بعد الموت وقبل البعث ، ثم حياة رابعة بعد البعث ٠ وما أجمل هذا التصور للانسان وأكمله ، بوصفه أكرم خلق الله فى أرضه ، اذ أنه لا يموت موتا أبديا ، ولا يفنى فناء مطلقا ، بل تنتهى مرحلة من مراحل حياته لتبدأ مرحلة ثانية ، وتنتهى الثانية بما نسميه مجازا بالموت ، لتبدأ مرحلة ثالثة سرعان ما تنتهى هى الأخرى بالنفخ فى الصور وبعث الانسان من جديد فى حياة أبدية ليلقى نعيما أبديا فى جنان الله تعالى ، أو يلقى عذابا لا نهائيا فى النار التى توعد بها الله الكافرين من عباده ٠

كل شيء بنظام واحكام ، ولا مكان للعبث فى مرحلة ما ، أو مع موجود من الموجودات ، وليس هنـــاك ما يؤذن بالقول بالتناسخ ازاء تعدد هـــذه المستويات من مستويات الحياة ، وتقلب الانسان فيما بينها ، فالانسان فى الحياة الأولى هو هو بعينه فى الحياة الثانية والثالثة والرابعة وان تغيرت الأنحاء الوجودية له بلا نسخ أو فسخ أو رسخ أو مسخ ٠

ولك أن تنظر فى ذلك الحوار الطريف بين أهل الجنة وأهل النار ، فى سورة الأعراف ، حين قال الفريق الأول للفريق الثانى ، كما يذكر الله عز وجل : (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ماعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ماعد ربكم حقا ، قالوا نعم ، فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ـ الأعراف / ٤٤) واذا ما نظرنا فى الآيات السابقة واللاحقة من هذه السورة ، وجدنا تصويرا رائعا للوحة جمالية بديعة من الحـــوار بالكلمة والصورة بين أهل الجنة وأهل النار ، ومن بينهما حجاب كأنه من مادة تسمح بالرؤية والسمع ولكنه لا يسمحبالانتقال من مكان الى آخر ٠

الطريق الصوفى عند الترمذى :

وقبل أن نستطرد مع فكر الترمذى حول ما يتصل بموضوعات التصوف وبعض قضاياه الأساسية والفرعية ، علينا أن نشير اشـــارة سريعة الى ما يقصده بالطريق الصوفى ومسألة الشيخ بالنســـبة للمريد ، ومفهـــوم

التصوف عنده بوجه عام ، ثم تقف على تدرج عباد الله وتفاوت مستوياتهم فى العبادة ، اذ أن لهذه الدرجات علاقة وثيقة بمعنى الطريق الصوفى والهدف منه عند الترمذى الحكيم ٠

والترمذى يرى أن علم التصوف هو علم البحث عن الطريق ، أى الطريق الذى يتبعه سالكه لوصول الى ولاية الله ومعرفته ، معرفة حقيقية ويقينية ، ويسمى مريد وهذا العلم بأهل الطريق أو أصـــحاب الطريقة ، كمايسمى شيخهم أو رائدهم بشيخ الطريقة أو رائد الطريق ٠

وكثيرا ما يشير الترمذى الى أن هذا العلم بحر ، وأن من يسلكه بحار ، وهو فى ذلك يقول : (ثم لم يتبحر فى علم ذلك الا خصائص من النـــاس (راجع النص ، الاشارة رقم ٨٥ والاشارة رقم ١٤٩) ومسألة التبحر هــذه تعطى معنى التدقيق والمهارة فى الابحار لافادة أن طريق الصوفية هذا بحر لجى عميق يحتاج الى بحـــار ماهر ، وهذا التشبيه سيشتهر من بعد عند الغزالى ٠

والترمذى شأنه شأن الصوفية جميعا يرى أن الولاية هى الغاية التى يرجونها من طريقهم الصوفى ، ويطلبون التحقق فى درجاتها والوصول الى أسمى مراتبها ، لذلك فان الصوفية قبل الترمذى تناولوها تناولا اجماليا يهتم كل واحد منهم بجانب منها أو ببعض جوانبها ، حسب الطابع العـــام لاتجاه كل منهم من ناحية ، وحسب حاله وظروفه من ناحية أخرى ويذكر الهجويرى انفراد الترمذى بالجمع بين كل جوانب مسألة الولاية واستيفاء كل نواحيها والاحاطة بها كموضوع واحد ، وذلك فى قوله : (فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية ، وقد أكد هذه الحقيقة كل الشيوخ ، وان اختلفت عباراتهم فى ذلك ، وكان محمد بن على الحكيم هو أول من طبق هذا الاصطلاح على أصول التصوف ـ كشف المحجوب للهجويرى ص ٩٢) ٠

أما فيما يتصل بشيخ الطريق الصوفى ، فان الترمذى قد اختلف عن سابقيه ولاحقيه من المتصوفة ، اذ أنه ذهب الى عدم ضرورة وجود الشيخ للمريد ، ويرى استغناء المريد فى طريقه الى الله عن الاستاذ الشيخ ٠ وبالرغم من أنه قد اشتهر عن مشايخ الصوفية أقوال عديدة كلها تؤكد أهمية الشيخ

وحاجة المريد اليه ، ومنها قولهم : (من لا شيخ له فشيخه الشيطان) الا أن الترمذى لا يعترف بذلك ولا يرضاه ، اذ يرى أن رياضة النفس وتأديبها ومجاهدة شهواتها هى الطريق الآمن للوصول الى الحق ، وهى المنهج السليم لحبه ومعرفته وولايته ٠ بل ان الترمذى يرى أن ارتكان المريد على الشيخ قد يؤدى به الى الضياع وضلال الطريق ٠ والترمذى قد رد بذلك المعنى على من كتب اليه يشكو حاله ، ويخبره أنه وصل الى حالة من الرقى الروحى رأى معها أن يستعين بشيخ يأخذ بيده حتى يصل الى ما يريد فاذا به يكتشف أنه قد فقد كل شىء حتى ما كان قد وصل اليه ، فيرد عليه الترمذى بقوله : (هكذا يكون شأن من يطلب الخالق بالمخلوق ـ (راجع ص ١٣٩ /ب من جواب كتاب من الرى نقلا عن ص ١٦ مقدمة معرفة الأسرار) ٠

ثم يطلب منه أن يبدأ ثانيا بالرياضة والمجاهدة والصلاة والصوم لعله يجد طريقه الذى ضله بعد أن سلم زمام أمره لغيره من خلق الله ٠

والترمذى فى موضع آخر يتحدث عن موضوع الشيخ والمريد فيقول : (اعلم أنه لا يكون أستاذا حتى يكون موفيا لكل مطالبه ، ثقة عليه ، ويكون مطلعا على أسرار الغيب ، مشرفا على ضمائر المريدين ، مؤتمنا على أنفسهم وعلى دنياهم وعلى أحوالهم ، ولا يأمر تلامذته الا طريقا قد سلكه وملكه وباشره ، ويجب أن لا يريد التلميذ لنفسه ، ويسوس تلامذته على مقدار وسعهم على طريقاتهم لا على طريق واحد ، وتكون رياضته وزجره على وجده ، فمنهم من يحب رياضته بهمته دون الاشارة ، ومنهم من يحب رياضته باشارة ، ومنهم من يحب بمعاملته ، ومنهم من يحب بلسانه وعلمه ، وهى أدنى ، ومنهم من يحب بأخلاقه ، ويحب أن يأتى شيئا قد أذن له الحق والغيب ٠

ويجب أن يخرج المريد أولا من نفسه ، فيدله على صحبته ونفسه ، ثم يدله من نفسه وصحبته الى الأحوال ، ويوافقه بين صحبته وبين يدى ربه ، يقطعه بالكلية من صحبته وأحواله ، ويسلمه الى ربه ويودعه ـ (معرفة الأسرار للترمذى ص ٨٢) ٠

وما يتصل بالطريق الصوفى عند الترمذى تدرج العباد وترتبهم بين

مراتب ودرجات ، ولقد عبر عنها بقوله : (ألا ترى أن المؤمنين قليل من الكافرين ، والأتقياء قليل فى المؤمنين ، والأولياء قليل فى الأتقياء ، والأنبياء قليل فى الأولياء ، والرسل عليهم السلام قليل فى الأنبياء ـ (راجع النص الاشارة رقم ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣) ولعلنا ندرك كيف أن الترمذى عبر عن تدرج العباد فى صورة منطقية بناء على علاقات التضمن والاشتمال بين الفئة الأكبر والفئة الأقل منها ، وهكذا فان المؤمنين من العباد أقل عددا من الكافرين ، وكذلك فان الأتقياء من المؤمنين أقل عددا من العباد المؤمنين أنفسهم ، كما أن الأولياء أقل عددا من الأتقياء ، والأنبياء أقل عددا من الأولياء ، والرسل أقل عددا من الأنبياء ، كما أننا نستطيع أن نتبين كيف أن الترمذى فى حديثه عن قلة عدد أصحاب درجة ما بالقياس الى درجة أخرى ، بين بما لا يدع مجالا للشك أن الأنبياء والنبوة فى درجة أخص من درجة الأولياء والولاية ، وكذلك فعل فى تخصيص الرسل والرسالة عن الأنبياء والنبوة ، وهذا يبين أن الترمذى كان يتأرجح فى رأيه بصدد مكانة الولاية والأولياء ، بين جعلها أعلى وأخص من النبوة أحيانا ، أو جعلها أدنى وأعم منها فى حين آخر ٠ وهذا ما سنحاول ابرازه بعض الشىء فى مبحثنا التالى ٠

اطلالة على نظرية الولاية عند الترمذى :

ذهب الترمذى فى كتابه علم الأولياء الى وضع البداية الأولى لنظرية الولاية ، وهو فى ذلك يقول : (فلما رفعه الله تعالى اليه جعل له فى أمته خفاء كرامة له ، ففارقهم ظل الهوى ، واعتق نفوسهم من خيال ، فكما جعل طاعته فى طاعة الرسول فضيلة له على غيره من الرسل ، فكذلك جعل طاعة هؤلاء الخلفاء واجبة على أمته فضيلة لهم على غيرهم من الأولياء ، وهم خواص الأولياء ورجال الله فى أرضه ، الذين يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة لمكانهم وقربهم من الله عز وجل تعالى ـ (راجع النص ، والاشارة رقم ٢٨٦ ، ٢٨٧) ويلاحظ كيف أن الترمذى حين وضع هنا نظريته فى الولاية والأولياء يتحدث عنهم على أن طاعتهم واجبة كوجوب طاعة الخلفاء والأنبياء ، بوصفهم أولى الأمر الذين ورد فى حقهم قول الله تعالى : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ـ النساء / ٨٠) ٠ وكان الترمذى يذهب الى أن الخاصية التى أختص بها الله تعالى رسوله محمد صلى

اللهعليه وسلم ، والميزة التى ميزه بها ، قد أختص بها سبحانه أوليـــاءه الصالحين أيضا ، وهم خاصة الأولياء ، كما يسميهم الترمذى ،ولقد جعل لهم خاتما كما أن للأنبياء خاتما كذلك · فاذا كان محمد صلى الله عليه وسلم هو ختم النبوة والأنبياء ، فان للأولياء والولاية ختما أيضا ، ومن المعروف أن للترمذى كتابا ضخما حول (ختم الولاية) ضمنه نظريته فى الولاية الى جانب كتب أخرى من مصنفاته ·

والترمذى يرى أن خواص الأولياء سيكونون يوم القيامة فى درجة عليا وفى مكانة عظيمة ، وفى مقام قريب من الله لدرجة أنهم يصبحون محل غبطة وحسد الأنبياء والشهداء ، ومن المعروف أن كثيرا ما يكون الحسد والغبطة لا يحصلان الا من كائن أقل درجة أو مكانة أو مالا نحـــو كائن أعلى منزلة ومكانة ومالا ، وكأن غبطة الأنبياء والشهداء لمكانة خاصة الأولياء يتضمن ضرورة القول بأن هؤلاء فى مكانة ومنزلة أفضل وأكرم من مكانة الآخرين ، وهى وجهة نظر للترمذى يجب أن تأخذها بحيطة وحذر شديدين ، فلعله قال بها فى بدء نظرته الى درجتى النبوة والولاية ، قبل أن يتعمق فيهما ، وقبل أن يعدل من نظرته الى الولاية فى كتبه الأخرى ·

وذلك يؤكد أن كتابنا هذا الذى نحققه للترمذى ، كان أسبق تصنيفا من كتبه الأخرى التى تناولت نظرية الولاية عنده ، والتى تضمنت آراء له أخف حدة ، وأكثر اعتدالا عنها فى كتابه هذا عن علم الأولياء ·

ومن هنا فاننا نلاحظ رأيا للترمذى ، فى كتابه معرفة الاسرار ، مفضلا النبوة على الولاية ، بأسلوب ينفى عنه الاتهامات التى وجهت اليه ممن فهموا آراءه على غير وجهها الصحيح ، وهو فى ذلك يقـــول : (والنبـــوة تمام الدرجة ، والرسالة أجل من النبوة ، والخلافة فى الرسالة أجل من الرسالة بلا خلافة ··· والمزيد من الله تعالى لا ينقطع ، لأنه ليس لله نهاية ، والنبوة هى حالة تامة ، وما زاد عليها يكون زيادة على الفضـــل ، لا زيادة على النقصان قال عز وجل : ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ـ الاسراء / ٥٥ ـ (راجع ص ٦٦ / ٦٧ معرفة الاسرار للترمذى) ولعل نص كـــلام الترمذى يؤكد وعى الرجل بمكانة النبوة والرسالة ، وأنها أعلى من أعلى درجة من درجات الولاية يمكنتصورها ·

ثم يبرز الترمذى هذا التفاوت فى الدرجة والمكانة بين النبوة والولاية من خلال تعرضه لموضوع مشترك بينهما وهو الحديث الذى هو من أجزاء النبوة ، ولكنه ليس هو النبوة ذاتها ، وهو من الأوصاف الأساسية للولاية والولى عند الترمذى ، باعتبار أنه جعل المحدثين أعلى من الصوفية ، وهم الصديقون الحقيقيون ، والترمذى يعبر عن كل أجزاء النبوة بقوله : (الحديث هو أجل جزء من النبوة ، ثم الصديقية والفراسة ، ومن أجزائها العقل والفهم ، واللب وهو لباب العقل ومخه ، واليقين والتوكل والبيان والسلامة والشجاعة والسخاوة والرحمة ٠٠ الى الايمان والاسلام ٠٠ وبداية الحديث الالهام وهو حديث طوى يقع من الله تعالى الى وليه من غير أن يشهده الملائكة، من واحد الى واحد ، وفعل الحديث حضور القلب ، وزوال الواردات التى تقطعه ، والحديث من النبوة كالسمع من الوجه (راجع ص ٦٨ من معرفة الاسرار للترمذى) ٠

ولقد فرق الترمذى بين النبوة والولاية من حيث كونهما درجتين تأتيان من الله بالاجتباء أو الجباية ، مع التفاوت بين ما يناله كل من النبى والولى بذلك الطريق ، من حيث أن مايناله النبى أرقى درجة وأعلى منزلة ، كما أن الولى المجتبى قد ينال ما يناله النبى ، ولكن فى درجة أقل ورتبة أدنى ، والترمذى فى ذلك يقول : (فاذا صح الوحى للنبى على الصفة التى وصفها الشرع من كونه مؤيدا بالروح ، فكذلك يصح الحديث للولى المجتبى ،وهو مؤيدا بالسكينة ، أليست السكينة حقا من الله ينزلها على أوليائه ، فكما صح للنبى الوحى بالروح فكذلك يصح الحديث لهذا الولى بالسكينة ، واذا كان الله قد ولى الأنبياء بأن أخذهم من نفوسهم الى محل النبوة وكشف الغطاء ، فقد ولى هذا الصنف من الأولياء بأن أخذهم من نفوسهم الى محل الولاية وكشف الغطاء (راجع ختم الأولياء ص ٣٣٦/٣٣٥) ومن الواضح أن الأمر المشترك بين النبوة والولاية أيضا متمثل فى اجتباء الله لكل من الولى والنبى ، وأخذه تعالى لهم من نفوسهم أى يجردهم عما هم فيه من أدناس النفس وشهوتها بعد أن يجاهدوا ويتطهروا ، وهذا الأخذ الالهى من الاجتباء أيضا ، كما أن النبوة والولاية يشتركان أيضا فى كشف الحجاب وزوال الموانع التى تحجبهم عن الله ، أو تحجب المدد الالهى عنهم ،والخلاف بينهما فى أن الحديث عند الأولياء يوازى الوحى عند الأنبياء ولكنه لا يساويه ، وكذلك فان الأنبياء يحصلون على الحديث ويزيدون عليه بدرجة هى الوحى ،

أما الأولياء فان اشرف درجة يصلون اليها هى درجة الحديث الذى يحصل لهم بسكينة النفس وهدوئها ٠

ولقد اتضح لنا كيف أن الترمذى وان قارن بين النبوة والولاية ، الا أنه قد فاضل بينهما كذلك ، وكانت كل الأفضلية للنبوة ،وليست للولاية كما فهم البعض من بعض آراء الترمذى ، دون استقصاء لكل آرائه فى هــــذه المسألة ٠

وابن الجوزى قد أشار الى اسبقية النبوة على الولاية ، من خـــلال روايته عن أحمد بن أبى الحوارى أنه كان يفضل الأولياء على الأنبياء ، وأنه بسبب ذلك هرب من دمشق الى مكة ٠

أما ابراهيم بن أدهم فقد أشار الى أن رتبة الأولياء ومقامهم أدنى من رتبة الأنبياء ، بل أدنى من رتبة الصـــديقين (راجع طبقات الصـــوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٣٣) ٠

وحين سئل البسطامى عما اذا كان هناك من البشر من يزيد على رتبة النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : وهل يدركه أحد ؟ ! أضاف : ان جميع ما يفهم وأدركوه من شرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لم يفهمه ولم يدركه مثل ذلك قربة زرقاء ملأى من الماء ، فما رشح أدرك الخلق وفهموه من شرفه وفضله ، وما سوى ذلك فلم يفهمه أحد ولم يدركه ـ (راجع اللمع للسراج الطوسى ص ٥١٤) ٠

ولقد ربط الترمذى ربطا محكما بين الولاية والمعرفة الصوفية ، وكأنهما وجهان لحقيقة واحدة هى الطريق الصوفى الحق ، حيث جعل الولاية مقابلة للعمل والسلوك ، والمعرفة مقابلة للعلم والنظر ، والحقيقة التى يعبران عنها هى الايمان الصادق ، أو التوحيد الخالص ، ولعل ذلك يوازى عنده الطريق الصوفى الحق أيضا ٠

ولعل هذا أيضا هو ما جعل الترمذى يضع مقدمات الولاية والمعرفة وفلسفة التوحيد وسائر القضايا المتصلة بالعبادات والاعتقادات فى كتابه ، الذى نقدم لتحقيقه هنا ، وهو علم الأولياء ٠

وكذلك فان الترمذى حاول أن يحقق نوعا من التناسب بين درجة المعرفة ومرتبة الولى ، بحيث رأى أن المعرفة تتزايد قدرا وعمقا ، أى كما وكيفا ، كلما ارتفع المتصوف فى ولايته لله وولاية الله سبحانه له ، وهو يعبر عن ذلك بقوله : (فالعلماء بالحلال والحرام يسلكون بك فى طريق الشريعة الى الجنة ، والعلماء بالحكمة يسلكون بك على طريق الاخلاص فى الشريعة الى منازل القربة ، والكبراء وهم العلماء بعلم المعرفة والحكمة العليا ، يسلكون بك على طريق الصفاء والنزاهة الى الله ـ (راجع : الأكياس والمغترون ص ١٣٨) ويمكننا أن نلاحظ هنا ، مرة أخرى ، ما سبق أن بيناه عند الترمذى من مراتب العباد ودرجاتهم ، وهم هنا الأولياء وطبقاتهم ، وهى طبقة الصادقين ، وطبقة الصديقين ، وطبقة المقربين ، وطبقة المتفردين ، ولعل الصادقين هم المختصون بعلم الحلال والحرام ، وهو العلم الخاص بمعرفة حدود الله وأحكامه أو معرفة الله من النظر فى حدوده وأحكامه والعمل بها ، وتلك هى بداية كل مريد وسالك ٠

وكذلك فان طبقة الصديقين هى طبقة المختصين بالحكمة التى هى علم حق الله ، وهى الحكمة الظاهرة ، وهم بذلك أصبحوا من المقربين ٠ أما طبقة المتفردين فلعلهم هم المختصون بالحكمة العليا ، أى معرفة الله والعلم به فردا ، وهؤلاء هم خاصة الخاصة الذين تفردوا وانفردوا بفردانيته ، وتحققوا بوحدانيته ، وأصبحوا فى قبضته ، دون أن يؤذن ذلك بأى نوع من أنواع الحلول أو وحدة الوجود أو الاتحاد ، وهى اتجاهات كان الترمذى يخشاها كل الخشية ويرفضها بغضا تاما ، ويبتعد بكل آرائه وأفعاله بعيدا عنها ٠

والترمذى يعبر عن ذلك فى وصية يوصى بها المريد ، ويوجهه الى ما ينبغى عليه أن يفعله ليتعلم ، ويقول له : (فبمساءلة العلماء تقوى على معرفة الله تعالى فى حدوده وأحكامه ، فهذا ثمرته ، ومحصول ما يتردد فى يدك منه ، وهو أمر عظيم بمكانه ، ولكن يصغر فى جنب الثانى ، والثانى فى جنب الأول ٠ وبمخالطة الحكماء يفضون اليك أسرار الحكمة ، وهو ما اطلعوا عليه من علم عيوب النفس ، ودقائق الورع ، وصفاء الصدق ، وتوبة العطايا ، وتدبير الله فيه ، وترك تدبيره :

وبمجالسة الكبراء يموت عنك كل داء دفين فيك ، أولئك قوم تكبروا فى كبرياء الله ، واعتزوا بعزة الله ، ولانوا لخلقه برحمته ، ونطقوا فى لطفه ، وتطهروا بقرب نزاهته ، فهم أهل الحكمة العليا ، فالكبراء والمجذوبون اليه ، المجتبون على طريق الأنبياء ، نالوا منه الحكمة العليا ، والسائرون اليه على طريق الأولياء نالوا منه الحكمة الدنيا ، وعلم عيوب النفس ، وعلم الصدق فى أموره وفى العطايا ـ (راجع شفاء العليل للترمذى ص ٦) ٠

ولعل اطلالتنا على نظرية الولاية عند الترمذى تكتمل بعد أن ننظر فى أوجه الشبه بين ختم الأولياء وختم الأنبياء عنده ، لتكتمل حلقة هذا الموضوع٠ وفضل بعضهم على بعض ، كما سبق واصطفى أنبياءه وفضل بعضهم على ومتكاملة ، وبعد أن وصل الى أن الله اختار أولياءه من بين عباده المؤمنين ، وفضل بعضهم على بعض ، كما سبق واصطفى انبياءه وفضل بعضهم على بعض ، ثم اصطفى رسله من بين أنبيائه وفضل بعضهم على بعض ، ثم اصطفى سبحانه من بعض الرسل هذا ، رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، بعد كل هذا يرى الترمذى أن الله قد خص محمدا بخصوصيات لا يدركها الا أهل الخصوص ،وفى هذا يقول : (كان الله ولا شىء معه ، فجرى الذكر ، وظهر العلم وجرت المشيئة ، فأول ما بدأ بدأ ذكره ـ أى محمد صلى الله عليه وسلم ـ ثم ظهر فى العلم علمه ، ثم فى المشيئة مشيئته ، ثم فى المقادير هو الأول ، ثم فى اللوح هو الأول ، ثم فى الميثاق هو الأول ، ثم هو الأول يوم تنشق عنه الأرض ، ثم هو الأول فى الخطاب ، والأول فى الوفاده ، والأول فى الشفاعة ، والأول فى الجوار ، والأول فى دخول النار ، والأول فى الزيارة ، فبهذا ساد الأنبياء عليهم السلام ، ثم خص بما لا يدفع ، وهو خاتم النبوة ، وهو حجة الله عز وجل على خلقه يوم الموقف ، فلم ينل هذا أحد من الأنبياء ـ (راجع ختم الأولياء ص ٣٣٧ / ٣٣٨) ٠

وكما تحدث الترمذى عن ختم الأنبياء وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، رأى كذلك أن يكون للأولياء خاتم ، ولكنه غير محدد الهوية أو الشخصية ، لم يسمه باسم من الاسماء ، ولكنه وصفه ببعض الأوصاف التى يتميز بها عن غيره من الأولياء ، ويفضلهم ، وعن ختم الأولياء يقول الترمذى : (فكلما تخطى من ملك أعطى ذلك الاسم حتى يكون الذى يتخطى جميع ذلك الى ملك الوحدانية الفردانية هو الذى يأخذ حظوظه من الاسماء ، وهو

محظوظ من ربه ، وهو سيد الأولياء ، وله ختم الولاية من ربه ، فاذا بلغ المنتهى من أسمائه فالى أين يذهب ؟ وقد صار الى الباطن الذى انقطعت عنه الصفات ـ (راجع ختم الأولياء ص ٣٣٥) .

كما أن الترمذى نراه وقد وضح وحدد ختم النبوة فى قوله : (فجمع الله تعالى أجزاء النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وتممها له ، وختم عليها بختمة ، فلم تجد نفسه ولا عدوه سبيلا الى ولوج موضع النبوة من أجل ذلك الختم ، (راجع ختم الأولياء ص ٣٤) وكذلك فاننا نجد الترمذى يوضح ختم الولاية ويحدده تحديد صفات وسمات لا تحديد ذات ، وذلك فى قوله : (فهو سيدهم ، ساد الأولياء ، كما ساد محمد صلى الله عليه وسلم الأنبياء ، فينصب له مقام الشفاعة ، ويثنى على الله تعالى ثناءه ، ويحمده بمحامد ، يقر الأولياء بفضله عليهم فى العلم بالله تعالى ـ (راجع المصدر السابق ص ٣٤٥) .

ثم يضع الترمذى النقاط فوق الحروف ، ويوضح أن مرتبة ختم الولاية أقل وأدنى من مرتبة ختم النبوة ، وذلك فى قوله عن ختم الأولياء : (فهو فى كل مكان أول الأولياء ، كما كان محمد أول الأنبياء ، فهو من محمد عند الأذن ، والأولياء عند القفا وهو سيد من دون الأنبياء ، والأولياء خلفه درجة درجة ـ (راجع نفس المصدر والصفحة) .

وفى موضع آخر يبرز الترمذى صفات ختم الأولياء ، ويبين موالاة الله له ، واجتباءه اياه من دون أوليائه وذلك من خلال تفسيره للحديث القدسى الذى ورد عن الله عز وجل فى حق الأولياء والولاية المتبادلة بين الله وخاصة عباده ، والترمذى يتحدث عن ختم الأولياء وكأنه هو المهدى المنتظر ، وذلك فى قوله : (انه اذا أتى وقت زوال الدنيا ابتعث الله وليا اصطفاه واجتباه ، وقربه وأدناه ، وأعطاه ما أعطى الأولياء ، وخصه بخاتم الولاية (راجع المصدر نفسه ص ٣٤٤) .

أما أوصاف ختم الأولياء ، وسماته التى يتسم بها ، ومميزاته التى يتميز بها عن أولياء الله جميعا ، فان الترمذى يقدمها فى نص واضح لا يفتقر الى تحليل أو تعليق ، وذلك هو قوله: (وذاك عبد قد ولى الله استعماله ، فهو فى قبضته يتقلب ، به ينطق ، وبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يعقل ، شهره

فى أرضه ، وجعله امام خلقه ،وصاحب لواء الأولياء ، وأمان أهل الأرض ، ومنظر أهل السماء ، وريحانة الجنان ، وخاصة الله ، وموضع نظره ، ومعدن سره ، وسوط الله فى أرضه ، يؤدب به خلقه ، ويحيى القلوب الميتة برؤيته ، ويرد الخلق الى طريقه ، وينعش به حقوقه ، مفتاح الهدى ، وسراج الأرض ، وأمين صحيفة الأولياء وقائدهم ، والقائم بالثناء على ربه بين يدى رسول الله ، يباهىبه الرسول فى ذلك الموقف ، وينوه الله باسمه فى ذلك المقام ، ويقر عين الرسول به ، قد أخذ اللهبقلبه أيام الدنيا ، ونحله حكمته العليا ، وأهدى اليه توحيده ، ونزه طريقه عن رؤية النفس وظل الهوى ، وائتمنه على صحيفة الأولياء ، وعرفه مقاماتهم ، وأطلعه على منازلهم ، فهو سيد النجباء ، وصالح الحكماء ، وشفاء الأدوار ، وامام الاطباء ، كلامه قيد القلوب ورؤيته شفاء النفوس ، واقباله قهر الأهواء ، وقربه طهر الادناس ، فهو ربيع يزهر بنوره ، وخريف يجتنى ثماره ، وكهف يلجأ اليه ، ومعدن يؤمل مالديه ، وفصل بين الحق والباطل ،وهو الصديق والفاروق والولى والعارف والمحدث ، وواحد الله فى أرضه (راجع نوادر الأصول ص ١٥٨ / ١٥٩ ، وختم الأولياء ص ١٠٩ / ١١٠) ٠

ولعلنا نلاحظ أن بعض أوصاف ختم الأولياء التى وصفه بها الترمذى تلتقى مع بعض أوصاف المهدى المنتظر الذى هو خلاصة عقيدة الشيعة ، ولكن هذا التقارب بين الاثنين فى الأوصاف لا يؤدى بنا الى الحكم على الترمذى بأنه شيعى من هذه الزاوية ، لأننا كما لاحظنا وجدناه بعيدا كل البعد عن الشيعة ، الامامية منهم أو الاثنى عشرية ٠

ولعل الترمذى قصد من ايراد هذا التصور الوصفى لختم الأولياء أن يكون حافزا لكثير ممن يتطلعون الى سلوك الطريق ، ويكون قدوة يقتدون به ، ومثالا أعلى يتطلعون الى الوصول الى مستواه ، وأسوة يأتسون بها ويمكنهم الوصول اليها ، واذا كان تأسيهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، كأسوة حسنة ، لا تمكنهم من أن يصيروا هم الرسول بعينه ، فانهم يمكنهم أن يقتدوا بمثل يستطيعون بلوغ درجته ومنزلته ، لأن باب الولاية لم يقفل بعد على عكس باب النبوة الذى أقفل بمحمد صلى الله عليه وسلم ٠ واذا كان ختم الأنبياء قد جاء ورحل ، فان ختم الأولياء لم يأت بعد ، ولعل موقف

الترمذى الذى بين من خلاله أوصاف الختم الولى بمثابة دعوة مفتوحة لكل انسان مسلم أن يحاول من أجل أن يصير هو الولى الخاتم ٠

فلسفة التربية عند الرتمذى :

لاحظنا كيف أن الترمذى بين فى الطريق الصوفى عدم أهمية الشيخ بالنسبة للمريد ، كما بين فى موضع آخر أن العزلة المكانية ليست ضرورية ، ثم رأيناه فى آخر الأمر يضع أوصافا للولى ، وأخرى لختم الولاية وترك الباب مفتوحا لمن يحاول أن يكون أو يصير ما يريده لنفسه ، وتلك المواقف كلها تشير الى الأسلوب التربوى عند الحكيم الترمذى ، ولذلك فاننا آثرنا أن نفرد هنا لهذا الموضوع مبحثا مستقلا لأهميته فى مجاله من جهة ، ولقربه من الأساليب التربوية المعاصرة والتقائه معها من جهة أخرى ، وبطبيعة الحال فان هذا الموضوع من الاتساع بحيث لا تكفيه هذه العجالة ، ومن هنا سنتناول نموذجا أو نموذجين نوضح من خلالهما منهج التربية عند الحكيم الترمذى ، ولعلنا نستطيع فيما بعد أن نوفى هذا الموضوع حقه عنده وعند غيره من المتصوفة فى مقام آخر ٠

والترمذى يشير الى أهمية المنهج التجريبى فى التعلم واكتساب المعرفة فى كل مستوياتها ، وذلك فى قوله : (ان أردت علم المعرفة فتفكر فى أمر البحر وعجائبه ، وأمر الملوك ، فان علم المعرفة يجرى على أمر الملوك وأمور البحور ، وان أردت علم العبادة فتفقه فى المحترفين ،وان أردت علم الرياضة فتفقه فى أمر الدباغة والسياسة والقيادة ،وان أردت علم التوبة فتفقه فى القصارة ، وان أردت علم التقويض فتفقه فى أمر الملوك الذين على رؤوسهم ، وان أردت علم الأخلاص فتفقه فى أمر سباقى الملك وطباخه وخبازه ونساجه ، وان أردت علم الصبر فتفقه فى أمر الآباء مع الأطفال (راجع النص ، الاشارة ، رقم ٧٤)(وواضح أن الترمذى يشير الى كثير من العلوم والمعارف، ولكن الذى يسترعى الانتباه هو حديث الترمذى عما يسميه بعلم المعرفة الذى يقصد به ذلك العلم الشامل وتلك المعرفة السامية ، وهى معرفة الله تعالى التى تعتمد على كثير من الخطوات السابقة : أو على حد تعبير أهل الطريق فان المعرفة السامية ، وهى معرفته جل جلاله ، تعتمد على أحوال ومقامات يترقى العارف فيما بينها ، ويرقاها تدريجيا الى أن يصل الى تحقيق هدفه ، ويحصل على مبتغاه ٠

ومما يلاحظ أن الترمذى فى حديثه عن علم المعرفة هذا يشير الى اتباع المنهج التجريبى بما فيه من المشاهدة أو الملاحظة ثم المقارنة ثم الاستنتاج ، فلم يطلب من العارف أن يعتمد على التأمل العقلى أو النظر المجرد الخالص ، بل كان الترمذى واقعيا فطلب منه أن ينظر فيما حوله من أمور مهمـــا بدت بسيطة أو سطحية ، اذ أنه سيجد فى كل أمر أو مهنة مصدرا لنوع من المعرفة وللتعلم ، وهى دعوة من الترمذى يوجهها لكل من أراد علما أو قصــد الى اكتساب خبرة ، ويسعى الى تحصيل ثقافة أو معرفة ما ٠ فلا نستهين بأمر ما من الأمور التى تدور من حولنا ، أو بواقعة من الوقائع التى نشاهدها ، ولا نقلل من شأنها بدعوى أنها ليست ذات قيمة يعتد بها ٠

وهذا كما قلنا أسلوب تعليمى وتربوى من الترمذى يحسب له تماما ، فتأمل كيف يدعونا الى أن نتعلم العبارة أى البـــلاغة والخطابة ، ونتعلم الرياضة والتوبة والتفويض والاخـــلاص والصبر من كـــل من المحترفين والسياسيية والقادة والقصارين ، وخدم الملوك وسقاييهم وطباخيهم ، وأن نتعلم بعض ذلك من طريقة الآباء فى تربية الأطفال ٠

وكأن نستطيع أن نحصل على ما نريد من علم وثقافة وخبرة ومهنــة ومعرفة من مصدره المناسب له مما يدور حولنا فى حياتنا اليومية ٠

والترمذ فى موضع آخر يبين لنا منهجا آخر من مناهج البحث والتعلم، وذلك حين يقول : (وفى الأخبار يوجد تحقيق ما وصفنا ، فلم يجد التطويل (النص ، الاشارة رقم ١٦٤) ولعل الترمذى أراد أن يبين أن التعلم يحدث جملة أول الأمر ، ثم بالتفصيل بعد ذلك ، وهذا التفصيل يوجـــد فى كتب الأخبار ، أى المصادر التاريخية من سيرة وتراجم ، واذا كان السياق هنــا متصلا بحديثه عن فكرتى الخوف والرجاء ، فان الترمذى وضعهما كنماذج لما يراد العلم ، ولذلك فانه يقرر أن تفصيل المعرفة بهذه الأفكار ومثيلاتها يمكن الحصول عليه من كتب الأخبار ، أى فيما روى عن أهل الطريق من آراء وأخبار ، ومن الكتب التى ذكرت أحوالهم ومقاماتهم ، وتحـــدثت عن سلوكهم ٠ وهنا يؤكد الترمذى أن كلامه ليس محض ادعاء ، ولكنه مدعــوم بالاسانيد والأدلة التطبيقية ، كما يشير الى أن من أراد معرفة هذه التفاصيل فعليه أن يرجع الى كتب السير والأخبار ليتحقق بنفسه من صحة هذه الفكرة ، وليرى أنها ليست ادعاء باطلا ولكنها دعوة حقيقية ٠

ووجهة نظر الترمذى هنا تذكرنا بمنهج البحث فى العلوم التجريبية ، خاصة العلوم التاريخية ، من حيث ضرورة الرجوع الى مصادر التطبيق ، ورد الفكرة اليها لنجد تطابقا بين الفكرة النظرية ونتائجها العملية ، كما نجد الفكرة مروية بالتواتر الكتابى من خلال ثقاة الرجال فى التاريخ ، وذلك ما يسمى المنهج الاستردادى فى التاريخ ٠

فلسفة العبادات عند الترمذى :

لقد أقام الحكيم الترمذى كغيره من المتصوفة ـ تفاوت القلوب المؤمنة على حسب تفاوت العبادات فيها ، ليس حيث الكم وعدد العبادات ولكن من حيث كيفيتها ودرجتها ويقينها ، وبالتالى الصدق فيها ، وهذا ما قصدناه بفلسفة العبادات عنده ، ابتداء من النطق بالشهادتين الى الصلاة والزكاة والتسبيح والشكر والذكر ، حتى يطلب الرحمة والمعونة الالهية ٠

وحول مسألة الشهادتين يقول الترمذى : (شهد بلا اله الا الله وهو يعلم ذلك ، وانما أوجب الشفاعة يوم القيامة لمن علم الشهادة ، وقوله تعالى : فاعلم أن لا اله الا الله ـ سورة محمد / ١٩ ، ولو كان المتبقى منه علم الجملة لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم ذلك (راجع النص ، الاشارة رقم ١٦٦ ، ١٦٧) والترمذى أراد هنا أن يؤكد أن مسألة النطق بالشهادتين لا تكفى وحدها ، بل لا بد من أن يعلم الانسان قيمة الشهادة مضمونها ومتطلباتها ، ولعل فى هذا ردا على كل من يأخذون الأشياء كلها بمظاهرها ، كالقول بأن من قال لا اله الا الله دخل الجنة ، فالقول ليس هو مجرد النطق باللسان فقط ، ولكنه يتعدى النطق الى الاعتقاد القلبى والسلوك العملى ٠

ومن هنا فاننا نجد الترمذى يوضح المغزى من قول لا اله الا الله ، وذلك فى موضع آخر حين يقول : (لو كان معناه العدد لكان كل من يعده استوجب الجنة ، فان كان معناه هكذا ، فمن عد واحدا منها فقد استوجب ، على طريق أنه مؤمن ، واعترف باسم واحد مجمل ، فهذا الفضل ما يحتاج الى احصائه ، وقد آمن به باجماله ـ (النص ، الاشارة رقم ١٤٧) ٠

ولعل الترمذى قصد ما يترتب على قول لا اله الا الله ويرتبط به من ذكر وتسبيح وأن زيادة العد والحصر والاحصاء لبقية الأسماء لا حاجة

للانسان المؤمن بها ، طالما أنه باحصائه وعده لاسم واحد من اسماء الله الحسنى يمكن أن يدخل الجنة ، وذلك كله يعد تدرجا من الترمذى لكى يرفض أن يكون الاحصاء هو مجرد العد فقط دون التحمل والصبر والاطاقة والعمل بها ، فما أهون أن يعد الانسان أشياء ، وما أسهل أن ينطق بألفاظ دون أن يعيها أو يفهم معناها ومضمونها ، وبالتالى دون أن يعمل بهذا المضمون وبذاك المعنى . ولذلك فان مفهوم الايمان الصحيح لم يقتصر على أن يكون نطقا باللسان وحسب ، بل لا بد وأن يصاحبه تصديق واعتقاد بالقلب ، ثم عمل بأركان هذا الايمان .

وكذلك فان أسماءه تعالى ينطبق عليها هذا المبدأ ، وهو أن لا يكتفى المؤمن بمجرد تحريك حبيبات المسبحة أو تحريك أصابعه ناطقا بكل اسم من أسمائه سبحانه دون أن يكون قادرا على الوعى بالمعنى والمضمون الخاص بكل اسم أو وصف من أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى .

وقد يتساوى عند الترمذى من يحصى الاسم الواحد معترفا به وبمعناه، خاصة اذا كان شاملا لكل الاسماء الأخرى ،والتى تنتج عنه أو تحمل عليه ضرورة ، كاسم الله ، أو الاله الواحد ، الرب ، المعبود ، الحق ، نقول ان محصى هذا الاسم الواحد المجمل الشامل ربما يتساوى عند الترمذى بمن أحصى كل الأسماء الأخرى أى الحسنى ، اذ أن هذا الأخير يؤمن ويحصى تفصيلا ، بينما ذاك فقد آمن وأحصى اجمالا ، مع وعيه لما يندرج تحت هذا الاجمال من معان وأسرار وحقائق ، ومن هنا فلا فرق بينهما باعتبار أن كلا منهما قد آمن بالله واحد ، لم يختلف بين هذا وذاك ، واذا كانت المسألة عدا واحصاء فقط لكان هناك خلاف بينهما ،ولكن المسألة تتعدى العد والاحصاء الى التحمل والقدرة والاطاقة والوعى التام بما يحصى ويعد .

والترمذى يشير اشارة طريفة الى تشابه وتقارب بين الانسان المؤمن وبين شكل قول لا اله الا الله وهو يعبر عن ذلك بقوله : (القول الطيب للبدن الطيب ، والبدن الطيب للقول الطيب ، فلا اله الا الله أقرب الاسماء وأطهرها وأصدقها وأعلاها ، لأنها خرجت من نور المعرفة ، وكذلك تنفذ الحجب الى ربها حتى تقوم بين يديه ، فوجدنا فى ذكر هذه الآية أن المؤمن شكل لقول لا اله الا الله ، وأن هذا القول شكل للمؤمن ، فكل واحد منهما شكل لصاحبه

(راجع النص ، الاشارة رقم ١٧٩) وليس لأحد أن يتصور أن الترمذى ينزع هنا الى الحلول أو التجسيم بأن يتصور أن عبارة لا اله الا الله تتجسد فى هيئة المؤمن وصورته كما توهم بعض غلاة الشيعة ، ولكننا نرى أن عبارة الترمذى هذه تعبر عن وعى نافذ وفكر عميق عنده ، اذ أنه أراد أن يؤكد أن المؤمن الحقيقى الصادق فى ايمانه يعد صورة مطابقة لقوله لا اله الا الله ، ولعمله بموجب هذا القول ، كما يمكن أن يكون كل منهما دليلا على الآخر ، وكأن بينهما علاقة تضايف منطقى مثل تلك العلاقة التى بين الأب وابنه ، أو بين الأخ وأخيه ، أو الزوج وزوجته ، فكل منهما يحيل الى الآخر ويشير اليه اشارة عقلية ذهنية وربما اشارة وجودية فى بعض الأحيان ٠

وهذا قد يذكرنا بفكرة القصـــــد والاحالة التى شـــــاعت فى مذهب الفينومونولوجيا المعاصر عند هوسرل ، وكانت شعارا على مذهبه ، وعلامة من علامات منهجه فى الوعى بالأشياء والادراك الانسانى لها ٠

كما أن الترمذى يشير الى تشابه العبد المقرب بالله ، ذلك العبد الذى يعبد الله وكأنه معه فى كل فعل ومع كل حال وفى كل آن ، ولعل ذلك تصديقا لقول الرســول صلى الله عليه وسلم ، حين سأله ســـيدنا جبريل عن معنى الاحسان ، فقــال : أن تعبــد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ، والمسلم الصادق اذا عبد ربه عبادة حقيقية من خلال تصوره لهذه (الكأنية) فى كل أفعاله وأحواله ومعتقداته يصير الله سبحانه معه ، وقريبا منه ، ورقيبا عليه فى كل شئونه وخواطره ٠

أما عن الشكر وفلسفته بوصفه نوعا من أنواع ذكر الله وتسبيحه تعالى، وبوصفه من مقامات الصوفية فان الترمذى يرى أن الشكر ليس فقط مجرد النطق والتلفظ بالحمد والثناء على نعم الله ، بل هو شكر عملى من خــلال ما يؤديه الانسان الشاكر لربه من مناسك وطاعات فى سبيل مرضاته تعالى ، والترمذى عن هذا المستوى من الشكر يقول : (وقد قال تعالى فى تنزيله : ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ، ثم قال لعلكم تشكرون ـ المائدة /٦ ، يطهركم بالماء حتى تزول الأنجاس وغبار العد ، فاذا زالت حيى القلب ، فتلك الحياة تمام النعمة ، فقاموا لله منتصبين بحياة قلب يعقلون ما يعبدونه به ، وأنهم بين يدى الله فذلك منهم شكر ـ (النص ، الاشارة رقم ١٣٣) ٠

واذا تأملنا فى عبارات الترمذى وجدناه يتدرج بين العبادات ويعمقها حين يقول عن التطهير أنه تطهير يرتبط به احياء القلب ، وكأن قلب الكافر أو المشرك أو قلب المؤمن المنافق يعد قلبا ميتا هو والجماد شىء واحد ٠ وهنا نلاحظ أن التطهير أوسع من أن يكون مجرد اغتسال بالماء ، بل هو تطهير للنفس الشهوانية ، ومحاولة اماتة الجسد اماتة صناعية فى الحياة الدنيا ، وهو مستوى من الزهد والتقشف ، أو قل انه نوع من الاعتدال الطبيعى للنفس المؤمنة ايمانا حقيقيا ، وذلك كله تطهير يؤدى الى حياة حقيقية للقلب تلك الحياة التى بها تكتمل نعمة الايمان ، واذا اكتملت هذه النعمة ، أمكن تعقل وتفقه كل الأمور وكل العبادات ، فتكون العبادة واعية وعميقة وهادفة ، فلا تكون الصلاة مجرد حركات ايقاعية من قبيل العادة فحسب ، ولكنها تكون ذات مقاصد وأهداف ، وكذلك الحال بالنسبة للحج ، الذى قد يبدو للبعض فى بعض أركانه ومناسكه ، نوعا من الحركات والأفعال اللامعقولة وغير الهادفة ، مع أن لها أسرارها وحقيقتها التى تخفى على المؤمن ايمانا سطحيا ، ذلك المستوى من الايمان الذى يوقع صاحبة فى تلك الأحكام الخاطئة الجزافية والاتفاقية ، فقلوب هؤلاء فى حالة أقرب الى الموت منها الى الحياة ٠

ويحضرنا هنا قول الله تعالى :(ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ـ سورة ق / ٣٧) فلكل انسان وحيوان ، قلب يؤدى الوظيفة الفسيولوجية الطبيعية التى يعرفها الجميع ، ولكن القلب المقصود هنا هو القلب الواعى الباطنى ، المتطهر المدرك ، وذلك الحى حياة حقيقية ٠

واذا عدنا الى أهمية الشكر والذكر وجدنا الترمذى يقرر أن : (الشكر سرور القلب بنعمة ربك ، فربك عندكمحمود ، فاذا أضرت بالبلاء فصبرت فأنت الممدوح ، والرب لم يكن ممدوحا ، فاذا استعملك بما فيه مدح ربك خالصا صافيا ، خير لك من أن يستعملك بما فيه مدحك مع مدح ربك ، فيكون مزاجا ، فان الثناء من الجزاء ـ (النص ، اشارة رقم ٣٦٩ ، ٣٧٠) ولعلنا نلاحظ أن الترمذى يوضح هنا أن الشكر بوصفه سرورا لقلب الانسان فانه يستعمل كل الانسان ، وخير أن يشكر الانسان ربه شكرا خالصا لوجهه من أن يشكره تعالى أو يمدحه لسبب ما أو لهدف ما ، بأن يكون هذا الانسان مبتليا ابتلاء ما فى نفسه أو فى ماله أو فى ولده أو فى زرعه وغير هذه

الأوجه ، فيكون الانسان ممدوحا هو الآخر من ربه ، وكأن الشكر الحقيقى الذى قصد اليه الترمذى هو الذى لا يكون رد فعل لجزاء ما أو انتظارا لجزاء ما ، أى لا يكون مرتبطا بما وقع أو اتقاء أو ترقبا لما يحتمل أن يقع ووقاية منه ٠

والترمذى قد ميز بين درجتين للشكر ، احداهما شكر لله فقط ، والآخرى شكر ملازم للعمل وناتج عنه ، أو مقارن له ، وهناك آيات قرآنية توضح هاتين الدرجتين ، اذ أن الله سبحانه أراد أن يبين لنا أن العمل شكر له تعالى ، وهكذا يمكننا أن نرى كيف أن درجة العامل العالم ، أى العابد العارف خير من درجة العابد الذى لا يعمل بما يعتقده ، ولا يساهم بأى صورة من صور العمل ، ويتفرغ للعبادة وحدها ، وهذا توضيح آخر لأهمية العبادات وقيمتها عند الترمذى الحكيم ٠

وفى هذا الاقتران بين العبادة والعمل يقول الترمذى : (ومن درجة الشكر أنه تعالى ذكر الشكر مقترنا بالعمل ، فقال : اعملوا آل داود شكر - سورة سبأ / ١٣ ، والعمل اظهار الشكر ، والصبر هو ترك العمل السىء ، فذاك عمل ، وهذا كف عن العمل ، ففى هذا الكف ترك الشهوة ، وفى العمل ترك الشهوة والعمل زيادة ، ومن درجة الشكر أن العاملين له قليل ، قال تعالى ، وابتغاء رضوانه ، وقليل من يعمل له على القبول للعبور شكرا - (راجع النص ، الاشارة رقم ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤) ٠

والترمذى قد أفاض الحديث عن الشكر والصبر والحمد ، وجعلها عصبا لكثير من قضايا كتابه علم الأولياء ، موضوع التحقيق من الدراسة ، لدرجة أنه أفرد مبحثا خاصا للشكر والحمد ، وجعله بمثابة بيان تفصيلى وتوضيحى لذلك المقام ، بعد أن قدم له وأجمل الحديث عنه فى غير موضع من الكتاب المشار اليه منذ قليل ٠

والترمذى كاد أن يجعل الشكر مقاما بمثابة العلة الفاعلة لكثير من الأشياء بالنسبة لصاحبة ، بل ان درجات الشاكرين ، ومن ثم درجات الأولياء، تتدرج تبعا لدرجات شكرهم من حيث العمق والاخلاص والصدق ، وأبسط صورة من صور الشكر ، وهى أيضا عميقة وصادقة فى نفس الوقت ، هى أن الشكر يعبر عن تفتح قلب الشاكر وانتباهه ، بل وانتباه عن قلبه لكل صنائع

الله لرؤية حكمته فى بديع صنعه ، واتقان تدبيره للاشياء ، ثم التدرج فيما بين الأشياء الظاهرة لاستكناه حكمته تعالى وقوة تدبيره من النظر فى بواطن هذه الأشياء وحقائقها الداخلية ، ثم النظر فى المقادير المقدرة بدقة منه تعالى لكل شىء ، وفى علاقات هذه الأشياء فيما بينها ، ثم الصعود الى درجة أعلى وأدق من درجات الشكر للتأمل فى كيفية سبق كل هذه المقادير فى علم الله السابق وفى ارادته التى تسبق خروج الأشياء على صورتها الظاهرة هذه ، وهذا ما عبر عنه الترمذى بقوله : (والشكر هو انفتاح عين القلب حتى صنائعه ، فالشكر هو رؤية صنعه فى الأشياء ، ثم فى باب الشكر طبقة أعلى من هـذه، ولهم مرتبة أعلى من هذه المرتبة ، وهى رؤية تدبيره الربوبية ، ثم فيه مرتبة أعلى من هذه ، وهى رؤية ما جرى فى الذكر قبل التدبير ، ثم فيه مرتبة أعلى من هذه ، وهى رؤية المشيئة والقسمة للمحظوظ ، ثم فيه مرتبة أعلى من هـذه المراتب كلها ، وهى رؤية العلم فى الفردية والأحدية ، فهذه كلها حقيقـة الشكر ، والشاكرون على درجاتهم كلما جاوزت رؤيتهم درجة ، فمثوبتهم على قدر رؤيته فى درجته ـ راجع غرس العارفين للترمذى ص ٨٨) ٠

ومن الواضح أن الترمذى ناقش موضوع الشكر وعرضه هنا عرضا فلسفيا عميقا ودقيقا ، وان كان ذلك فى اطار دينى وعقائدى أيضا ، ولسـنا بحاجة الى تكرار العلاقة الطردية بين درجة الشكر ودرجة الصدق فى الايمان، ثم درجة الرؤية للاشياء من خلال رؤية الله ومعرفته ، ثم العكس أيضا أى رؤية الله ومعرفته من خلال النظر والتأمل فى تدبيره وصنعه ومشيئته ومقاديره ، على النحو الذى عرضه الترمذى فى النص السابق حين أراد التعبير عن مراتب الشكر ودرجاته ، وجعله بابا للمعرفة ٠

واذا كنا قد أشرنا مع الترمذى الى تفاوت القلوب بحسب تفاوت درجات القيادات ، ومنها الشكر ، فاننا هنا نتناول الذكر بوصفه مقاما من مقامات الصوفية ، وبه أيضـا تتفاوت القلوب ، ومن ثم أصـحابها فى الصديقية والصادقية والقرب والتفرد ، وفى هذا يقول الترمذى : (فذكر الله عـلى وجوه ، فأول ذكره التوحيد ، والثانى ذكره بالأمر والنهى ، والثالث ذكره عند كل نعمة فى الدين والدنيا ، والرابع ذكره بالمنة ، والخامس ذكره بالتدبير، والسادس ذكره بالمحبة ، والسابع ذكره بالوله ، والثامن ذكره بالشوق اليه، والتاسع ذكره بالأفضال ، والعاشر ذكره بالمرعى على الدوام ، فكل ذاكر على

حسب ذكره يرجع اليه ثمرة ذكره ، ومن ذلك الوجه يذكرونه ، راجع غرس العارفين (ص ٩٣) · ولعلنا ندرك هنا الترابط الوثيق بين مقامى الشكر والذكر وتلازمهما ، وكأنهما وجهان لحقيقة واحدة ، هى المؤمن الصادق ، بصرف النظر عن الدرجات والتفريعات التى يتفرع اليها بكل مقام منها ، ذلك أن الشكر بأى صورة يمكن تصوره بها أو صياغته فيها هو نوع من الذكر ، كما أن الذكر نتاج الشكر ، وكأننا نستطيع القول أن الشكر ذكر خاص ، وأن الذكر شكر عام ، فهما يتداخلان ، وما من فرض من الفروض التى أمرنا الله تعالى به ، ولا نافلة من النوافل التى يتطوع بها العبد ، الا تحققت فى اطار ذكر الله ، وبالتالى شكره ، ومن هنا كان الترمذى موفقا كل التوفيق ، فى رأيه حين جعل كلا من الشكر والذكر عدة درجات ومراحل ، وفيها يتفاوت الشاكرون والذاكرون ·

والترمذى جعل الذكر والتسبيح مقدمة ضرورية لحصول المدد الالهى، بل أشار الى ما يشبه رابطة السببية بين تسبيح المخلوقات لله وبين ما يقع من عناية الهية ، وما يغمر الكائنات من مدد الهى ولطف ربانى · وفى التسبيح تقع معا فى الحمد والشكر والذكر ، وفيه أيضا يؤدى كل كائن وظيفته التى خلق من أجلها تبعا لقوله تعالى : (**وان من شيء الا يسبح بحمده** - الاسراء ٤٤) ونجد أن العلاقة بين وقوع هذه الأوجه المختلفة للرحمة الالهية ، وبين وقوع التسبيح والذكر من المستويات المتباينة للمخلوقات ، هى علاقة تلازم وترابط فى الوقوع أقرب الى تلازم السبب بالمسبب أو الشرط بالمشروط ، على أن هذا لا يمتد الى طبيعة الفعل الالهى الذى يتجاوز الشروط والأسباب والعلل، ولكنه سبحانه أراد أن يعود خلقه على طلب الأسباب فى كل شيء · فاذا كان الرزق أو الكسب مشروطا بالسعى والكد والعمل ، فان عناية الله ومدده كله مشروط ومتوقف على تسبيحنا اياه وذكرنا له ، وليس السعى الى الرزق الا من قبيل التسبيح والذكر ، لأن تنفيذ كل الأوامر الالهية ، والبعد عن كل المنبهات هو تسبيح له وذكر ، والشريعة كلها بما فيها من أوامر ونواهى ، اذا اتبعها الانسان ، كان مسبحا ومقدسا لله سبحانه ، والترمذى فى هذه المسألة يقول : (الحياة منها بدت الحركات ، والله منزه عن الحركات ، فلما ظهرت حركة الخلق ظهرت المعاصى والجرأة ، فدعا جميع الخلق الى تسبيحه ، فقال : (**وان من شيء الا يسبح بحمده** - الاسراء ٤٤) لينزهوا ولى الحركات عن جميع الحركات لتدوم لهم الحياة ، ولولا التسبيح لانقطع در الحياة ، فصارت

الأشياء كلها مواتا ، فاذا نزهوه بالتسبيح دام الادرار على الخلق فحيوا ، فبالتسبيح تقوم السموات والأرض ومن فيهن من العرش الى الثرى ،وبالتقديس يدوم ذلك لهم ، لأن سبحاته تنفى الأحداث وتحرقها ، وقدسه المتجلى لخلقه يغسل أدناس الأشياء التى تدنست من أحداث بنى آدم ، فالقائمون بالتسبيح والتقديس من معدن طهارات القلوب هم أمام الخلق فى التسبيح والتقديس ، وبهم تقوم الأرض وتدوم النعم على أهلها ـ راجع المسائل المكنونة ص ٢٣ ، ٢٩ مواضع متفرقة) ٠

والترمذى حين يتحدث عن صلاة العبد وصلاة الله سبحانه على بعض عبيده ، يشير الى أن صلاة الله هى حفظ ورحمة الهية ، وهى أقرب الى العصمة من الذنوب ، والترمذى يفرق بين مستويين من العصمة ، وكلاهما من عند الله سبحانه ، وان اختلفا فمن حيث الانسان الذى ينسب له هذا المستوى دون ذاك ، أو يوهب له من الله بمعنى أصح ، والترمذى فى ذلك يقول : (العصمة عصمتان : عصمة من الله عز وجل على القلب ، وعصمة من الله على طريق الأسباب ، فاذا خلا بامرأة غير محرم فقد ذهبت الأسباب وانقطعت العصمة ، فان أدركته عصمة الله على الانفراد برحمة منه وفضل ، والا فقد هلك ، وأسباب العامة هو أن يهم بأمر فيحدث حدث من الأمر ما يقطع عليك هذا ، ويحول بينك وبينه من خوف أو حياء ، أو نقص تدبير ، أو يجيىء انسان يحول بينك وبينه أحداث الدنيا ، فهذه عصمة وسبب ـ راجع المنهيات للترمذى ص ١٢٢) ٠

ولعلنا ندرك أن عصمة القلب هى عصمة الخاصة من الأولياء ، وهى من كرامات الله لهم ، أما عصمة عامة المؤمنين فهى عصمة الأسباب ، وهى حفظ الله لهم من الكفر ومن التمادى فى ارتكاب المعاصى والذنوب ٠

ولعل الترمذى قد أراد من صلاة الله على عبده ، أنها هى بذل الرحمة العظمى جودا وكرما ، وهذه الرحمة أيضا هى العصمة والحفظ ، وهى تتفاوت بين المؤمنين ، وفى هذا يقول الترمذى : (ثم الصلاة من الرب على عباده درجات على قدر منازلهم وحظوظهم منه ، وهذه الرحمة السابقة غضبه هى الرحمة العظمى ، فالعباد منهم فى شأن هذه الرحمة على طبقات ، فمنهم من سبقت له رحمته غضبه في شأن التوحيد ، فتلك الرحمة له عصمة من الكفر ،

ودوام التوحيد ومنهم من سبقت له رحمته غضبه فى شأن المعاصى ، فتلك الرحمة له عصمة من الاصرار على الذنوب ، فاذا أذنب تاب ، ثم ان أذنب تاب، لا تتركه تلك الرحمة أن يصر ، ومنهم من سبقت له رحمته غضبه فى شـأن وجود السبيل اليه فى القربة ، فتلك الرحمة عصمة له من الحجب عنه ، فأى عبد سبقت له منه رحمته غضبه فى منزلة من هذه المنازل أمن سلب تلك المنزلة وخيرة تلك المرتبة ، فان أخطأ أو زل أو بلى بذنب ، كانت الرحمة السابقة تحوطه وتكتنفه ، وفى كل واحد من هذه الخصال مصر عليها ، فلا ينحط عن درجة التوحيد ، لأن الرحمة منه تعالى له قد سبقت غضبه فالمتقى يزل ويذيب ويعصى ويتوب ، ثم يعود فهو فى ذلك لا ينحط عن درجة المتقين - راجع النص الاشارة رقم ٣٤٠ ، ٣٤١ .

والترمذى يقرر أن العصمة للانبياء وهى واجبة لهم ، بصرف النظر عما اذا كان الوجوب عقليا أو سمعيا ، وأن عصمة الأولياء ليست واجبة ولكنها جائزة ، ولا علاقة لها بالدين والاعتقاد به ، وهى كرامة من الله يختص بها من يشاء ، وهى أمر لا يظهر ولا يتعين ، لأن ظهور الولى وتعينه ليس أمرا ضروريا يتصل بالعقيدة على عكس ظهور النبى والرسول وتعينهما - والولى عند الترمذى ليس معصوما من الأخطاء والذنوب ، ولكنه محفوظ من الفتنة بالولاية، فالولاية حفظ ورحمة وليست عصمة واجبة .

أما عصمة العامة فهى تظهر عن طريق الأسباب سترا ووقاية وحفظا لهم وحماية ورحمة ومنة من الله سبحانه وتعالى اليهم . وهذا أيضا مما يوضح علو مرتبة النبى على مرتبة الولى عند الترمذى واعترافه بذلك وتأكيده عليه فى غير موضع من كتبه .

الفلسفة الخلقية عند الترمذى :

تتمثل الفلسفة الخلقية عند الترمذى فى كل تعليماته للمريد بالتطهير الذاتى ، ومجاهدة النفس ورياضتها ، والرقى بالأخـلاق والصفات الى المستوى الذى يؤهل المريد ويجعله صالحا لسلوك الطريق الصوفى ، وكل ذلك هو ما يسمى فى الفلسفة الخلقية باماته الذات اماتة صناعية وليست طبيعية.

ويتحدث الترمذى عن الدنيا ومتدرجا نحو التطهر والمجاهدة الذاتية

ويقول : (مثل الدنيا مثل بحر يغرق فيه من دخله ، لأنه لا يرى جانبه ، فالى كم يسبح وهو فى السباحة حتى يعيى ويلقى بيديه الى التهلكة ، وربما هاج ريح فيغرق فى تلك الأمواج ، فالكيس من لزم الساحل وتجنب البحر ، فهو فى سلامة ومأمن ، وما من أحمق يدخل البحر فى قلة المبالاة حتى يغرق فاذا هو قد هلك ، ومن كان قويا فى ذات يده ، وهيأ مركبا بآلاته وأدواته ورجاله وأشرعه ، فركب البحر فى مركب لم يضره ، وكذلك حاله فى البر ، لأن سفينته تعرض البحر بطوله وقد أطبق البحر ، فان سكنت الريح أرساها وان هاجت أجراها ، فكذلك الآدمى يجره حرصه الذى فى جوفه ، فليس لحرصه نهاية ترى كالبحر الذى لا ترى أطرافه ، (راجع النص ، الاشارة رقم ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١) وتصور الترمذى هنا قد يبدو غريبا لأول وهلة ، اذ كيف للملاح الماهر أن يجرى بسفينته اذا هبت العواصف والرياح، ويرسيها اذا هدأت وسكنت ؟؟ والمفروض أن العكس هو الصحيح ، اللهم الا اذا كان الترمذى أراد أن يعبر عن الفئة التى تستطيع أن تكبح جماح نفسها وشهواتها ، فتظهر أنفسهم اللوامة وتتغلب على الانفعالات والشهوات الباطنة والظاهرة على السواء . وذلك عند الترمذى دليل المهارة والحكمة فى قيادة النفس والسيطرة على الذات .

ولعلنا ندرك أن كل هذه الأمثلة التجريبية وغيرها مما أوردها الترمذى، تعد تعبيرات مجازية وكناية عن وجهة نظره الحقيقية حول صراع الانسان المؤمن ضد شهواته ونزواته .

وفى موضع آخر يشير الترمذى الى أهمية تطهير النفس ويقول : (انما مراد العارف من الاصابة تقديس أمر الرب ، وتطهيره لأعز جوانب النفس ورفعتها وتقدسها ، فاعلم ذلك فانه ربما ابتغى العبد الاصابة لتقديس النفس، والعارف عرف من أقذار النفس أنها خلقت قذرة نجسه مجبولة على السوء ، فرام صفاء أمر الرب ، وكانت نفسه أهون وأذل من أن يؤهلها للكرامات ، وان كان يراها من ربه ما لا تعد ولا تحصى بكرمه وجوده ، وهو أهل ذلك (راجع النص ، الاشارة رقم ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩) والترمذى يشير الى رفعة النفس وارتفاعها بتطهير العارف لنفسه ، بل وتطهيره لأعز جوانب نفسه ، ولعله يقصد الجانب الناطق ، أى العاقل منها ، لأن من المسلم به أن يكون العارف قد طهر الجانب الغضبى والجانب الشهوى ، أى القسم الحيوانى من نفسه .

وكذلك يلاحظ أن الترمذى ، فى نصه السابق ، يشير الى أن النفس المتطهرة يراها من جود الله وكرمه وفضله ما لا تستطيع النفس أن تحصيه أو تحصره ، مما هو أشبه بالكرامات التى كانت محرومة منها وهى دنسة ذليلة مهانة ٠

واذا كانت هذه النفس قد هانت على صاحبها ورخصت عنده ، وصارت مبتذلة ذليلة ، فانها رغم ذلك لا تحرم عند الله من كرمه وجوده بعد أن تتطهر وتصل الى درجة رفيعة تكون فيها وكأنها ترى فضل الله ولطفه وعنايته تعالى، رؤية عيانية مباشرة وليست مجرد احساس أو شعور ٠ ومن الملاحظ أن تعبير الترمذى عن ذلك بالرؤية يدل على أنه يرى أن علم الله لا يفارق صغيرة ولا كبيرة الا اشتمل عليها ورعاها وأحصاها ٠ أى أن الترمذى من القائلين بعلم الله بالجزئيات والكليات ٠

الى هنا ونلاحظ أن التطهير الذاتى ، والمجاهدة النفسية ، التى أشار الترمذى اليها ، كمقدمات ضرورية وشروط لازمة لصلاحية سلوك الطريق ، تعد من قبيل الاتجاه الأخلاقى الشائع عند كثير من المتصوفة ، ولكن الترمذى أضاف الى ذلك ، ما يمكن أن نسميه بالتطهر بالمنة والابتلاء ، ولعلها تجربة ذاتية للترمذى تعرض لها أو عرضه الآخرون بها ، وأفاد منها فائدة كبيرة ، فأراد أن ينبه الآخرين ، من رواد الطريق ، الى أهمية هذا النوع من التطهر ، وأهميته وفائدته ، فيقول : (وكان ذلك من الله تبارك اسمه سببا فى تطهيرى ، فان الغموم تطهر القلب ٠٠ فتواترت على العموم حتى وجدت سبيلا الى تذليل نفسى ، فكنت أراودها على أمور قبل ذلك من طريق الذلة ، فتنفر ولا تطاوعنى، مثل ركوب الحمار فى السوق ، والمشى حافيا فى الطرق ، ولبس الثياب الدون وحمل شىء مما يحمل العبيد والفقراء ، فيشتد على ذلك ، فلما أصابتنى هذه المقالة والغموم ذهبت شرة نفسى ، فحملت عليها هذه الأشياء ، فذلت وأطاعت، حتى وصل الى قلبى حلاوة تلك الذلة (راجع : بدو شأن أبى عبد الله ص ١٨ / ١٩) وهو الترجمة الذاتية للترمذى ، ويلاحظ وجه الشبه بينه وبين المنقذ من الضلال للغزالى فى كثير من مواضعه وفى الأفكار المتضمنة فيه ٠

العـدل الالهى عند الترمذى :

اذا دقق الانسان فى آراء الترمذى ، وأمعن النظر ، لأمكنه أن يستكنه

كثيرا من الأفكار التى لم يشأ أن يعبر عنها تعبيرا صريحا ، وليس ذلك على سبيل الالزام أو اغتصاب الأفكار ، ولكنه على سبيل البحث المتأنى وقراءة ما بين السطور ، فلقد وجدنا الترمذى فى موضع من كتابه هذا (علم الأولياء) يقول : (واستعن ربك أيضا على النفس ، فانه هو مهيج النفس ومحركها ومسكنها أيضا ، فى رضاها وسخطها وعدلها وجورها ، فعدل النفس منة امتن به عليها ، وجور النفس عدل منه عليها ، لأنها لم تستحق الفضل فى ذلك الموضع ، فعدل عليها ربها ، أى أنزلها فنزلتها ــ النص ، اشارة رقم ٦٥) ومما يلفت النظر هنا تقرير الترمذى أن جور النفس الانسانية هو عدل الهى ، ومنة من الله تفضل بها على النفس ، فكأن الترمذى أراد أن يؤكد أن العدل الالهى شائع فى كل شىء ، وأن الحكمة الالهية متجلية فى كل مخلوق ، وفى كل فعل من الأفعال التى نراها متناقضة أو متضادة ، مثل الحسن والقبيح ، الخير والشر ، العدل والجور ، الفضيلة والرذيلة ، وغيرها من الثنائيات الشائعة فى هذا العالم ٠

فالترمذى يؤكد أن الله تعالى عادل كل العدل حين ترك النفس تجور ، لأنها لا تستحق فضل الله فى أن تكون عادلة دائما ، وكذلك فان الأنفس الساخطة كان الله سبحانه عادلا معها حين تركها تسخط لأنها لا تستحق ميزة وفضل أن تكون راضية ومطمئنة ، ولعل مصداق ذلك هو قول الله تعالى: **(ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها)** (سورة الشمس /٧) فالله سبحانه عادل حين وضح وبين لكل نفس ما هو الفجور ، وما هى التقوى ، كما أن ترك كل نفس تختار ما تراه هى مصلحة لها ، سواء أكان فضيلة أم رذيلة ، هو مظهر الحرية الحقيقية التى يستمتع بها الانسان ، وما يرتبط بهذه الحرية من تكليف ومسئولية ٠

وهكذا يمكننا أن نلاحظ أن العدل الالهى عند الترمذى مبدأ واضح ، وشائع فى كل موجود ، كما يمكننا أن نلاحظ أن حكمنا نحن على الأشياء وتقويمنا لها ، بمنظورنا الانسانى الذاتى والنفعى الضيق ، هو الذى يخلع على الأشياء هذا التفاوت بين العدل والجور ، بين الرضاء والسخط ، بين الخير والشر ، وغير هذه الأحوال والأفعال والعلاقات المتمثلة فى صورة ثنائيات وجودية تتبدى الأشياء من خلالها ٠

وفى موضع آخر نجد الترمذى يؤكد العدل الالهى من خلال نفيه

لأى قول يؤذن بأن البشر مجبرون ، حتى على الايمان ، كما ينفى أن يكونوا قد ألجئوا على التسليم بوجود الله ووحدانيته ، بل انه يؤكد اختيار الانسان لهذا الايمان ، وأنه عرف ربه باختياره وارادته ، وليس كما تصور الكثير من أن المؤمن آمن جبرا لا اختيارا ، وهو فى ذلك يقول : (فالعرش وما دونه قد نطقوا بلا اله الا الله ، ولكنا برزنا عليهم بهذا القول ، فضلا عن هؤلاء آمنوا به جبرا ، والمؤمنون آمنوا به عرفانا ، ألهم الخلق ربوبيته فآمنوا به ، وانكشف لهم الغطاء عن سلطانهم وملكوت عرشه ، فوحدوه وخافوه ، وأجلوه وأعظموا باريهم سرا وجهرا (راجع النص ، الاشارة رقم ١٨٤) ٠

ولعلنا نلاحظ تطابق رأى الترمذى هنا حول حرية الانسان فى ايمانه ومعرفته بربه ، مع رأيه حول العدل الالهى وتوضيح قيمة التكليف وأهمية المسئولية حتى يغلق الباب فى وجه اعتذارات الكفار وتعللات الملحدين الذين يرتكنون على المشيئة الالهية فى كل شيء ، مرددين أنه لو شاء الله هداهم لهداهم للايمان ، ومتغافلين عن أن هناك فى آيات القرآن ما تتضمنه من أفكار ، ما تسمى بالآيات الكونية ، والآيات الدينية الايمانية ، ففى ضوء الآيات الكونية يمكن تأويل الشرور وأوجه الابتلاء كلها ، وكأنها من قبيل المتشابه فى القرآن، أما الآيات الدينية الايمانية فهى الآيات المحكمة التى لا تحتمل التأويل ٠

ولعل الترذى أراد أن يشير الى أنه لكى يصح التكليف ، وتصح النبوة والرسالات ، ويحسن الثواب والعقاب ، ويكون لوجود الجنة والنار المبرر الحقيقى ، فلا بد من التسليم بأن المؤمن بالله آمن باختياره وارادته ، ولم يلجأ الى ايمانه ولم يضطر اليه ، وأن المشرك والملحـــــد مشرك وملحد بارادته واختياره أيضا ، ولم يجبر على شركه والحاده ، وأن لكل من المؤمن والمشرك استحقاق الثواب والمدح أو الذم والعقاب تبعا لما ارتبط مع ارادته من أفعال هى طاعات أو معاصى ، وهذا المذهب فى العدل الالهى من الترمذى يقـــربه كثيرا من المعتزلة خاصة فى حديثهم عن العدل بوصفه أصلا من أصـــولهم الخمســة ٠

العلم الالهى عند الترمذى :

يتحدث الترمذى عن العلم الالهى ، على أنه هو العلة الكافية لوجود سائر الأشياء ، وان كانت فى صورة غير صورتها هذه ٠

وكما سبق وأشار الى أن خيرية الأشياء وشريتها ، حسنها وقبحها ، هى معايير انسانية واسقاطات ذاتية من البشر ، أما الأشياء فواحدة بالقياس الى عدل الله ، فانه هنا أيضا يشير الى أن الأشياء كمدركات ومعارف تتفاوت بالقياس الى الانسان ، والعلم الانسانى الناقص والنسبى ، أما بالقياس الى العلم الالهى فكل الأشياء تتساوى وتتماثل ، لأنها فى حضور دائم فى علم الله تعالى وعقله ٠ والترمذى يعبر عن هذه الفكرة بقوله : (ومتى رأيت الصانع واحدا والمحرك والمسكن والمهيج واحدا ، ثم هجمت على أمر من الأمور فكرهته نفسك ، وشاءت غير ذلك ، فكأنهـــا كرهت حكمة الحـــكيم الذى دبر أمور السموات والأرض ، والدنيا والآخرة ، وكأنها أرادت علما غير علمه الجليل الذى به علم الظاهر والباطن ، والشاهد والغائب ، وان كان كل ذلك عنـــده وفى علمه سواء (راجع النص ، الاشارة رقم ٦٦ ، ٦٧) ٠ وهنا يتضح كيف أن الترمذى يرى أن اختلاف موضوعات العلم والمعرفة انما يكون بالقياس الى الذات المخلوقة المدركة فقط ، ومن هنا تتفاوت أحكام الانسان عن انسان آخر حول مدرك واحد فى بعض الأحيان ، بل وربما يتفاوت هذا المدرك بالقياس الى الانسان الواحد نفسه بحسب أحواله وظروفه الخاصة ، وكأن الترمذى يدخل فى اطار النسبيين فيما يتصل بالمعرفة الانسانية ، ودور الذات الفردة فى الحكم على المدركات ومعرفة الأشياء ٠

أما الذات الالهية من حيث كونها عالمة ، فانها تعـــلم الأشياء علمـــا متساويا وثابتا ، كما تصدر الأشياء عن هذا العلم الالهى ، بوصفها معلومات، صدورا متساويا ومتكافئا بلا تفاوت ولا اختلاف بين ظاهر وباطن ، حقيقى وظنى ، صدق وباطل ، مشاهد ومختفى ، الى غير هذه المثنيات المتقابلة فى المبنى والمعنى ، فالأشياء كلها عند الله وفى علمه سبحانه متساوية تمام المساواة أما هذا التفاوت بين الأشياء فيبدو عندنا نحن وبالقياس الى مصالحنا الذاتية الخاصة ، فالشىء شر اذا لم نجد فيه مصلحة ، وهو ذاته خير اذا تحققت مصلحتنا به ومن خلاله ، أو بالقياس الى مصلحة الآخرين ، ولعل هذا يتفق مع قوله تعالى : **(وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبـــوا شيئا وهو شر لكم)** (سورة البقرة / ٢١٦) ٠

وهذا المنظور النسبى الذاتى لا يمكن أن يمتد بأى حال الى أفعـــــال الله تعالى ، ومن ثم فان قوله تعالى عن ذاته بأنه : **هو الأول والآخر والظـــاهر**

والباطن ، وهو بكل شىء عليم) (سورة الحديد /٣) ليس فيه أى نوع من التناقض أو التقابل الا بالقدر الذى يبدو لنا نحن من خلال معيارنا الشخصى، ومن الاسقاطات الذاتية لنا فقط ، وليس كل ما يبدو لنا يكون هو بعينه حقيقة ذات الله تعالى ٠

النور الالهى عند الترمذى :

اذا كان حديث الترمذى عن العلم الالهى ، وهو ما سبق ذكره من قبل، جعل العلم شاملا لكل الموجودات ومتمثلا فى سائر الخلق ، وكأنه صورة نظرية لفكرة العناية الالهية التى هى واقعة عملية ، وان كان لا يوجد بالقياس الى ذات الله وأوصافه ما هو نظر أو عمل ، واذ أن صفاته تعالى كلها فاعلة وموجودة ومؤثرة ، نقول اذا كان العلم الالهى عند الترمذى شاملا لكل المعلومات ومتساوية فيما بينها بالقياس اليه ، فان فكرة النور الالهى نراها عند الترمذى وقد أخذت شكلا مخالفا الى حد ما عن شكل العلم الالهى عنده ، من حيث كونهما ، أى النور والعلم الالهيين ، يعبران عن العناية الالهية والمدد الربانى ٠

ولعل كلام الترمذى أجدى فى هذا المقام ، فهو يقول : (وجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم نورا من نوره ، فقد ذكر الرش لا الصب ، ولو صب لأطبق فعم الجميع ، وانما رش ليصيب بعضهم دون بعض ، وقد علم من يصيبه ٠ والرش هو المقادير صائرة، والرش قسمة بين العبد مقدرة (راجع النص ، الاشارة رقم ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١) ٠

ومن كلام الترمذى يمكننا أن نلاحظ أن النور الالهى الذى يخرج الأشياء من الظلمة الى النور ، وهى ظلمة الخلق الأول ، أن هذا النور مرادف للهداية الالهية والعناية الربانية ، كما يتضح أن الترمذى يرى أن لطف الله ورحمته وهدايته ، تختص ببعض المخلوقات دون البعض الآخر ، وكأنه أميل الى جعل العلم الالهى علما بالكليات وليس بالجزئيات ، اذ كيف يعلم الله تعالى الأشياء على نحو جزئى ، ويعرف ما هى فيه من ظلمة وظلام وضلال ، ويتركها دون أن ينشر عليها نوره وهدايته ورعايته ؟! هذا من جهة ٠

ومن جهة أخرى فاننا نلاحظ وجود تناقض فى آراء الترمذى بصدد هذه المسألة ، فضلا عن تناقضه مع ما تذكره العقيدة الاسلامية ، من أن الله سبحانه يعلم أصغر الأمور وأدق الأشياء وأقلها ، وأنه عز وجل لا يغرب عن علمه مثقال ذرة فى السماء أو فى الأرض ، ولعل تناقض الترمذى جاء من فهمه لكلمة (رش) وتفسيرها بأنها تفيد الخصوص والتخصيص ، لا العموم والتعميم على الخلق جميعا ، مثل الصب ، ألم يقل الترمذى أن استمرار الرش ودوام تدفقه من قبل الله سبحانه يمكن أن يعم سائر مخلوقاته ، بحيث يفعل مفعول الصب؟

ان الشمس ترسل أشعتها رشا وانتشارا لأشعتها وتفريعا لها فى جميع الاتجاهات ، وليس صبا ، ومن هنا تتعرض كل الأشياء الواقعة فى منطقة الأشعة لدفء الشمس وضوئها وحرارتها ، بصرف النظر عن القسم الآخر من الأرض والذى يكون فى ظلام نتيجة كروية الأرض ، ولا يكون مقابلا للشمس ٠

ولله تعالى المثل الأعلى حيث أن انتشار نوره لا يحجبه كوكب من الكواكب فيعم الجميع ، ومن هنا وسعت رحمته كل شيء ، ولا يؤوده حفظ السموات والأرض وما بينهما ، كما تمتد هدايته الى سائر الأشياء ، ويعم مدده ولطفه كل المخلوقات ٠ ولكن الأشياء ذاتها منها ما لا يكون مستعدا لتلقى وقبول ما يعرض عليه من رحمة وما يوجه اليه من حفظ ، وما يمتد اليه من مدد ولطف، وما يقدم اليه من هدى وعناية ، ولعجز أو نقص ، أو بسبب جحود ذاتى ٠

ولعل هذا هو ما قصده الرسول صلى الله عليه وسلم من عمومية النور الالهى واشتماله على سائر خلق الله ، صغيرهم وكبيرهم ، ظاهرهم وخفيهم بلا استثناء ٠

أما تفسير الترمذى فقد يكون مرتبطا بنظريته فى الولاية ، التى لا يصل اليها الا خاصة الخاصة ممن اجتباهم ربهم واصطفاهم وفضلهم على سائر عباده ، ومن ثم يمنحهم من نوره وفضله ما لم يتوفر لغيرهم ٠

ويتضح تناقض رأى الترمذى بصورة أقوى حين يذهب فى استطراده حول تفسيره الخاص لرش النور الالهى ، وفهمه الضيق لمعناه ، فيذكر أن

الرش هو المقادير ، وأنه قسمة مقدرة بين العبيد ، وكأنه يقضى على ما سبق أن أكده بخصوص العدل الالهى واشتماله على سائر المخلوقات · ولكننا نرى أن الأرزاق والآجال وان كانت مقدرة ومتفاوته بين الناس ، بحيث لا يتساوون فى أرزاقهم وأعمارهم ، الا أن هذا كله لا علاقة له بكون النور الالهى خاصا بأناس دون آخرين ، وهذا يؤذن باتجاه جبرى قدرى عند الترمذى ، على عكس ما لاحظناه عنده من قول بالاختيار والحرية ، فى مبحث العدل الالهى ، ولعل هذا الاضطراب فى الرأى من الترمذى ، وتأرجحه بين جبر واختيار ، راجع الى محاولة تفسير قول الله تعالى : **(يهدى الله لنوره من يشاء ···· ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)** (راجع سورة النور الآيات ٣٥ : ٤٠) ·

ثم يتحدث الترمذى فى موضع آخر عن النور الالهى بوصفه علة وسببا لحدوث كثير من الأشياء ، ولحصول بعض الأحوال عند بعض الناس الذين يمدهم الله من نوره ، وهو يتناول هذه الفكرة فى ثنايا حديثه عن صلاة الرب على عبيده ، وحين يقارن بينها وبين صلاة الملائكة على الناس ، فيقول : (فصلاة الملائكة أن يستغفروا لهم هذه العيوب ، وأما صلاة الرب سبحانه ، فيسد لهم نفسه من نفسه نور الفرقان ، حتى أوجب لهم ذلك ، حتى أخرجهم من الظلمات الى النور ، من ظلمات النفس الى نور الله ، وانما سمى نور الفرقان لأنه نور يفرق بين الحق والباطل ·· فاذا أخرجه الله تعالى من هذه الظلمات ، فانما يخرجه بصلاته عليه ، وايجابه له هذا النور ، واستغفرت له الملائكة لتلك العيوب ، حتى اذا ولج هذا النور القلب كانت العيوب قد سترها استغفار الملائكة ، ووافاه النور فوجد مكانا طاهرا مقدسا فأشرق واستقر ، وعندها استوى له الأمر ، فينال حال التقوى الظاهر والباطن ، فلمَ يعمل شيئا اذن له فيه الا على ذكر الله ، ونية وحسبة ، دق ذلك الشىء أوجل ، فأدرك القلب أسرع من اللمحة ، أو اللحظة ، بعظم ذلك النور حتى يترقى منها الى درجة تعظم أنواره حتى تصير الأشياء كلها له وبه ، وهم أهل القبضة ، فيه تنطق ، وبه تصمت ، وبه تسمع ، وبه تبصر ، وبه تمشى ، وبه تبطش ، وبه تعقل (النص ، الاشارات رقم ٣١١ الى ٣٢١ مواضع منتقاه من النص) ولعل مقصدر الترمذى ينحصر فى جعل التقوى الصادقة تصل بصاحبها فى ادراكه بقلبه الى مكانة يرى فيها الأشياء كلها معلولة وناتجة عن النور الالهى، كما أنها تسعى اليه أيضا وتبتغية وكأن النور الالهى هو العلة الفاعلة والعلة الغائية فى آن واحد ومن جهة واحدة ·

الحرية عند الترمذى :

أشار الترمذى الى الحرية الحقيقية وأنها نتيجة حتمية للعبودية الصادقة لله سبحانه ، وبين أنهما يتناسبان تناسبا طرديا ، وموضوع الحرية عنده تغلغل فى ثنايا كثير من المواضع فى تصنيفاته، الا أننا سنورد هنا نموذجا مما أورده عن الحرية فى كتابه موضوع الدراسة والتحقيق وهو (علم الأوليـــاء) وذلك النموذج يتمثل فى قول الترمذى : (والأحرار الكرام هم من بذل نفسه لله تعالى عبودة ، ولم يلتفت اليها ، ولا لحظ الى تحقيق بذله ، واللئام عبيـد النفوس تلفظوا بالشفاه مقالا على الألسنة يتلذذون به ، ويشمون القلوب رائحة منطقهم ، ثم تبادر قلوبهم الى شهوات أنفسهم فتطمئن اليها وحدها ، فحرام على هؤلاء أن ينالوا حكمة الله العليا ، وأن يمشوا فى نور الوحدانية ، ويصلوا الى وجهه الكريم فى مجالينا الخاصة (راجع النص ، الاشارة رقم ٨٠:٨٤)

ولعلنا نلاحظ المقارنة الطريفة التى عقدها الترمذى بين هذين النوعين من البشر ، أو بين درجتين من درجات المؤمنين ، بحسب التضحية بالنفس وبذلها من أجل مرضاة الله ، وهؤلاء الذين يؤثرون الآخرين ويفضلونهم على أنفسهم، وهم من قال فيهم الله سبحانه : **(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)** (سورة الحشر ، آية ٩) ٠ أو بحسب الأثرة الذاتية وحب النفس ، والتمركز حول انا وحدها ، وهو ما قصده الترمذى بعبادة النفس ، وهم من قال فيهم القرآن الكريم : (**أفرأيتم من اتخذ الهه هواه ، وأضله الله على علم**) (سورة الجاثية ، آية ٢٣) ٠

ان الفئة الأولى تتجاوز ذاتها وتفنى فى العبادة والعبودية للمعبـــود الأوحد ، وأولئك هم عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هـــونا ، اذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ٠

والفئة الثانية تؤكد أولا بأول على ذاتيتها المفرطة ، ولا تتخطاها بأى صورة من الصور ، لدرجة أن منطقهم الحقيقى الذى يخضعون له ويسيرون به هو ما تنطق به شفاههم وألسنتهم ، وهو الذى يتلذذون به وحده ، بل ان قلوبهم الضعيفة تبادر الى تصديق هذا المنطق الغريب ومتابعته ، وهو منطق الشهوات الحسية واللذات الجسدية اذا جاز لنا أن نستخدم كلمة منطق هنا

بمعنى مخالف لما جرت العادة على استخدامها فيه ، وهو مجال عقلى خالص ٠

وهذه الفئة الأخيرة يرى الترمذى ضرورة حرمانها من الحصول على الحكمة الالهية العليا ، بل يرى حرمانها من نور الهداية الالهية ، ومن العناية واللطف الربانيين ، كما يحرم عليهم امكانية الحصول على المعرفة الحقيقية للذات الإلهية ، لأن زادهم وعتادهم وكل عدتهم لا تؤهلهم لمثل هذه المرتبة الرفيعة ٠

ومن ثم فان الله سبحانه يذكر أن حكمته لا يهبها الا لمن يستحقها من خلقه ، وأن علمه تعالى لا يمنحة الا لمن يؤهل نفسه ويعدها لذلك المستوى من المنن الالهية والعطايا الربانية ، وذلك هو مضمون قوله تعالى : (**يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا**) (سورة البقرة / ٢٦٩)

ولعل الترمذى قد أراد بالأحرار الكرام ، أنهم أحرار لأنهم لم يظلوا عبيدا الا لله وحده ، وليس لأنفسهم أو لذواتهم أو لأبدانهم ، وفى هذا تتحقق الحرية فى أدق معانيها وأقواها وأنقاها ، ثم ان هؤلاء الى جانب كونهم أحرارا ، هم أيضا كرام لأنهم يبذلون كل ما عندهم من غال أو نفيس أو رخيص ، حتى أنفسهم ذاتها ، من أجل مرضاة الله وحده ، وابتغاء وجهه الكريم ٠

ولسنا بحاجة الى الاشارة الى موضوع الحرية العابدة ، أو العبودية الحرة ، الذى عرضناه هنا يلتقى مع الموضوع الذى سبق عرضه وهو الفلسفة الخلقية عند الترمذى خاصة ما يتصل منها بتطهير النفس واماتة الذات اماتة صناعية ، اذ لاحظنا هنا أن هذه الأحوال بمثابة المقدمات الضرورية لتحقيق العبودية الخالصة لله ، ومن ثم البذل والكرم ، ثم الحرية الحقيقية ، لكن يصير صاحب هذه الأفعال والأحوال من الذين سماهم الترمذى باحرار الكرام ، وليس العبيد اللئام ٠

العقل عند الترمذى :

اذ كان الترمذى رأى أن القلب وملكاته هو القوة المهيأة لتأدية الوظائف

العليا ، ورأى أن النفس وآلاتها وجوارحها هى القوة المهيأة لتأدية الوظائف الدنيا ، فانه رأى أن الله تعالى قد اختص بعض عباده فأمده بقوة أخرى هى نور التوحيد ومعه نور عقل الايمان ، ليرى الفؤاد فى ضوئهما الأمور ، فبنور الايمان يرى أمور الدنيا والآخرة ، وبنور العقل يدرك الحسن والقبح ، كما تتميز العلوم التى أعطيت للذهن جملة ، وبتمييزها تتشعب وتصبح معرفة ٠

ويصح هنا أن نتذكر ما للعقل من شأن عظيم عند الترمذى الحكيم ، فهو أحسن الخلق وأزينه ، ألبسه الله أحسن الألبسة وأشرفها ، وحشاه بأنوار الوحدانية والفردية والكبرياء ، وكساه بكساء من نور الجمال ، ونور الجهاد ونور الجمال ونور السناء ونور الحسن ونور العظمة ونور الهيبة ، وهذا العقل هو عقل الايمان ، ويكون للمؤمنين الموحدين ، وهو غير عقل الفطرة الذى يكون لعامة الآدميين (راجع نوادر الأصول ص ٢٣٩) ٠

والترمذى يعقب على العلاقة بين العقل والمعرفة بقوله : (وأوفر العباد حظا من كنوز المعرفة أوفرهم عقلا ، وبالعقل يطالع العبد كنوز المعرفة) (راجع كتاب الصلاة ومقاصدها للترمذى ص ٥٩) ٠

ويتحدث الترمذى عن العقل الانسانى مقسما اياه الى قسمين من حيث وظيفته وتأثيره ، ثم يقسمه الى نوعين أو درجتين من حيث دوره فى تحصيل المعرفة ، ويبدو من حديث الترمذى عن العقل أنه وضع التقسيم الشائع للعقل من بعد الى عقل تجريبى وعقل نظرى طبيعى ٠

واذا كان ديكارت قد قال بأن العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس ، فان الترمذى من قبل كان يرى أن الناس يتفاوتون فيما بينهم بقدر حظوظهم من العقل ، وأن هذه الحظوظ تتفاوت بحسب قربهم أو بعدهم من الله تعالى ، ومن هنا فانه يقول : (العقول مواهب الله سبحانه وتعالى ، والطاعات مكاسب العباد ، ولا تنال المكاسب الا بالمواهب ، والعقل أجـــزاؤه من عدد الرمل والثرى ، يعطى الله لجميعهم على قدر مراتبهم ، فمن كان من الله تعالى أقرب كان حظه من العقل أوفر ٠ (راجع معرفة الأسرار للترمذى ص ٣٨) ٠

والترمذى جعل أحد قسمى العقل خاصا بأمور الدنيا بما يؤهل الانسان

لأمور الآخرة ، والقسم الثانى جعله خاصا بالتجرد عن كل أحوال الدنيا وترقب الألطاف الالهية وانتظار فضله تعالى ، وهو عن القسمين يقول : (والعقل على قسمين أحدهما القصد به ازالة الحمق وفعله حسن التدبير فى أمر الدنيا والاقبال على أمور الآخرة • والثانى عقل الكرامة الذى هو ينفعل كله بالتوفيق مع رؤية المنة والتبرىء عن نفسه ـ ص ٣٩ نفس المصدر السابق) •

ومن الواضح أن هذين القسمين للعقل ليسا تقسيما للعقل الانســـانى بوصفه عقلا واحدا ذا وظيفتين أو مستويين ، ولكنه تقسيم نوعى للعقـــل الانسانى ، وكأن الناس يحصل بعضهم على القسم الأول ، والبعض الآخر منهم يحصل على القسم الثانى ، الذى سماه عقل الكرامة ، وان كان عقـــل الكرامة هذا يمكن اعتباره ارتقاء وعلوا بالفعل الدنيوى ، وهذا الارتقاء ، لا يتيسر لكل الناس ، خاصة وأن الترمذى رأى أن العقول مواهب الهية ومن هنا يتفاوتون فيما بينهم بحسب تفاوت مواهب الله وعطاياه لهم •

وفى موضع آخر يتناول الترمذى تقسيم العقل تقسيما مكانيا وعضويا ، ثم يحدد لكل قسم وظيفته فيقول : (ثم العقل عقلان ، عقل الحجة وموضعه الدماغ وشعاعه الى القلب ، وعقل الكرامة ومستقره فى الغيب ، ونوره وسلطانه فى القلب ، ثم هو نوعان ، عقل طبيعة وعقل تجربة ، وكلاهما يؤدى الى المنفعة ، كما قال القائل : فعقل هو مطبوع ، وعقل هو موضوع ، ولا ينفع مصنوع اذا لم يك مطبوع ، كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع (راجع معرفة الأسرار ص ٦٥) • وواضح أن عقل الطبيعة هذا هو العقل الانســـانى الفطرى الذى خلق كما يقال صفحة بيضاء ، ثم تتكون فيه المعلومات والخبرات بالممارسة والاكتساب ومن هنا يصبح عقل تجربة كما سماه الترمذى ، وهو أقرب الى العقل المستفاد كما كان يسميه الكندى متأثرا بأرسطو فى تقسيمه للعقل الانسانى ، ولعل عقل الطبيعة عند الترمذى هو العقل بالقوة عند الكندى وأرسطو من قبل •

ثم يشير الترمذى الى معنى العقل لغويا ثم يشير الى دوره فى حيـــاة الانسان المؤمن ، وتكامله مع قلب هذا المؤمن ، وذلك فى قوله : (العقل عقل النفس عن الهوى ، وفعله حسن التمييز ، وضده الهوى ، وهو علاقة القلب ، اذا تعلق به يوصله الى الله تعالى ـ راجع نفس المصدر والصفحة) •

والترمذى يقارن بين عقل الطبيعة وعقل التجربة ، فى مفاضلة بين العقل والايمان ، وكأنه أراد بعقل الطبيعة عقل الفطرة دون خبرات ودون ايمان ، بل انه فى مفاضلته ، أشار الى تفاوت درجات الايمان ذاته جاعلا ركيزة الايمان هى العقل ، فيقول فى نص واضح : (فالعقل جليل ، وأجل منه الايمان ، وأجل من الايمان الصديقية ، لأنه لا يكون صديقا الا معه العقل والايمان ، والصديقية بداية النبوة ، وصديقية النبوة غير صديقية الأمة ، وأجل من الصديقية الحديث والحديث وسط النبوة ، ونهاية النبوة - راجع نفس المصدر ص ٦٦) ٠

وغاية العقل وهدفه هو الحصول على اليقين ، وهذا اليقين لا يصل اليه الا بالعلم والمعرفة ، ولكن العلم الحاصل بالعقل يختلف من حيث نوعه ودرجة يقينه عن العلم الحاصل بالقلب ، ومن هنا فاننا نجد الترمذى حين أشار فى كتابه علم الأولياء الى أن الأسماء الالهية الحسنى هى أصل كل علم ومصدر كل معرفة ، أشار كذلك الى ضرورة أن يعلم الانسان ما يلزم عن المعرفة بهذه الأسماء وأن يعمل بهذا العلم كرد فعل واستجابة لعلمه ، وهذه الاستجابة تتمثل فى الرجاء والأمل والاستغناء عن كل ما سواه تعالى والاستسلام له وحده ، ومن هنا يشير الترمذى الى سكينة العقل والقلب بعد فهم وادراك حقيقة الأسماء الحسنى ومعانيها الباطنة ، ومن ذلك قول الترمذى : (وكما نطق بأنه صمد لم يقصد بقلبه فى حاجته الى سواه ، وكما نطق بأنه مجيب دعاه فأحسن به الظن ، وكما نطق بأنه قريب لم يضق فى نوائبه ولم يفزع الا اليه ، وكما نطق بأنه عزيز لم يخف موت الأشياء التى ضمنها له من الرزق والحفظ والتأييد والنصر ، وكما نطق بأنه حليم ورحمن ورحيم لم يقنط من رحمته ، كما نطق بأنه قادر قوى سكن لوعده واطمأن واستراح من ظلمة الهوى ووسوسة العجائب التى تورد على القلب ، فليس من أحد علم ذلك كله حتى سكن فى قلبه ، الا هاب الله عز وجل ، واقشعر جلده من خشية الله ، وخرس لسانه من غير عى ولا بكم ، وسكن قلبه عن الاضطراب ، وخرج من ظلمات النفس الى النور الأعظم واستوجب دخول الجنة بلا حساب ، لأنه قد ذاق الخوف والحياء من ربه فى دار الدنيا (راجع النص ، الاشارة رقم ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣) ٠

ولعلنا نلاحظ كيف أن الترمذى قد أكد على وجود السكينة وحلولها فى قلب من يعلم علم اليقين ، وهو العلم بأسماء الله الحسنى ، وأضاف أنه على

الانسان أن لا يكتفى من العلم النظرى بمجرد الحصول على مبدأ أو قاعدة من القواعد الأخلاقية أو المبادىء الاجتماعية مثلا ، بل لابد أيضا أن يتبع ذلك بالسلوك العملى المتناسب مع تلك القاعدة ، والمنسجم مع هذا المبدأ ، وهنا يمكن أن يهدأ عقل من يعلم مثل ذلك ويطمئن فؤاده ويسكن قلبه ، وهذا ما يقربنا من تعريف اليقين عند مفكرى الاسلام ، وهو أنه المعرفة التى يطمئن لها قلب العارف وتستقر بها نفسه وتهدأ ، بل ويسكن كله ، وكأنما دوام سعى النفس الى المعرفة يؤكد أنها لم تحصل بعد على اليقين المطلوب والذى تبحث عنه ، ويسبب قلقها وتوترها لعدم الوصول اليه ، وحينما تصل اليه وتحصل عليه تهدأ وتستقر وتسكن ، وهنا يقال يقنت النفس وأيقنت ، أى هدأت وسكنت لأنها حصلت على اليقين الذى كانت دائبة السعى اليه ، وهـذا هو تعريف الترمذى لليقين ، وأن : (بدايته استقرار القلب على الله تعالى ، وعلى قوله، وفعله اشتغال القلب بالكلية بالله ، وفعله الاخلاص وضده الشرك (راجع معرفة الأسرار ص ٧١) ٠

العلم عند الترمذى :

اذا تأملنا فى آراء الترمذى فيما يتصل بالعلم ، وجدنا أن هذه الآراء منتشرة فى كثير من مصنفاته ، وان أفرد للعلم كتابا سماه (بيان العلم ، أو أنواع العلم) كما أن الكتاب الذى نقدمه للتحقيق ، وهو علم الأولياء يعد كتابا فى العلم وهو وان كان فى أخص خصائص هذا العلم وأدق مستوياته الا أن الترمذى أشار فيه فى أكثر من موضع الى قسمة العلوم وأنواعها ومراتبها وخصائص كل منها ٠

ولقد تأرجح تقسيم العلم عند الترمذى بين القسمة الثلاثية والقسمة الثنائية ، ومثال القسمة الثنائية للعلم قوله : (العلم على وجهين ، علم مجان وعلم بثمن ، فالعلم الظاهر مجان ، والعلم الباطن من طريق الاصابة لا يدرك الا بثمن ، وثمنه اصابة الصدق بالسعى القوى ، وطريقه على العلم المجان كالايمان ، انما يعطى مجانا من المعرفة والتوحيد - راجع النص ، الاشارة رقم ٧٥) ولعل الترمذى قصد بالعلم المجان ذلك النوع من المعارف الفطرية التى تعرفها النفس دون مشقة البحث وعناء الاطلاع والتعلم ٠ أما العلم بثمن فعله قصد به ذلك العلم الذى يحصل لطالبه بالاكتساب والدرس والمجاهدة

والمشقة ودوام السعى والطلب المستمر ، وكأن العلم المجانى فطرى والهامى ولدنى من عند الله ، والآخر على عكسه من حيث المصدر وكيفية الحصول ، بصرف النظر عن قيمة ونوعية هذين العلمين ، وان كان الترمذى جعل أحدهما مرادفا للعلم الظاهر والآخر مرادفا للعلم الباطن ، وجعل الايمان هو العلم الظاهر وهو المجان ، أما اصابة الصدق والحصول على الحق فيحتـــاج الى كثير عناء ومشقة لأن الحق والصدق لا يظهران بسهولة لطالبهما ، وهما يختفيان خلف الظواهر الخارجية ، ومن هنا كان العلم بهما علما باطنا ٠

أما القسمة الثلاثية للعلم فقد تناولها الترمذى فى قوله : (فالعلم ثلاثة أنواع ، علم بالله ، وعلم بتدبر الله تعالى وربوبيته ، وعلم بأمر الله تعالى ٠٠ وانما صيرناه ثلاثة أنواع اذ أردنا أن يتميز عند من لا يعقل علم الله تعالى من تدبيره ، لأن علم التدبير للعباد هو داخل فى باب العبودة ، وعلم الله هو الثناء الذى يظهر على الألسن من بساتين القلوب ، وأن الله تعالى خلق كل شىء وجعل فيه الحياة ، فأعطاه العلم به فأفضاهم الى القنوت ، والقنوت هو الركود بين يديه ، كل فى مقامه الذى أقامه فيه ، ثم جعلهم أهل صفوته ، وخاص أهـل قربته ، ليكون متقلبه فى كل أمر الى الله تعالى ، ولله تعالى - راجع النص ، الاشارة رقم ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤) ٠

وواضح أن هذه الأنواع الثلاثة من أنواع العلوم متصلة بالله وعبادته ومعرفته ٠ وفى موضع آخر يتناول الترمذى هذا التقسيم الثلاثى بصورة أوضح ، وان كانت كل الأقسام متصلة بالعلوم الدينية العقائدية ، ولا مجال للعلوم الدنيوية ، وهو فى ذلك يقول : (فالعلم عندنا ثلاثة أنواع ، نوع منها الحلال والحرام ، ونوع ثان الحكمة ، ونوع ثالث المعرفة ، وما وراء ذلك محجوب عن الخلق - راجع رسالة الترمذى فى أنواع العلوم ص ٢٧ وقارن نفس هذا التقسيم الثلاثى بنفس الألفاظ فى كتابه الأكياس والمغترون ص ١٣٨، وانزاد فيه القول بأن النوع الثالثوهو علم المعرفةهو الحكمة العليا، ثم يشير الى نفس التقسيم الثلاثى الذى وجدناه فى (علم الأولياء) مع اختـــلاف طفيف وذلك فى قوله : (والعلم ثلاثة أنواع ، نوع منه علم الله وعلم أسمائه ، والنوع الثانى علم التدبير ، والثالث علم أمره ونهيه ، راجع الأكياس والمغترون ص ١٣٤) ٠ ومن الواضح أن الترمذى جعل علم الحلال والحرام أو علم أوامر

الله ونواهيه ، علما عاما لكل المسلمين ، ولعله قصد به علم الفروع ، وهو علم الفقه بما فيه من عبادات ومعاملات ٠

أما النوعان الآخران من العلم ، وهما الحكمة أى علم التدبير ، وحكمة الحكم أو الحكمة العليا ، أى العلم بالله وبأسمائه تعـــالى فجعلهما علمين خاصين بأولياء الله ، لكل منهم من العلمين بحسب قدره ومكانه ومقامه الذى وصل اليه ٠

ورغم اختلاف التقسيم الثنائى عن التقسيم الثلاثى الا أننا نستطيع أن نرد هذا الى ذاك ، بحيث يكون علم الظاهر علم الحلال والحرام لأنه يتناول الشريعة من الظاهر والخارج دون التعمق فى باطنها واستكناه ما بداخلها ٠

كما يكون علم الباطن هو الحكمة بشقيها ، حكمة فى العلم بالله وهى العليا ، وحكمة فى العلم بأمور الله وصنعته وتدبيره ٠ ولذلك نجد الترمذى يفرق بين العلم والحكمة فى قوله : (والحكمة حكمتان ، كما أن العلم علمان ، علم بالله ، وعلم بأمر الله ، ولكل علم حكمة ، والعلم ما ظهر منه ، والحكمة ما بطن منه ، وكما أن العلم علمان ، فكذلك الحكمة حكمتان : حكمة فى العلم به وهى الحكمة العليا وحكمة فى العلم بأموره وتدبيره وصنعته ـ راجـــع شفاء العلل ص ٦ /٧) ٠

ولعله قد اتضح لنا أن معنى العلم عند الترمذى هو معرفة ظواهر الأشياء والموجودات ، أما الحكمة فهى العلم بجواهرها وحقائقها الداخلية ٠ هذا مع ملاحظة أنه ربما يستخدم أحد الاسمين مكان الآخر ، ولكن الحكم على المعنى المقصود للاسم المستخدم يكون من السياق والمضمون الذى يعبر عنه ، وذلك واضح فى تسمية الكتاب الذى تقدم لتحقيقه (علم الأولياء) ولم يسمه (حكمة الأولياء) مع أن كل مضمون الكتاب يدور حول النوع الثانى من العلم أعنى الحكمة ، بل فى بعض جوانبه يدور حول الحكمة العليا ، أو حكمة الحكم ، اذا شئنا استخدام ألفاظ الترمذى ٠

ومن أهم السمات التى تميز الحكمة عن العلم ، أو تفصل بين العـــلم والمعرفة ، هى وسيلة الحصول فى الانسان العالم أو العارف ، فالعلم يحصل

بالتعلم والجد والاكتساب ، بينما الحكمة فيحصلها الانسان بالفضل الالهى والمدد الربانى ، وهى أبعد ما تكون عن الاكتساب ، ولذلك فهى أقرب الى العلم اللونى الذى يحصل بالالهام لا بالممارسة والاطلاع ٠

ولقد ذهب الكندى الى نفس هذا الرأى الذى قال به الترمذى ، حين فرق بين علوم الفلاسفة وأصحاب النظر العادى ، وبين علوم الأنبياء والرسل من حيث كيفية حصول كل منهما ، ومن حيث الوقت اللازم لحصولهما ، وانتهى الكندى الى القول بالتعلم والاكتساب والدراسة ، ومن ثم الافتقار الى مدة زمنية لتزداد وتتطور ، وذلك بالنسبة للنوع الأول ، أى علوم الفلاسفة وأصحاب النظر العقلى ، كما انتهى الى أن علوم الأنبياء والرسل تحصل بالالهام والمدد الالهى ، وأنها تأتى دفعة واحدة ولا تحتاج الى مدة زمنية لتلقيها والحصـــول عليها ، وهى لا تتغير أو تتطور ولكنها ثابتة لأنها يقينية يقينا تاما منذ البدء بحسب مصدرها وهو الله تعالى ، (راجع ذلك فى كتابنا عن فلسفة الاسلاميين ص ٦٠ / ٦٢) ٠ ولعل فكرة الالهام أو الكسب التى توجد كل منهما مع نوع من نوعى العلوم والحكمة ، وهى ما جعلت الترمذى يتحدث عما سماه العلم بالمجان والعلم بالثمن ٠

والترمذى يرجع أفضلية العلماء فيما بينهم الى ما يصلون اليه من علم، بل ويرجع هذا التفضيل الى الله سبحانه الذى فاضل بين العلماء ، وذلك فى قوله : (والله فضل العلماء بهذا العلم ، فمن رعاه حق رعايته آتاه ظاهر العلم وباطنه فظاهره على اللسان وهو حجة الله على خلقه ، وباطنه فى القلوب ، فذلك العلم النافع ـ راجع اثبات العلل ص ٣٥) ٠

ويلاحظ هنا تفسير الترمذى لتفضيل الله للعلماء ، وكيف أنهم ورثة الأنبياء ، وأن مرجع ذلك لا الى العلم الظاهر أو علم الحلال والحرام ، ولا الى العلوم الانسانية الدنيوية ، بل يرجع الى مكانتهم التى احتلوها بتمكنهم من العلم الباطن وهو علم يبطن فى القلوب ، ولذلك يعد هو حجة الله على خلقه حتى وان ظهر على اللسان ، ومن هنا كان هذا العلم وحده هو العلم النافع ٠

ولكننا اذا تساءلنا عن كيفية حدوث هذا العلم الباطن للانسان ، وجدنا الترمذى يوضح ذلك بأن الحكمة لا تدرك بالتعلم لأنها من المنة ، فمن أراد أن

يمن الله عليه طهر مكانه ، ثم تضرع الى الله ،ولكن كيف يطهر الله مكان الحكمة التى يمن بها على الانسان ويهبها اياه ؟؟ · يجيب الترمذى عن ذلك بقوله : (يترك مشيئاته أجمع فى الأمور كلها لمشيئة الله عز وجل ، ويراقب ماذا يبدو له من مشيئة الله فى الأمور كلها ، فيتلقاها بالتعظيم فيتقبلها ، فهذا عبد قد جمع التقوى والزهد والعبودة ، وحق ايمانه واسلامه ، فاستحق البر واللطف من مولاه فمن عليه بالحكمة ، وأوصله بذلك النور الى معدن التدبير يوم المقادير - راجع الفروق ومنع الترادف للترمذى ص ٩٧) ·

وهنا يمكننا أن نصل الى مرتبة الحكمة عند الترمذى ، ووظيفة كل مرتبة وطبيعتها ، فالترمذى قسم الحكمة أيضا قسمة ثلاثية هى : (حكمة تتولد من كثرة التجارب ، وحكمة تتولد من صفاء المعاملة ، وهذه تدلك على الآخرة، وحكمة تتولد من القرب والمشاهدة ، وأنها الحق لأهلها ، وهذه الحكمة تدلك على التقرب ووجود الصفات بقربه الحق ، وهى أعلاها وأجلها · والتى تتولد من التجربة تدلك على مصالح الدنيا وهى أدناها ، والثانية على الآخرة ، والثالثة على الجور والحق ، « ان الله هو الحق المبين - النور / ٢٥ » - راجع معرفة الأسرار ص ٨٤) ·

ولعل هذه المراتب الثلاث هى تقريبا أقسام العلم الثلاثة عند الترمذى ، اذ أن من الحكمة ما يتصل بالدنيا ومنها ما يتصل بالآخرة ، ومنها ما يتصل بالحق ذاته أى الله سبحانه ، كما أن العلم منه ما يتصل بالحلال والحرام وهذا خاص بالدنيا وينفع فى الآخرة ، ومنه ما يتصل بالله وأسمائه ، وذلك هو الحق المبين ·

كما أن من مراتب الحكمة ما يحدث بالاكتساب والمجاهدة والتجارب ، وهذا ما يتصل بالدنيا وهو أقل المراتب ، ومنها ما يحصل بالقرب والمشاهدة وهى المتصلة بالحق وهى الحكمة العليا ، أو حكمة الحكم على حد عبارة الترمذى ، وهى أيضا العلم الباطن الذى يقول عنه الترمذى أنه : (هو ما يتولد من صفاء المعاملة مع الله ، وهو أن يوافق الله تعالى فى اختياره ، فيعوضه الله نورا يرى به بعض سر الله تعالى، وبعض سر خلقه، ويرد الى قلبه، كما يقع من غير تكلف - راجع معرفة الأسرار ص ٨٢) وكأن الترمذى يرى أن علم الباطن يحصل للعبد من اطلاعه على أسرار الله تعالى وأسرار خلقه ، ولا يتمكن العبد

من ذلك الا باماتته لنفسه ، كما يرى أن معاملة هذا العالم مع الله تكون فى ثلاث مستويات ، وهى الموافقة وتلك من كشف القدرة ، والهيبة أى تعظيم الله واجلاله ، والأنس بالله من خلال لطائفه تعالى وكرمه وتفضله على عبده ٠

ولقد ذكر الله تعالى علم الباطن فى كتابه الكريم فى قصة موسى عليه السلام ، ومن ذلك قوله : (**وعلمناه من لدنا علما**) سورة الكهف / ٦٥ ، وقوله : (**هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا**) الكهف / ٦٦ ٠

وحين يتناول الترمذى علوم الصوفية ومعارفهم يقسمها أيضا الى ثلاثة أنواع ، وبناها على ثلاثة أصول ، وفيها يقول : (اعلم بأن علومهم مبنية على أصول ثلاثة ، علم العبودية ، وعلم الحرية ، وعلم الربوبية ، أما علم العبودية فعلى ترك التملك والاضطراب ، وأما علم الحرية فنسيان لأحوال السمع والافتخار ، وأما علم الربوبية فعلى المشيئة والاقتدار ٠ ثم ما يبدو لأهل المعرفة فى ابتداء بوادى المعرفة ، وابتداء المعرفة الوله والتحير ، ووسطه اللذة ، وآخره الفناء والحيرة ٠ اما فناؤه عن غير الحق ، واما حيره نفى الوجد ـ راجع معرفة الأسرار ص ٨٧) ٠

وهناك تشابه تام ، بل وربما تطابق بين القسمة الثلاثية للعلم عند الترمذى وعند الحارث المحاسبى الذى سبقه الى هذا التقسيم فى كتاب له اسمه (كتاب العلم) ومن المعروف أن المحاسبى أسبق من الترمذى ، حيث ولد سنة ١٦٥ هـ وتوفى سنة ٢٤٣ هـ ، فى حين أن الترمذى ولد سنة ٢٠٥ هـ وتوفى سنة ٣٢٠ هـ ، وهذا الفارق الزمنى بين وفاة المحاسبى وميلاد الترمذى، وهو حوالى ثمان وثلاثون سنة تمثل قمة نضوج الترمذى الا أنها لا تكفى شاهدا على أن الترمذى وصل الى تقسيماته فى الحكمة والعلم قبل المحاسبى، خاصة وأن سنوات تأليف كتب هؤلاء جميعا لم تكن محددة تحديدا دقيقا ٠

والمحاسبى يتحدث عن العلم ويقسمه الى أنواع ثلاثة هى : (علم أحكام الدنيا وهو العلم الظاهر ، وعلم أحكام الآخرة وهو العلم الباطن ، وعلم أحكام الله فى خلقه فى الدارين ، أما الأول فهو فرض كفاية ، وأما الثانى فهو العبادة الباطنة مما يقوم بازاء الحلال من الأوصاف الحميدة ، ومما يقوم بازاء الحرام من الأوصاف الحميدة ، ومما يقوم بازاء الحرام من الأوصاف الرذيلة ، وهو علم لا يستغنى عنه أحد ، والعمل به فرض على كل أحد ، وأما

الثالث فهو بحر لا يدرك غوره ، وانما يعلمه العلماء من أهل الايمان) (راجع كتاب العلم للمحاسبى ص ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، مواضع منتقاة ـ تحقيق محمد العابد مزالى ، تونس سنة ١٩٧٥) ، وكأننا نجد المحاسبى يقسم العلوم الى علوم اجتماعية وعلوم نفسية وعلوم ميتافيزيقية ، أى أنه جمع فى تقسيمه بين العلوم الدنيوية والعلوم الدينية • فنجده وقد أطلق العلم على ما هو أبعد من حفظ ما جاء فى الكتاب والسنة ، فاذا أشبع قلب المؤمن من ذلك ، وغاص الى تبين المواقف ، وتفهم الأحكام ، عاد ذلك العلم سراجا يقود العقل فى أبحاثه ويحميه من الزلل والشبهات وهو فى ذلك يقول : (ان الله عز وجل جعل فيك غرائز ، فجعل فيك غريزة محبة ما وافقك وألذك ، وكراهة ما خالفك وآذاك، وجعل فيك غريزة العقل لما يحبه ، فقرن مع غريزة الحب للموافق والبغض للمخالف الشيطان •• وقرن مع العقل العلم بالكتاب والسنة ، فالعلم للعقل كالسراج للعين ، أو النور من الشمس ، أو غيرها للعين ، ص ٤٩ /٥٠ من كتاب الرعاية للمحاسبى) •

ويتفق الترمذى مع المحاسبى أيضا حول جعلهما معنى من معانى العلم مقدور المتعلم ومستطاعه ، وجعلهما معنى آخر من معانى العلم من مدركات أهل الصدق والاخلاص ، وهم خاصة الأولياء ، فانهما كذلك قد اتفقا حول المعنى الثالث للعلم ، وهو الذى يتجاوز قدرة البشر وأنه هبة الهية يمنحها لعباده الذين يصطفيهم ويجتبيهم •

والمحاسبى يمثل هذه المستويات الثلاث للعلم بقوله : (ان الباذر خرج ببذره وملأ منه كفه فبذر ، فوقع منه شىء على ظهر الطريق ، فلم يلبث أن انحط الطير عليه فاختطفه ، ووقع منه شىء على صفا ـ حجر أملس ـ عليه تراب يسير وندى قليل فنبت حتى اذا وصلت عروقه الى الصفا لم يجد مساغا ينفذ فيه فيبس ، ووقع منه شىء فى أرض طيبة فيها شوك نابت ، فنبت البذور ، فلما ارتفع خنقه الشوك فأفسده واختلط به ، ووقع منه شىء على أرض طيبة ليس على ظهر الطريق ولا على صفا ولا فيها شوك ، فنبت ونما وصلح) • (راجع للمحاسبى ص ٥٠ / ٥١) •

وفى موضع آخر يذهب المحاسبى مرددا قول وهب بن منبه + ١١٠ هـ ، الى أن العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا ، فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها ، فتزداد المرة مرارة ، وتزداد الحلوة حلاوة ، ويكثر

ماؤها بالحلاوة ، ويكثر ماء المرة بالمرارة ، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها ٠ ونحن نضيف الى ما قاله المحاسبى أن هذا العلم المكتسب قد يدركه النقصان ، ويتملكه الخذلان ، وييبس كما تيبس عروق الأشجار اذا هى لم تتداولها الأيدى بحضنها وسقيها وانمائها ، وكذلك فان العلم ينمو ويزكو اذا تعهده صاحبه بالعمل وخرج به من حيز العقل والذهن الى ميدان التطبيق ، فينشأ عن العلم علم آخر لا يدخل عليه الا من باب التنفيذ ولا يكتسب الا بالتجربة ٠

وهذا ما جعل المحاسبى يقول : (فاذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد الا بطاعة ربه ومولاه ، وأن الدليل على طاعة ربه ومولاه العلم ، ثم العمل بأمره ونهيه فى مواضعه وأسبابه وعلله - لأن الطاعة سبيل النجاة ، والعلم هو الدليل على السبيل ، فأصل الطاعة الورع ، وأصل الورع التقوى ، وأصل التقوى محاسبة النفس ، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء ٠٠ فاعرف نفسك ، فهواها قاهر لعقلك ، يغفل عقلك وهى لا تغفل ٠٠ ويذكر عقلك وهى تنازعك ألا يذكر ، فلا يحل لك قتلها ، ولا تقدر على مفارقتها ، وهى بهذه المنزلة من العداوة لك فاعرفها واحذرها ، فانك ان عرفتها ازددت منها حذرا ، وعلى ربك توكلا ، وبه ثقة ، واليه طمأنينة ، ولها بغضا ومقتا ، ولربك مودة وحبا ،ومنها يأسا وقنوطا ، ولربك رجاء وأملا ، ولله بالنعمة والمنة والتفضل بما عملت اعترافا واقرارا وشكرا ٠ راجع كتاب الرعاية ص ٥١ / ٥٢) ٠

وواضح أن المحاسبى ركز على محاسبة النفس ومعرفتها ومحاولة قهرها والتغلب عليها لأنها تنازع العقل وتعيق طريقه من أن يصل الى تحقيق هدفه وهو معرفة الحق ، بل ان المحاسبى جعل التوكل على الله والثقة به تعالى ، والاطمئنان اليه سبحانه ، وتعلق الرجاء والأمل به ، وتوجيه الشكر والحمد اليه ، كل ذلك مرتبطا بمدى قهر الانسان لنفسه ومفارقتها أو معاذلتها ، ومن هنا يمكننا القول أن المحاسبى جعل علم التدبير هو من أهم العلوم ، ولقد اتفق السهروردى معه فى أهمية هذا العلم ، الذى قصد به علم معرفة أخلاق النفس ورياضتها وتأديبها ، وهو فى ذلك يقول : (وعلم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها من أعز علوم القول ، وأقوم الناس بطريق المقربين ، والصوفية أقومهم بمعرفة النفس وعلم معرفة أقسام الدنيا ، ووجود دقائق الهوى وخفايا شهوات

النفس وشرها وشرها ، وعلم الضرورة ومطـــــالبة النفس بالوقوف على الضرورة قولا وفعلا - راجع عوارف المعارف للسهروردى ص ٢٦) ولعل هذا العلم ، أى التدبير ، هو ما كانت تسانده الملامتية وتدعوا الى ضرورة اتباعه، وهو الذى كان يدعو اليه الترمذى ويدعو الى تجاوزه وعدم التوقف عنده ، أى عند ابراز عيوب النفس ولومها فقط ، بل لابد من أن يستشرف الانسان ما هو أعلى وأفضل من بقية أنواع العلوم ومستوياتها ، حتى لا يتوقف عن مواصلة طريقه الى الله ، والترمذى فى دعوته الى هذا التجاوز لعلم تدبير النفس يقول: (فمزابل النفس فى صدورهم ، وعلائق الشيطان فى كلامهم ، تراهم الشهر والدهر فى كلام مسلسل لا ينقطع اذا ذكر العيب عابوه ، وذكروا عيب العيب ، وان لحظت كذا فعيب ، وان لم تلحظ فعيب ، فهذا متى ينقطع ؟! - راجع ختم الأولياء ص ٤١٨) . وهكذا يقرر الترمذى أن معرفة عيوب النفس علم جليل وله فائدة عظيمة ، ومن هنا كان هو علم الصديقين من الأولياء ، ولكنه هو الحكمة الظاهرة فقط ، فكان لا بد من الانصراف عنه الى المرحلة القصوى من الحكمة ، وهى الحكمة العليا التى فيها نجاة الانسان وحياته الحقيقية ، وقوته ومقدرته على مواصلة الطريق الى الله، وعن هذه الحكمة يقول الترمذى: (وانما العلم علم المنن ، ثم علم الصنع والتدبير ، ثم علم المقادير ، ثم عـلم البدء ، ثم علم الآلاء الذى بدأ مع المشيئة فى الأحدية والفردية ، فمن أخـذ برأس جبل كل نوع من هذه العلوم وقع فى بحر الله عز وجل ، فغرق فيه ، وأحياه الله به - راجع ختم الأولياء ص ٤١٩) .

ومن الواضح أن الترمذى ، فى ثنايا ابرازه لقيمة الحكمة العليا وأهميتها بوصفها حكمة الحكم بالقياس الى كل المعارف والعلوم ، يشير الى أنواع عديدة من العلوم التى تضمنها نص كلامه ، وأهمها هو العلم الذى به يحيا الانسان بل وتزداد حياته بوصفه يصبح بالحصول على الحكمة الدنيا فى قبضـــة الله ويصبح عبدا ربانيا ، ولذلك فان الترمذى فى موضع آخر يوضح رأيه فى الحكمة العليا ، وانما يظهر هذا العلم عند كبراء الأولياء ، ويقبله عنهم من له حظ من الولاية - راجع نفس المصدر ص ٣٦٢) .

مشكلة المعرفة عند الترمذى :

يشير الترمذى فى كتابه (معرفة الأسرار) فى الباب التاسع الى ما

يقتضى المعرفة ، ولعله يعنى بها دواعيها ومبرراتها ومقدماتها الضرورية ، فيقول انه : (الاستغناء والاكتفاء والاقتداء بالمعروف ، وللمعرفة تسعة وتسعين صفة ونعتا ، كل صفة ونعت يستقصى حالة من محاله ، يستقصى نسبة المعروف فى العارف فى المملكة بين يدى الخلق ، ويستقصى فى مشاهدة المعروف حكم الذى لم يلزم تلك الصفة ، وذلك النعت ، ان كانت المعرفة بصفة العظمة ، ويكون عظيما فى المملكة عند الخلق ، وقد ذكرت هذه المسألة شافيا فى كتاب (بيان المعرفة والصفاء بالله) راجع ص ٨٧ معرفة الأسرار · والى الآن وهذا الكتاب لا يعرف له مكان ، ولعله لو كشف أمكن أن يلقى ضوءا كبيرا على نظرية المعرفة عند الترمذى بوجه خاص ولعى نفس المشكلة فى نطـاق الصـوفية بوجه عام ·

والمعرفة عند الترمذى ليست هى المعرفة العادية ، أو المعرفة الفلسفية وبأى موضوع من الموضوعات ، ولكنها المعرفة بالله ، وهى معرفة ذوقية وكشفية ، بل انه يرى أنها معرفة فطرية ، حصلنا عليها تبعا لفطرة الله التى فطرنا عليها ، وهو فى ذلك يقول : (علم الآدميون كلهم أن لهم ربا والها ، فأقروا به ، وفزعوا اليه فى المضار والمنافع ، وعرفوه بقلوبهم ، وتلك المعرفة هى الفطرة التى فطر الناس عليها ، فعرفوا أن الله خالقهم ورازقهم ومدبرهم، وذلك قوله تعالى : « **قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السـمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله** » (سورة يونس / ٣١) · فانما قالوها من معرفة الفطرة - راجع ص ٨٧ مسألة فى الايمان والاسلام والاحسان للترمذى) ·

وتحليل الترمذى لذلك أن العبد الحقيقى يعلم أن الله خلقـه وأعطـاه الحواس الظاهرة والأدوات الباطنة ، ووضع فيه النزوات والأهواء والشهوات، ومنها شهوة الشرك والكفر ، وذلك جلبا للمنافع ودفعا للاضرار ، فاذا اجتباه الله للايمان ، طهر قلبه وباطنه بماء الرحمة ، ثم تدب فيه الحياة ، وعندئذ تبصر عينا القلب وتسمع أذناه ، فيجيئه نور الهداية ويعرف ربه بنور العقل ، فيستقر القلب ، ويطمئن عن الزود والجولان ، وتزول عنه دعوة الشرك ، والرجاء ·· فاعرف نفسك فهواها قاهر لعقلك ، يغفل عقلك وهى لا تغفل ، وان بقيت فيه بقية الشهوات ، ولذلك فان تعريف المؤمن الحقيقى ، تابع لتعريف الايمان الصادق بأنه التصديق الذى يستقر به القلب ويطمئن ولا يعود الى الحيرة والتردد بحثا عن رب يعبده ·

ونحن نرى أن العبادة لا تكون يقينية ولا حقيقية ولا صادقة الا اذا بنيت وأسست على معرفة بالمعبود ، وأن هناك تناسبا طرديا بين درجة عبادة العبد ومرتبتها ودرجة معرفته لربه وادراكه · ومن هنا يزداد التسليم والاستسلام بازدياد يقين المعرفة · وهنا نجد الترمذى ، فى مجال تفرقته بين الايمان والاسلام ، يقول : (فالايمان هو التصديق الذى يستقر به القلب ويطمئن ولا يعود الى التردد والجولان بحثا عن رب يعبده ، فذلك هو الايمان، ويكون العبد به مؤمنا ، الا أنه حين يطمئن قلبه ويستقر على التوحيد ، ويعترف بلا اله الا الله مع عقد قلبه على أنه ربه ، وهو له عبد ، يكون فى نفس هذا العقد قد أسلم نفسه بهذه العبودية لربه ، ليحكم فى أمره بما يشاء ، فينتهى الى جمع ما يأمره به، ويرضى بجميع ما يحكم به عليه انقيادا وطواعية، وذلك هو الاسلام ، ويكون العبد حينئذ مسلما (راجع ص ٨٩ المصدر السابق) ·

والترمذى حاول أن يزيد موضوع المعرفة بالله وضوحا ، فيرى أن القلب يستمر ويسكن فى ايمانه واسلامه بنوع من الطمأنينة هى طمأنينة التوحيد المحض ، بمعنى أن لا يلتفت الى شىء سوى الله يستحق أن يعبده أو يتخذه الها وربا · وعن طمأنينة التوحيد تنتج طمأنينة الاقبال ، وهى أن يقبل العبد على ربه بشغاف قلبه وجميعه ، فيتجاوز أحواله النفسية والشهوية ويطرحها جانبا وكأنها لا وجود لها ، وهنا يصبح المؤمن مؤمنا مكتملا راشدا ، أو على حد تعبير الحكيم (يكون الايمان قد بلغ) ويكون المؤمن هو البالغ الرشيد الذى ماتت شهوته وقطع قلبه عن كل شىء سواه ، وبين هذين الحدين درجات ، وكل يعمل على درجته ، فلفظ المؤمن كان يطلق فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على من كان بهذه الصفة ، أى المؤمن البالغ ، ويفهم من ذلك أن الله تعالى أثنى على ابراهيم خليله ، فقال : « **انه من عبادنا المؤمنين** » (الصافات / ١١١) وقد قيل انه اذا أثنى على عبد فأبلغ فى الثناء ، قال : انه من عبادنا المؤمنين ، ويفهم أيضا من وصفه تعالى للمؤمنين فى تنزيله ، كما فى قوله تعالى : « **انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** » (سورة الأنفال / ٢ : ٤) ولذلك كان أبو بكر رضى الله عنه يقول : وددت أنى شعرة فى صدر مؤمن ، ولعله يقصد المؤمن الذى وصفه الله بالصفات السابقة (راجع نوادر الاصول ص ٧٢ / ٧٣) ·

ومرة أخرى نؤكد على العلاقة المطردة بين زيادة الايمان ونقصانه وبين زيادة يقين المعرفة الالهية أو نقصانه أيضا ، ولعل المثال الذى ضربه الترمذى يوضح هذه القضية ، فهو يرى أن لفظ الشمس يطلق على عينها أى قرصها ، وعلى أشعتها الساقطة على الأرض، ومن المعروف أن قرصها لايزيد ولا ينقص، مع أنه هو الذى تصدر عنه الأشعة التى تزيد وتنقص على الأرض ، بحسب صفاء الأجواء ونقائها ، وتبعا لوجود سحب وغيوم فيها ، فالناقص هو سلطان الشمس فى الاشراق والاشعاع نتيجة العلل العدمية المانعة لها من اكتمال الاشراق وتمامه ، وهكذا الحال بالنسبة للايمان كأصل ، وهو طمأنينة التوحيد، لا يزيد ولا ينقص ، فى حين أن ما يتولد عنه من أنوار فى القلب وضياء فى الصور يزيد وينقص ٠ وأكثر من ذلك فان الترمذى يرجع نقص الزرع والثمار وزيادتهما ، ونمو ابن آدم وضموره ، وغير هذا من الكائنات الحية الطبيعية ، يرجعه الترمذى الى زيادة اشراق الشمس بما فيها من دفء وحرارة وضياء أو نقصانها ، وهى نظرة فلسفية طبيعية شبيهة بتلك التى لاحظناها عند الكندى المعاصر له ، وبما نلاحظه عند الفارابى وابن سينا وغيرهم من مفكرى الاسلام ٠

والترمذى ، تطبيقا لمثاله الذى أتى به على سبيل القياس والاستشهاد، يذهب الى القول بأن شمس الايمان فى القلب ، اذا حال دون اشراقها وشعاعها غيوم الهوى والشهوات ، دخل الوهن فى القلب وفى النفس والعمل ، واذا ذهبت غيوم الهوى والشهوة زاد اشراق الايمان فاستقر القلب ، وقويت النفس والعبودية ، فأهل الايمان متساوون فى أصل الايمان ، ولكنهم يتفاضلون ويتفاوتون درجة ورتبة فى مشاهداتهم ومعارفهم بناء على تفاوتهم فيما يتولد من أنوار الايمان وثمراته فى قلوبهم ـ (راجع : الأكياس والمغترون ص ٣٦)

وحين يتحدث الترمذى عن مصادر هذه المعرفة الالهية المرتبطة بالايمان، ويتناول كيفية حصول الانسان عليها ، نجده وقد رجع الى الأخبار المروية من الأثير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين تحدث عن بدء نشأة الخلق وكيفية ذلك ، وأثر هذه البداية فى حصول العلم والحكمة عندهم من بعد ذلك، والترمذى يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أنه قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الله خلق خلقه ثم جعلهم فى ظلمة ، ثم أخذ من نوره ما شاء فألقاه عليهم ، فأصاب النور من شاء

الله أن يصيبه ، وأخطأ من شاء الله أن يخطئه ، فمن أصابه النور يومئذ اهتدى، ومن أخطأ ضل) ٠

والترمذى يعقب على هذا الحديث تعليقا ضمنه كيفية خلق الخلق ، والمسألة من جانبه لا تتعدى التصور والتخمين ، وان كانت فى حدود الآثار والأخبار التى اطلع عليها ، ويرويها ، وهو يذهب الى أن الله خلق الخلق يوم المقادير كالنجوم الدرارى ، ثم سلبهم الضوء ووضعهم فى ترابية التربة التى أراد أن ينشىء منها آدم عليه السلام ، فلبثوا فى تلك الظلمة مقدار خمسين ألف سنة صاروا خلالها ثلاثة أصناف ، صنف منهم زعم أن الذى ملكهم لم يدم ملكه فعجز عنه ، وصنف قال ، تركنا ههنا فنحن ننتظر ما يكون وما يظهر لنا من أمره ، فالأول كفر ، والثانى نفاق وشك ، والصنف الثالث قال : تركنا ههنا وهو دائم ونحن له ، يجعلنا حيث يشاء ، وكان ذلك هو أول افتراق امتاز الناس به منذ البدء بين مؤمن وكافر ومنافق ، وليست الدنيا الا مظهرا لتصديق ذلك بالابتلاء الواقع فيها من الله ، ليظهر معدن كل من الخلق ، ويبرز بذلك عدله ، وتعلو حجته ، ولا يرى خلقه فعله فى عبادة الا حسنا جميلا ٠

والترمذى يرى أن الصنف الأول صارت كلمتهم ختما على قلوبهم ، وهو قول الله تعالى : « **ختم الله على قلوبهم** » (البقرة / ٧) فالختم غير مرفوع أبدا وهؤلاء هم الكافرون الذين على قلوبهم حجاب وغطاء لا يزول ولا يرتفع ٠

أما الصنف الثانى ، وهم المنافقون ، فلم تستقر قلوبهم ، لذلك صارت كلمتهم قفلا على قلوبهم ولم تصر ختما ، والقفل قد يرفع ويفتح ، أما الختم فلا يرفع أبدا ، وذلك فى قوله تعالى : « **أم على قلوب أقفالها** » (محمد / ٢٤)٠

أما الصنف الثالث وهم المؤمنون الذين قالوا ربنا الذى يملكنا دائما ويجعلنا حيث يشاء ، ان شاء جعلنا فى ظلمة ، وان شاء جعلنا فى نور ، ثم مدوا أيدى القلوب نحوه للتعليق به ، فضرب بيديه على قلوبهم ، وقال أنتم لى ، عملتم أو لم تعملوا ، فصارت هذه الكلمة مكتوبة على قلوبهم ، وذلك هو قول الله تعالى : « **أولئك كتب فى قلوبهم الايمان** » (المجادلة / ٢٢) فمن أصابته يده اليمنى فهم الأولياء ، ومن أصابته يده الأخرى فهم عامة الموحدين، فهذه كانت صفتهم فى البدء ، ولم يزل ينقلهم من حال الى حال ، الى أن نقلهم الطينة المعجونة ، طينة آدم عليه السلام (راجع نوادر الأصول ص ٤١٦ / ٤١٨) ٠

ويسرد الترمذى قصة خلق سيدنا آدم وكيف تم ذلك ، ليبرم علاقة ذلك بالنور الالهى الذى هو عامل أساسى فى القدرة على المعرفة وعلى العلم والحكمة ، وفى ذلك النور الالهى الذى بثه الله تعالى فى آدم عليه السلام ، يقول الترمذى : (لما أراد الله أن يخلق آدم عليه السلام ، جمع وجه أديم الأرض فى الموضع الذى أراد أن يتخذ منه البيت وهو الكعبة ، ثم رفع تربته منه وعجنها بماء الرحمة ، ثم جعل فيه نور المعرفة كالخميرة ، ثم خمرها ووضعها أربعين يوما حتى نشف فيها نور المعرفة ، وامتزج بها دماء الرحمة ، وخرج ما كان فى باطنها الى ظاهرها من النور والبهاء ، ثم فتح خزائن الصور ، فاختار أحسن الصور ، فرفع مثاله وصورته منها ، ثم رفعها فصور منهـا آدم عليه السلام ، على أحسن صورة ، ثم نفخ فيه من نور الحياة ، فلم تدب الروح فى جسد آدم عليه السلام ، ولم تمتلء عروقه منه حتى قذف الله فيه المعرفة ، وهو أصل النور الذى كان قد وضع آدم عليه السلام حيث خمر طينته به ، راجع غور الأمور ص ١١) .

والترمذى يشير الى أن الأرض التى أخذت منها طينة آدم كانت مسرحا لابليس ، ومن هنا كانت مواضع أقدامه الواقعة على ظاهر الأرض مصدر خبث ودنس ولذلك خلقت نفس الانسان الباطنة منه فكانت خبيثة خبث ابليس ، وكانت مساعدة الأول فى اغواء ابن آدم ، أما القلب الذى سيكون جل اهتمامه وشغله الشاغل معرفة الله والعلم به ، فقد خلقه الله من باطن الأرض مما لم تمسه قدم ابليس ، ومن هنا لم يتمكن الشيطان من الوصول الى قلب الانسان الا اذا جرى مع الدم ، ولذلك فالترمذى يتحدث عن القلب قائلا : (فالقلب مضغة خلقها الله من بطانة الأرض مما لم يمسه وطء ابليس ولا خطوته ، لأنه كان فى سابق علمه أنه معدن معرفته ، ومن ذلك لا يجد الشيطان عليه سبيلا ـ راجع غور الأمور ص ١٠) .

والترمذى يوضح فكرة نور المعرفة الذى بثه الله فى طينة آدم عند خلقه، ويشير الى أن هذا النور أصبح من بعد آدم متوارثا فى أولاده وحفدته، ومؤكدا أن ذلك النور حصل لكل بنى آدم منذ البدء ، ويعبر عن هذه الفكرة بقـــوله : (فلما أخرج ذريته منه نالهم ذلك النور الموضـــــوع فى أبيهم يوم التخمير بالحصص ، فذلك النور عام فى ذريته ، « **فطرة الله التى فطر الناس عليها** ـ الروم / ٣٠ » ـ راجع غور الأمور ص ١١) .

وهكذا فان المعرفة الالهية قوة فطرية كامنة فى كل بنى آدم تبعا لوضع كل عناصرها ومقدماتها فيهم منذ الفطرة ثم بالتوارث ، وكل ذلك بواسطة النور الالهى الأول .

ولكن هل يعنى ذلك أن هذا النور يظل كافيا وحده لارشاد العبد الى معـــرفة ربه ؟؟

واذا صح هذا فرضا ، فلماذا اختلف الناس فيما بينهم فى معرفتهم لله من حيث الدرجة ، فضلا عن أن منهم من لم يستطع أن يجد الى معرفته تعالى سبيلا ؟؟

والترمذى يحاول أن يوضح ذلك بقوله : (فمن كان فى سابق علمه أنه لا يؤمن لم تؤيده بالمعرفة ، ولم يمده بها ، وتركه على ذلك النور الذى جبل عليه أبوه آدم عليه السلام ، فلم يعرف ربه لأنه لم يقذف اليه المعــرفة ، ومن كان فى سابق علمه أنه يؤمن أمده بالمعرفة وقذفها اليه ، فالتقيا وتعارفا ، وسطع نوراهما الى الملك، فدلا صاحبهما على ربه ، فاتبع القلب وبصره الى ما سطع ، فوجدهما بين يدى الجليل فى نور القربة ، فعرف العبد ربه ـ راجع غور الأمور ص ١١) .

واذا كان النور الالهى هو المنبع الأول للمعرفة والباعث الأساسى عليها، فان هناك مصادر أخرى ولكنها انسانية ، أى ذاتية ، والترمذى يعرض لهذه المصادر الخاصة بالمعرفة ، أى وسائلها وأسبابها التى تتم بها عند الانسان حتى تنسب اليه ، ويكون فاعلا ومؤثرا وليس فقط قابلا وسالبا كمرآة تنعكس عليها الأشياء المقابلة لها ، اذ أن فطرية النور المعرفى وسبق وجوده فى الانسان قد يصوره على أنه لا حول له ولا قوة فى عملية المعرفة .

والترمذى يبرز هذه المصادر أو المسالك التى تسلكها المعرفة وتصدر عنها حتى تتم وتكتمل ، ويقول عنها أنها : (خمسة أشياء هى الفهم والذهن والذكاء والحفظ والعلم، وهن ذكر الفطرة، وهن من الله لعبده، وليس لعبده منهن شىء، ولكنه محمود باستعمالهن ، مذموم بترك استعمالهن ـ غور الأمور ص ١٢) وكأن الترمذى يقرر أن استعمال العبد لهذه الأدوات الخمس وترك استعمالها

هو من فعل الانسان وحده ، وهو ما يوضح دوره فى فعل المعرفة ومساهمته فيها ، وهو بذلك يمدح أو يذم · أما المعرفة ذاتها فتلقى فيه من الله القاء ، وهذه هى الهبة والمنة الالهية ، وذلك بناء على استعمال الانسان للادوات الخمس السابقة ، ومن يهمل استعمالها يحرم من القائها ، فمن كان له حظ من الله هيأه لاستعمالهن ومن حرم هذا الحظ أهمل استعمالهن ، بحسب ما خـــرج لهم من الحظوظ فى يوم المقادير ، ثم فى صلب آدم عليه السلام ، وفى هذا يقول الترمذى : (بعد أن وضع الله فى آدم أشرف الأشياء وأبهاها وأنورها وهو نور المعرفة ، ثم وضع فيه تلك الخمسة الأشياء ، ثم نفخ فيه الروح حتى امتلأ منه واستقر ، فأخذ كل شىء من آدم حظه من نفخ الروح ، ومن النور الذى وصفناه ومن قربة التصوير وصنعة اليد ، ومن تلك الخمسة الأشياء وصفنا ، وأصاب جميع ذريته حظوظهم من ذلك كله وهم فى صلبه كل على حياله وحصته ، وصارت تلك الثلاثة عندهم آية لربهم ، فباستعمال هذه عرفوا ربهم وبها فهموا عن ربهم ، ووقفوا على صانعهم ، وحفظوا ما نالوا منه ـ راجع نفس المصدر ص ١٢/١٣) ·

والترمذى ربط بين هذا النور الالهى السابق منه تعالى للانسان فى عالم المقادير ، وبين العهد والميثاق الخاص بالتوحيد ، وهو ميثاق عالم الذرات ، ويرى أن الانسان فى نور الميثاق تعرف على الله وعرفه بالنور المقاديرى السابق ، والتقى هذا بذاك فعرف الاله ، وهو فى هذا يقول : (ولا يســـتفهم العارف بالشىء غير العارف ، لا يقال لغير العارف ألست بالكاتب ؟؟ حتى يعلم أنه به عارف ، فاذا كان له منه معرفة قبل ذلك به استفهمه فقال : ألست بكاتب ؟؟ فيقول المستفهم بلى ، فدلك هذا المثال على أن بنى آدم قد كانوا أصابوا حظوظهم يوم الخلقة من صنعة اليد والنفخ والنور ، وصار ذلك رسما على أعين قلوبهم ، فلما رأول نوره يوم الميثاق ، سمعوا كلامه ذ ونالوا قربة كفه ، استنار ذلك بما عندهم فدلهم ذلك عليه فعرفوه ، فلما استفهم قال : (**ألست بربكم**) أى ألستم تعرفونى بالعلائم والشواهد والبينات والآيات التى عندكم ؟ (**قالوا : بلى**) راجع نفس المصدر ص ١٤) ·

وفى يوم الميثاق هذا يتضح جهد العبد فى المعرفة تبعا لاستخدامه لنور المعرفة الموضوع فيه من قبل ، واستخدامه لأدوات المعرفة الخمس ، لأنه بهذا قد عرف الله وتعرف عليه · وهكذا فاذا كان نور المعرفة عاما بين كل بنى آدم

فان المعرفة لا ينالها الا أهل الهداية والمجاهدة ، وهم أيضا أهل الاجتباء والاختصاص والاصطفاء ·

ومن هنا يتضح دور الايمان فى حدوث المعرفة بالله ، فقلب الانسان قبل الايمان يكون مظلما ومغلقا ، ثم اذا جاءه النور الالهى وهو الرحمن أصبح مضيئا وزال غلافه عنه ، وانقشعت عنه سحابة الشك والشرك ، وحبب اليه الايمان ، فاذا خرج النور من باب القلب أشرق فى الصدر كما يقول الترمذى ، فأبصرت عينا الفؤاد ذلك النور ، واذا فكر فى أى شىء من أمور الآخرة ، أو فى أمور الخير والشر ، صار لكل فكرة فى الصدر ظل على هيئته ، ثم يسطع عليه ضوء العقل فيتميز الخير ببهائه وحسنه وزينته ، والشر بقبحه وظلمته ، وتنظر عين الفؤاد الى ما يتصوره على الصدر من تلك الأمور وما يقع من ظلها ، فتصير الأشياء كلها له معافية ، فيطمئن القلب ويستقر بما شاهد وهو اليقين الذى نتج عن وقوع الايمان فى القلب ، وذلك هو قول الله تعالى : « **ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان** » (سورة الحجرات / ٧) ·

ولذلك فان ذكر الله تعالى لا يقع له ظل فى الصدر ، لأن نوره يشرق فى الصدر ، فلا يكون له ظل كباقى الأشياء المخلوقة · ولعل هذا كله هو ترجمة وتفسير ما يروى الترمذى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه قال : (العلم علمان : علم فى القلب ، فذاك العلم النافع ، وهو الذى وصفنا ، فانما يضىء القلب لأن عينى القلب قد أبصرتا صورة ما ذكر له على صورة من داخل البيت ، فاستقر القلب ، وعلم على اللسان ، فذاك حجة الله تعالى على ابن آدم، فذاك علم حفظ ، وليس له قرار فى القلب ، والحفظ قرين العقل · وكان هذا العلم مستودع العقل والذهن ، به يعلم الحسن من القبيح ، والزين من الشين ، والضر والنفع ، فعلم الذهن يريك ما تناله عين الرأس ، والعلم الأول مستودع المعرفة ، وهو علم اليقن ، يريك ما تناله عين الفؤاد ، يريك الأشياء بصورتها حتى تعبد الله على رؤية التدبير - راجع علم الأولياء ، الاشارة رقم ٤٣٢ ، ٤٣٣) ·

والترمذى فى موضع آخر من علم الأولياء حين ميز بين العلم والمعرفة، جعل العلم يكون اجمالا والمعرفة تكون تفصيلا ، وهو فى ذلك يقول : (فالعلم

جملة ، والمعرفة تمييز الجملة ، والهدى ايجاده اياهم بالقلوب على طريقه ، فاذا هداهم اهتدوا فقصدوه بالقلوب ، واستقرت النفـــوس له بالعبودية استسلاما - (علم الأولياء ، الاشارة رقم ٤٢٨) ٠

ثم يتحدث عن دور القلب فى المعرفة ، وأثر النور الالهى فى حدوثها وتمامها ، وذلك فى قوله : (فجعل للقلب عينين ، وجعل لهما طريقا الى المظهر وهو العرش ، ومد بصر قلبك الى مظهر نور العلم بالله ، والمعرفة لله ، حتى يرجع بصره الى صدرك بعلم عزيز ، وأمور مستقرة يعـــلم كنهها - نوادر الأصول ص ٣٨٣) ٠

ثم يشير الى قيمة تصفية القلب وصقله بعد تنقية النفس من كدوراتها وشوائبها ، وقوة القلب ومقدرته فى تحصيل اليقين المعرفى ، وكيف تحصل المعرفة بالله من اقبال القلب عليه تعالى ، ويقرب بين ضوء الشمس المنعكس على سطح مرآة فى بيت الانسان ، وبين القلب المصقول وما يصدر عنه من ضوء ونور هو نور المعرفة ، ويعبر الترمذى عن ذلك كله بقوله : : (ان المرآة المصقولة اذا نظرت فيها أرتك عن اليمين وعن الشمال وخلفك وأمامك ، فاذا قلبت بها عين الشمس ، فلاقى نور المرآة نور الشمس ، وجدت الشمس تشرق فى مكانك وفى بيتك ، فكذلك اذا صقلت مرآتك وهى قلبك نظرت منها الى الجنة والنار ، والى بهاء الحسنات والى جمـــالها ، ورفعة مرتبتها ، والى قبح السيئات ، والى الدنيا والآخرة ، واذا نظرت فيها الى تدبير خالقك تراءى لك العجائب ، وذلك النور الذى تجده عندك اذا أقبلت بمرآتك الى عين الشمس ليس هو الشمس ، انما هو نور حدث من بينهما ٠٠ فاذا أقبلت على الله تبارك اسمه أشرق القلب بالنور - راجع أدب النفس ص ١١٥/١١٦) ٠

ويمكننا أن نعقب على رأى الترمذى هنا بأنه لم يقصد الى أن يتحقق الله سبحانه وتعالى بذاته فى القلب الانسانى ، بل قصد اشراق القلب بالمعانى الالهية ، وبالنور الالهى الذى يمن به سبحانه فى قلب عبده المؤمن ٠ وكذلك فان الترمذى أراد أن يشير الى تفاوت درجات المعرفة التى تنتج عن القلب المؤمن ، ممثلا اياها بتفاوت درجات الضـــــوء المنعكس على المرآة المقابلة للشمس ، فاذا كانت الشمس ليست هى بعينها التى تقع فى البيت من انعكاس ضوئها على سطح المرآة فان الله تعالى ليس هو ذاته الذى يتمثل فى قلب العبد

المؤمن من خلال نوره الذى يتكشف به فى القلب ، أو بواسطة معـــرفة القلب للاله ٠

ولكن هل يستطيع القلب أن يكون مصدرا منفردا ووحيدا لحصول المعرفة الالهية ؟؟ الواقع أن لشهوات النفس ونزواتها أثرا لا يجب اغفاله فى التقليل من دور القلب ومن نوره وبالتالى فى حصول المعرفة اليقينية الصافية ٠

والترمذى وان رأى أن المعرفة درجات متفاوتة فقد جعل لأثر الشهوات النفسية درجات أيضا ، وما ذلك الأثر الا لانفتاح الصدر من أحد جوانبه على القلب ، وبالتالى يؤثر على المعرفة القلبية الصادرة عنه ، وهو فى ذلك يقول: (وآخر وضعت فيه هذه المعرفة فجاءت الشهوات فغطتها ، ولم يســـتعمل صاحبها العقل ، واستعمل الشهوات ، فتراكمت على صدره غيومها وغبارها ودخانها ، فكل شهوة استعملها من حلها وللنفس فيها نصيب الاكبار صارت غيوما ، وكل شهوة استعملها من حلها وللنفس فيها نصيب الغفلة ، فاستعمل القلب ذلك فى غفلته عن الله صارت غبارا فى الصدر ، وكل شهوة استعملها بحرص وهلع وتخليط صارت دخانا ، وكل شهوة استعملها من غير حلها صارت ظلمة كالليل ، فبقيت هذه المعرفة فى الصدر فتراكمت هذه الأشياء فيه ، ولم تجد المعرفة مساغا الى أن تشرف بما فيها من باب القلب حتى تبصر عينـا الفؤاد ذلك ، فيقوى ويستقيم ويستمر فى العـــود ٠ فصار القلب بكنوزه كالمسجو الذليل وصاحبه فقير محزون لأن غناه بحطام الدنيا ، وحزنه لما يفوته من الدنيا فلا يناله ، ويحرص ويكد ويتعب فلا يدرك مناه ـ راجع النص ، الاشارة رقم ٣٥٢) ٠

ولكننا يجب أن ننتبه الى أن الانسان لا يشعر بقيمة المعرفة الا بعد أن يتنبه الى ما تجره شهواته وغيوم صدره عليه من شرور وآثام ، لذلك يبدأ بالبحث عن اليقين ، ولن يتيسر له تحقيق اليقين ولا الحصول عليه الا بعد أن يطهر مكانه ، وهو عند الصوفية والترمذى القلب ، والترمذى يتحدث عن تطهير القلب بوصفه المكان الطبيعى لليقين ، وبوصفه المستقر الوحيد الذى يودع فيه ، ويستقر به القلب ، ويقول : (الطهارة هى ترك ما اضطرب القلب عليه ، ورابك منه تورعا ، ثم تطهره من التعلق بالشهوات والاشتغال ، فاذا أنت فعلت ذلك صقلت قلبك فصار لك مرآة بالتورع ، فكلما تفكرت شيئا من أمر الآخرة

تمثل ذلك فى مرآتك ، حتى تصير الآخرة لك معاينة ، فاذا منعت قلبك عن طريق الشهوات كما تصون مرآتك عن حرارة أنفاسك ، تمثل فى قلبك الملكوت ، حتى يصير أمر السموات الى العرش لك معانيه ، تبصرة بعينى قلبك كأنك تنظر اليه ، كما قال حارثة رضى الله عنه يارسول الله كأنى أنظـر الى عرش ربى بارزا ، والى أهل الجنة كيف يتزاورون ، والى أهل النار كيف يتعاونون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرفت فالزم ، عبد نور الله الايمان فى قلبه ـ راجع أرب النفس ص ١٠٥ / ١٠٦) ٠

ويجب أن نفطن الى أن هناك تناسبا طرديا بين تطهر الانسان وبين العطاء الالهى له ، كما أن هناك تناسبا طرديا أيضا بين العطاء الالهى وبين رياضة الانسان لنفسه وتأديبه اياها ، وهذا هو مغزى ما ذهب اليه الترمذى فيما يرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم : (ان العبد اذا أذنب ذنبا نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فاذا عاد نكت أخرى ، فلا يزال ينكت حتى يسود القلب كله ، فاذا تاب ونزع صقل قلبه ، ويعلق الترمذى على هذا بأن القلب ينصقل بالأنوار حتى ينجلى كالمرآة المجلية ، فاذا صار كالمرآة تراءت له الدنيا على هيئتها ، والآخرة على هيئتها ، والملكوت ، فاذا لاحظ فى الملكوت عظمة الله عز وجل جلاله صارت الأنوار كلها نورا واحدا ، فامتلأ الصدر شعاعا ـ راجع الرياضة وأدب النفس ص ٧٠ / ٧١) ٠

وعلى ذلك يمكننا القول بأن اليقين الذى هو علة غائية لتطهير النفس وصقالة القلب ، هو أيضا علة فاعلية لتطهير القلب وتجليته وصقله ، بعد أن استعد القلب من قبل لتقلبه بتطهير النفس من آفاتها ، ويصبح الانسان آنئذ، بما وقر فى قلبه من يقين ، عبدا ربانيا ، وأصبح عالم الملكوت كله بضيائه وجلاله وجماله ، حاضرا أمامه وبه ، بل وحاضرا فيه أيضا ، بعد أن تجاوز مرحلة حضور عالمى الدنيا والآخرة على هيئتيهما ٠ وبذلك تكون طهارة القلب علة لليقين ، وعلة غائية له فى نفس الوقت ، وكل ذلك هو الصورة الحقيقية للمعرفة الالهية ٠

والترمذى يشير الى ذلك من خلال رأيه عن أثر المدد الالهى فى المعرفة اليقينية ، ويعبر عن ذلك بقوله : ٠٠ (اذا من الله عليك بنور اليقين ، فهى كالبرقة ، كما تشعل شجرك نارا فيذهب أثره وذكره ، كذلك البرقة تحرق

قائمة نفسك ، فيذهب أثرها وذكرها ، وتبقى والها منفردا به ، فتكون الأشياء والأمور منك له وبه ـ راجع أدب النفس ص ١٢٣) ٠

العارف الحكيم عند الترمذى :

سبق أن رأينا كيف فرق الترمذى بين الحكمة والعلم وميز بينهما ، ومما فهمناه منكلامه أن الحكمة منحة الهية يختص الله بها منعباده من يشاء، ممن رحمهم واجتباهم لمعرفته ، وبالتالى اختارهم لولايته ٠ وهذا التخصيص أو الاصطفاء مؤسس على تأهيل هؤلاء الخاصـــة ذواتهم لذلك ، بمجاهداتهم ورياضاتهم وتأديب نفوسهم أى أنهم فعلوا من المقدمات الذاتية التى ينتج عنها ضرورة منة الله وتفضله عليهم بالمعرفة والولاية ، ومن ثم استحقوا الحكمــة الالهية ، أو حكمــة الحكم ، وفى هــذا يقــول الترمذى : (قال الله تعــالى : « **ولقد آتينا لقمان الحكمة** » (سورة لقمان/ ١٢) ، فالحكمة لخاصـــة الله تعالى ، وانما صاروا خاصته لأنهم جاهدوا نفوسهم فى الله حق جهاده ، فأخلوا صدورهم من حب النفس وشهواتها ، فاستوجبوا الرحمة ، وأمدوا بالنور فى صدورهم طالعوا الحكمة بعيون القلوب ، اثبات العلل للترمذى ، ص ٣٧) ٠

ولعلنا نستنتج سمات الحكيم ، ومن هو العارف ، من النظر فى حديث الترمذى عمن صاروا خاصة الله ، فخاصته تعالى ليسوا سوى الحكمـــاء الذين استحقوا الحكمة العليا التى تفضل الله بها عليهم ، كما أنها هبة ومنة ورضوان من عنده عز وجل ، وكأنما الحكماء هم العباد الربانيون الذين صاروا فى قبضة الله ، ومن ثم فى حصن حصين ومكان مكين ، لأنهم يبدون وكأنهم أحكموا على أنفسهم أبواب الشهوات والنزوات ، وأحكموا على قلوبهم أبواب الطهارات والصفاء ، والترمذى يتحدث عن العارف الحكيم فيقول : (فالحكيم اذا ترك الحراسة فخلص الى قلبه من أفراح النفس شىء وان دق فقد مال وكثر ضرورة ، لأنه يصير مفتونا ويسلب الحكمة ، فهو على خطر ، حتى اذا فتح له فى عظمة الله وجلاله ، وصار قلبه فى ملك الملك بين يديه ، وصار فى قبضة الله عز وجل ، فبه ينطق ، وبه يعقل ، وبه يأخذ ، وبه يعطى ، فهذا عبد قد امتلأ قلبه وصدره من الفرح بالله ، وصار حرا من النفس والشـــهوات، راجع : الأكياس والمغترون ص ١٦/١٩ مواضع منتقاه) ٠

والترمذى يمثل الحكمة ، أى المعرفة اليقينية ، بالشجرة التى توضع بذرتها فى التربة ، وتتعهد بالسقاء والغذاء ، ويتقى عليها من الآفات ، فهى لذلك تنمو وتزداد ، وتؤتى ثمارها زكية طيبة . ومن الواضح أن الحكمة التى يتحدث عنها الترمذى هنا هى المعرفة الالهية ، وهى أقصى درجات المعرفة وأصدقها وأيقنها ، فيذكر أن المعرفة كهذه الشجرة ، سقاؤها العلم ، وتربتها أعمال الطاعة ، وحراستها من الآفات التقوى ، وعلى قدر ما يتوفر لها من هذه الأشياء ، على قدر ما يكون عظمها وطيب ثمرتها وزكاؤه .

المعرفة ايمان :

وعلى ذلك يمكننا أن نقرر أن المعرفة عند الترمذى هى النتيجة الطبيعية للايمان اذا كان ايمانا صادقا وخالصا لوجه الله ، كما أن الايمان هو أيضا معرفة ، فالانسان لا يعبد شيئا لا يعرفه ، فضلا عن أنه لا يؤمن بشىء الا وكان فى منزلة المعبود بالنسبة له ، وهكذا يتفاوت نور الكلمات الصادرة من الناس بحسب تفاوت أنوار قلوبهم تلك الأنوار التى تبعا لها تصل الكلمات الى السماء فى الدعاء ، وتحصل على ما تحصل عليه من الاستجابة أو الاجابة ، مثل كلمات الحمد والشكر والذكر والتسبيح والتكبير وغيرها من أوجه علاقة العبد بربه ، التى تخرج فى صورة الأقوال لا الأفعال ، وعن هذا التفاوت يقول الترمذى : (فكلمة تخرج من قلب ، معدن ذلك القلب فى الآخرة ، وتخرج من قلب ، معدن ذلك القلب فى الملكوت ، وتخرج من قلب ، معدن ذلك القلب فى ملك الملك بين يديه ، فانما استنار قلبه بذلك النور ، فكل كلام يخرج منه فمن ذلك النور يخرج ـ النص ، الاشارة رقم ٥١٦) .

ولعل مرجع تفاوت أنوار القلوب المصاحبة لأنوار الكلمات ، الى تفاوت درجات الايمان ، ومن ثم تفاوت درجة المعرفة فى يقينها ، وكل هذا مترابط عند الترمذى ومرتبط بدرجات الموحدين من البشر بمدى معرفتهم بعلم الأسماء والنطق بها ، اذ أن الأسماء وان كانت واحدة والنطق بها واحد الا أن البشر غير متساوين فى معرفتها وادراكها ، فمثلا يرى الترمذى أن كل الموحدين عرفوا : (أن ربهم كريم ، ولكن تلك معرفة التوحيد لا معرفة أهل اليقين ، والتى يصل صاحبها الى أن يكون من أهل الأسماء ، راجع : غرس العارفين ص ٨٥) .

وفى هذا المستوى من المعرفة اليقينية ، أو معرفة أهل اليقين ، يروى الترمذى بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو خفتم الله حق خيفته لعلمتم العلم الذى لا جهل معه ، ولو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال · ويشرح الترمذى هذا الحديث بقوله : (فمن المعرفة أن تعرفه بصفاته العلى ، وبأسمائه الحسنى ، معرفة يستنير قلبك بها ، فاذا عرفته بذلك كأن دعاؤك عن معرفة وحسن ظن به ، فما ظنك بعبد يعرف ربه بالكرم ، ثم يدعوه فيقول : يا كريم ، هل يخيب العارف له بذلك وقد عرفه معرفة يقين ، لا معرفة خبر وعلم ؟! ـ راجع غرس العارفين ص ٨٥) ·

على أننا يجب أن ننتبه الى قصد الترمذى من ذلك ، وهو أن معرفة اليقين ليست مجرد النطق بألفاظ ، دون أن يعى الناطق معناها ومبناها ومستقرها ومستودعها ، ودون حسن ظن بالله فى الدعاء ، فالمسألة ليست مجرد الترمذى يشبه اسم الله الأعظم بصندوق مملوء بالجواهر واللالىء وبأطيب الشراب والطعام ، وعامة الموحدين يحملون هذا الصندوق مغلقا دون أن يتذوقوا ما فيه أو يفيدوا منه ، بل انهم كالحمير تحمل أسفارا أو عنبا ، لا يفيدون مما يحملون · أما أهل اليقين ، وهم أهل العلم بالأسماء والحروف فانهم يفتحون ذلك الصندوق ويتحلون من جواهره ، ويتجمل كل منهم بحسب قدرة احتماله ، ويتناول مما طاب ولذ حسب شهيته وطاقته ، وبطبيعة الحال فان كل هذه تعبيرات مجازية من الترمذى كان يعنى بها الاقتداء والتخلق بما يحمله اسم الله من معانى وصفات ودلالات حتى يكون حامله من أهل اليقين والولاية ، وليس من العامة أصحاب التوحيد فحسب ·

وفى هذا يقول الترمذى ، مؤكدا على الرابطة بين معرفة صاحب اليقين وبين أخلاقه : (فأخلاق الله تعالى أخرجها لعباده من باب القدرة ، وخزنها للعباد فى الخزائن ، وقسمها على أسمائه الحسنى وأمثاله العليا ، فاذا أراد بعبد خيرا منحه خلقا ليدر عليه من ذلك الخلق فعلا جميلا بهيا ، فجلبه فى بطن أمه على ذلك الخلق ، واذا لم يكن مجبولا بذلك الخلق فى بطن أمه قدر له علم ذلك وحسنه وبهاءه ليتخلق العبد بذلك ، ومن أشرق فى صدوره نور اسم من أسماء الله كانت له تلك الأخلاق التى لذلك الاسم ، هذا للمجبولين ، ومن تخلق بذلك الخلق ، ولم يكن جبل عليه ، كان تخلقه طهارة لصدره وقلبه ـ راجع نوادر الأصول ص ٣٥٨ / ٣٥٩) ·

ان الترمذى باستشهاده بقول الحسن بن على ، خاصة قوله (وما خفى علينا سلمنا له ، والعبودة لله منا فيه قائمة) ٠

والترمذى يرى بعد كل ذلك ، أن حديثه عن المعرفة وعن درجاتها ، ودرجات العلم والنور الالهى الذى يمنحه سبحانه للانسان ، وحديثه عن مكنون ذلك العلم ، وحقيقة هذه المعرفة ، يرى أن كل ذلك اجتهاد وتأويل للحكمة وليس رجما بالغيب ،وهو فى هذا يروى عن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، قوله : (ما أدركنا من هذه العلل من طريق الحكمة تكلمنا فيه ، تأويلا للحكمة ، لا حكما على الله فى غيبه ، وما خفى علينا سلمنا له ، والعبودة لله منافية قائمة (راجع اثبات العلل ص ٣٧) ٠ ولعل الترمذى قصد بكلامه هذا أن يقفل الباب مقدما فى وجه من يعترض عليه بأن حديثه عن الحكمة الظاهرة والحكمة الباطنة العليا التى يمتلكها أولياء الله المتفردين يعد حديث كهانة أسس على التخمين واستكناه الغيب أو ادعاء العلم به مع أنه سر من اسرار الله تعالى ٠

ان الترمذى باستشهاده بقول الحسن بن على خاصة قوله (وما خفى علينا سلمنا له ، والعبودة لله منا فيه قائمة) قد وضع منهجا سليما للايمان ٠ ولسلوك سبيل الله ، وهو منهج اسلامى خالص ، فكان الترمذى فى كل نواحى تصوفه وقضاياه التى تفرعت عنه ، أى من خلال حديثه عن الولاية أو المعرفة أو الأخلاق أو العلم أو تركيب الانسان وعلومه ومعارفه ، مفلسفا لكل فكرة ومعمقا لكل رأى ، فكان بحق الرجل المفكر المسلم كأقوى وأعمق ما يكون المسلم الحقيقى ، أو المؤمن القوى الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ٠٠ الحديث ٠

الحب طريقا للمعرفة :

استكمالا لموضوعات هذه الدراسة المختصرة عن آراء الترمذى الصوفية والفلسفية ، واستكمالا لكل عناصر كتابه علم الأولياء نجد أنه لابد من أن نعرض لموضوع الحب الصوفى عند الحكيم، ونوضح علاقة ذلك بمشكلة المعرفة عنده ٠

وفى أول الأمر فان علينا أن ننبه الأذهان الى أن الحب عند الترمذى

موجه الى موضوع واحد ومحبوب واحد وهو بعينه موضوع المعرفة ألا وهو الله سبحانه وتعالى ٠

ولقد لاحظنا أن الترمذى جعل كلا من الحب والمعرفة فى خدمة الآخر ، وكلاهما من أجل الله عز وجل وان كان قد جعل الحب هو قلب المعرفة ، وجعل المعرفة هى الشجرة بأغصانها وثمارها وساقها ، ولعل نص كلامه يكون أفيد فى توضيح وجهة نظره حول علاقة الحب بالمعرفة ، وهو فى ذلك يقول : (مثل الحب كمثل شجرة لها قلب وأغصان ، فالقلب من الساق ، والأغصان فروع الشجرة منها الثمرة ، ولكن أصل الثمرة من القلب ، فالمعرفة هى الشجرة ، والحب قلب المعرفة ، والخوف والرجاء والحياء والخشية والرضا والقناعة، وسائر الأشياء أغصانها ، ومنها تتولد الثمرة وهى الطاعات ـ النص ، الاشارة ـ ٥٣٧) وواضح أن الترمذى جعل الحب علة فاعلية لحصول المعرفة وحصول الطاعات وكثير من العبارات ، كما أنه فى نفس الوقت العلة الفاعلية التى تنتج عنها المعرفة ، وكذلك فان الحب الى جانب كونه علة فاعلية يعد علة غائية لسائر العبادات والطاعات ٠

والترمذى يوضح ذلك بالاضافة الى تأكيد كون المعرفة جودا وفضلا الهيا وكون الحب رأفة ورحمة من الله ، وذلك فى قوله : (وانما جاد عليك ربك بالمعرفة ، فمن بها عليك بعد أن قسم لك حظا من محبته ، فأخرج اليك محبته من باب الرحمة والرأفة ، فنلت حظا من المحبة والرأفة والرحمة حتى ظفرت بالمعرفة ، فلما عرفته خفته ورجوته وخشيته ، ورهبت منه ، فاطمأننت اليه، فاعتقدت عبودته بقلبك ، وتسليمك اليه نفسك فى أمره ونهيه ، هذا كله فى عقد المعرفة ، وهى كالأغصان من الشجرة ، وانما عظمت الشجرة بأغصانها ، والثمرة من بعد ذلك كسبك الطاعة ـ النص ـ نفس الموضع) ٠

واذا كانت المعرفة هبة من الله وفضلا ، واذا كانت العبادة والتسليم لله مقدمات ذاتية من الانسان لحدوث المعرفة ، أو امكان الفوز والظفر بها على حد عبارة الترمذى ، فان الحب أيضا نتاج للعبادة وايمان العباد ، كما أنه لايحصل للانسان الا بمشيئة الله وتوفيقه وتقديره ، والترمذى فى ذلك يقول : (فالحب سر الله تعالى فى ايمان العباد ، يفتح لهم من ذلك على أقدارهم بمشيئته بما سبق لهم من الأقدار منه ، وهو قوله عز وجل : « **ان الذين سبقت لهم منا**

الحسنى ، أولئك عنها مبعدون » (سورة الأنبياء / ١٠١) ، أى عن النار . ثم قال : « **لا يسمعون حسيسها** » (الأنبياء / ١٠٢) كأنه أجاز على الصراط وهم لا يشعرون بها ، فالحب سر فى الايمان بارز ظاهر ، وهو قوله تعالى : « **حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم** » (الحجرات / ٧) . والله تعالى عرف نفسه لأهل مشيئته بالمنة ، وخوفهم من عظمته ، ورجاهم من كرمه ، وأخشاهم من ربوبيته ، فنالوا هذه الأشياء من المعرفة المشحونة بهذه الأشياء، وأما الحب فانهم نالوا حبهم من حبه لهم ، كأن بدء المسرة حبه لهم ، والفرح بهم ... فبدو شأن المؤمن فرح الله تعالى به ، وحبه له ، من ههنا خرج وظهر أمره فى البدء ، فهذا شأن سر الله تعالى فيما بينه وبين عبده ، وضعه فى باطن معرفته فهو يحبه ويخافه ويرجوه ويخشاه ، فهذا كله نظام واحد عند العامة - النص ، الاشارة رقم ٥٣٨ ، ٥٤٤ مواضع منتقاه)

وهكذا نلاحظ أن حب الله عند الترمذى سبق من حب الانسان لله ، خاصة وأن حب الله للانسان ، كما وضح الترمذى هو سر من الله تعالى سبق فى مشيئته وتقديره ، وأنه يمنحه لعبده الذى يتوب عن معاصيه ، ويعود من طريق المعاصى مما يفرح الله به أشد الفرح ، وذلك استشهادا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : الله أفرح بتوبة العبد من رجل أضل بعيره فى مغارة مهلكة، عليه زاده وحمولته ، فهو يضرب يمينا وشمالا فى طلبه حتى أيس منه ، وأشرف على الهلاك ، فقال فى نفسه أرجع الى حيث أفقدته فأموت هناك فرجع فوجد بعيره عليه زاده وحملته ، فجعل يغلط من الفرح . وهذا النوع من الحب الالهى المرتبط بالتوبة والذكر والتسبيح بوجه عام ، خاص بعامة الموحدين كما يرى الترمذى .

أما فيما يتصل بخاصة الموحدين فان حب الله لهم ، وحبهم لله يسلك كل منهما طريقا آخر غير طريق العامة ، والترمذى يوضح ذلك بقوله : (ولكن خاصة الله لما اختصهم بالرحمة التى اختص بها الموحدين حتى نالوا توحيده ، ثم أولج للخاصة باب الرحمة حتى دخلوا فوصلوا الى الرحمة العظمى التى منها خرجت هذه المائة رحمة التى كتبها على نفسه لعباده ، وفى تلك الرحمة حبه ، فلما دخلوها وصلوا الى تلك الرحمة العظمى فغرقوا فيها ، وفيها حبه ومشيئته ، ففتح لهم باب المشيئة وأنالهم من حبه ، فلما فتح لهم باب المحبة علقت ، ولهت عن كل شىء سواه ، وشبت النفوس بتلك الحلاوة التى نالت ، فعندما انقطعت الأسباب والعلائق وتطهروا من أدناسها بوصولهم الى مقامهم

فى القربة ، فلما تطهروا تقدسوا تقدس قربة القدوس ، فلما تقدسوا خلصوا الى فردانيته فانفردوا ، فعندها جاز لهم أن يقول أحدهم يا واحدى ، فاذا قال صدق وأجيب ، وكان من أهل القبضة · النص ، الاشارة رقم ٥٤٥) ·

ولعل الترمذى قد وضع النقاط على الحروف لكى يوضح الفارق بين العامة والخاصة سواء فى العبادة أو الذكر أو المعرفة أو التطهر أو التقـرب أو الحب من جانبهم أو من جانب الله تعالى لهم ·

كما أن الترمذى يشير الى أن حب الانسان لله ينتج عن حب الله للانسان وينبثق منه ، ثم يؤكد مرة أخرى علاقة الحب بالمعرفه مبينا ان الحب هو الوجه الباطن وأن المعرفة هى الوجه الظاهر ، وكانهما وجهان لحقيقة واحدة هى التوحيد الخالص والصادق ، وهو فى ذلك يقول ! (فالخوف انما تخـــاف من عظمته ، والرجاء ترجوه من رحمته ، والخشية أن تخشاه من مهابته ، والحب هو أحبك وأعطاك من حبه لك حتى أحببته ، والخوف والرجاء والخشية هاجت من نفسك لعظمته ، والحب منه بدأ فوضع فيك حتى هاج منك حب من ذلك الموضوع فيك ، والذى وضع فيك من الحب سر منظوم من نور المعـرفة ونور التوحيد كشىء فى شىء · فالمعرفة ظاهرة والحب فيها باطن ، كلب الشىء، فلذلك قلنا أنه من المعرفة بمنزلة قلب الشجرة ـ النص ، الاشارة رقم ٥٤٦)·

واذا كان الترمذى قد جعل حب الانسان لربه رد فعل لحب الله تعالى للانسان ، بناء على ما يحدث للمحبوب من الله وهو الانسان من هياج وهيام من أثر الحب الموضوع فيه ، واذا كان الحب سرا الهيا انتظم من شعاعى نور، أحدهما نور التوحيد والآخر نور المعرفة ، اذا كان هذا هكذا فان الترمذى يرى أن يظل هذا السر المنظوم وهو الحب الالهى سرا بين الانسان وربه ، وكل منهما أصبح موضوعا للحب وذاتا تقوم بالحب فى نفس الوقت ، والترمذى يوضح هذه العلاقة السرية بين الانسان والله بقوله : (ثم اختص من اختص من العباد وفتح عليه باب حبه حتى هاج ما فى قلبه يسمو الى الذى عبده به ، فلا يزال قلبه يسمو فى السر وحب الله له فى مزيد حتى يصير العبد هائما والها به ، فكما كان هذا فى الأصل سرا ، فحقيق على العبد أن يسر ذلك فيما بينه وبين ربه ، ولا يبديه حتى يكون ذلك مصونا فيما بينه وبينه ، ويجتهد فى أن لا يشتهر ـ النص ، الاشارة رقم ، ٥٤٧ ، ٥٤٨) ·

خاتمة :

وبعد فاننا فى هذه الدراسة التى قدمنا بها كتاب الترمذى عن علم الأولياء ، والتى حاولنا أن نجعلها دراسة شاملة لكل نواحى فكره ومعتقده ، لن نستطيع أن نحيط علما تفصيليا بكل هذه الجوانب ، وسوف نكون مخطئين اذا ادعينا لأنفسنا هذه الاحاطة التامة ، ويكون الآخرون أكثر خطأ اذا الزمونا بهذه الاحاطة أو توقعوا الكمال لهذه الدراسة المختصرة ، فلكل مقام مقال بحق، ولكن الترمذى بفكره الشامل وآرائه المتشعبة كان له فضل الدخول فى هذه المحاولة التى نعتقد أنها تلقى كثيرا من الضوء على تصوف الترمذى الحكيم، كما أنها قد تقدم آراءه فى أبعاد جديدة مخالفة للمألوف ، كما أنها أيضا تضع النقاط فوق الحروف فيما يتصل بكثير من الأحكام الجائرة التى حكم البعض بها عليه ، ولعل هذه الدراسة تنبه الأذهان الى نواح جديدة فى فكر الترمذى لم يتنبه اليها أحد من قبل ، أو تضعه فى اطار جديد هو أجدر به وأحق ٠

والترمذى ، رغم اهمال الكتب القديمة لسيرته وترجمته ، ورغم اهمال البحوث الحديثة لكثير من نواحى تفكيره وتصوفه ، هو مفكر لا يستطيع واحد أن ينكر فضله وأثره فى تطور التصوف الاسلامى ، وشحذ الأذهان الى قضايا كثيرة لم تكن وجدت فى التصوف قبله ، ثم النظر الى قضايا أخرى موجودة قبله نظرة جديدة ٠

كما أن أى باحث متعمق فى آراء الترمذى ، وعلى علم بتاريخ التصوف الاسلامى وتطوره ، لا يمكنه أن يجحد ما للترمذى الحكيم من أثر واضح وعميق فى آراء كل من الغزالى + سنة ٥٠٥ هـ وابن عربى + سنة ٦٣٩ هـ، وابن قيم الجوزيه المتوفى عام ٧٥١ هـ ٠ وكذلك فان أثره فى المدرسة الشاذلية خاصة عند ابن عطاء الله السكندرى ، لا يمكن غض الطرف عنه وصرف العقول عن التأمل فيه ٠

ويكفى الترمذى ابرازا لمكانته وفضله أن محيى الدين بن عربى ، وهـــو ما هو فى التصوف الاسلامى ، قد فلسف نظرية خاتم الأولياء التى وضعهــا الترمذى ، بل ان ابن عربى اعتبر نفسه خاتم الأولياء ، كما يذكر أحد الباحثين، كما أنه أفرد لمسألة خاتم الأولياء جانبا ضخما من فلسفته فى نظرية الولاية

كلها · وتحدث فى احدى رسائله عما أسماه بالجواب المستقيم عما سأل عنه الترمذى الحكيم · (راجع الفلسفة الصوفية فى الاسلام ، د· عبد القادر محمود ، ص ٣٨٥) ·

كذلك فان اربرى أراد أن يبرز دور الترمذى وأثره فى التصوف الاسلامى فقال : (ان القرن الذى أبرز المحاسبى والجنيد والحلاج ، قد قدم للتصوف الاسلامى من أسهموا فى بناء صرحه ممن ليسوا أقل أهمية الا بوجه المقارنة ، وليس الحكيم الترمذى أقل أهمية من هؤلاء - راجع ص ٦٠/٦١ من كتاب أربرى عن التصوف الاسلامى) ·

القسم الثـانى

نص كتـاب علم الأولياء

للحكيم أبى عبد الله محمد بن على الترمذى

المتـوفى سنة ٣٢٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الامام : (*)

الحمد لله ولى الحمد وأهله ، والصلاة على محمد وآله وصحبه ·

اعلم ، وفقك الله ، أن جميع العلم فى الأسماء (١) ، والأسماء دالة على الأشياء (٢) ، وليس من شيء الا وله اسم ، واسمه دليل على ذلك الشيء ·

اشتقاق الاسـم : (*)

والاسم مأخوذ من السمة (٣) ، وكل اسم دليل على صاحبه ، حتى أن نفس الاسم دليل على [وجود صاحب] (٤) الاسم (*) ·

وذلك أن الاسم انما هو فى الأصل حرفان ، وانما هو (سم) (٥) فزيد فيه الألف فى الابتداء عمادا فقيل : اسم ، ألا ترى (٦) أنك فى الادراج اذا ألحقته بالبسملة قلت : بسم ، وفى ذكر الألف (٧) يقال : اسم ، وانما هما حرفان (سين وميم) فالسين من السناء والميم من المجد ، والسناء الضياء ، والمجد لب الشيء ، فكأنه يدل على أنه انما سمى الاسم اسما لأنه يضيء لك عن لب الشيء ومكنونه ، ويترجم لك ويكشف عن مكنون ذلك الشيء(٨) ، فهذا تفسير الاسم ، فليس من الأسماء الا وقد وسمه الله باسم يدل على مكنون مافيه من الخير (٩) والجوهر ·

الأسماء مصدرا لعلم آدم :

فاحتوت الأسماء على جميع الأشياء التى علمها الله تعالى لآدم عليه السلام ، وأبرز فضيلته على الملائكة حيث عرض جميع خلقه على آدم عليه السلام ، ثم قال : « ··· **أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فأنبأهم** » (١٠)

(*) جميع العناوين سواء أكانت جانبية فرعية أم كانت أصلية فى المنتصف هى من وضعنا لسهولة رجوع كل قارىء الى مطلوبه نظرا لتداخل الموضوعات فى نص الترمذى

فأبان فضيلته فى العلم على الملائكة ، فعلمه العلم وأصل العلم ، فأما العلم فهو الأسماء ، وأما أصل العلم فهو الحروف المعْجمة ، وهى ثمانية وعشرون حرفا ، ومنها ابتديت اللغات (١١) ٠

فركب آدم عليه السلام تركيبا عجيبا ، فوضع العلم بالأسماء والمعرفة بها فى قلبه ، وتصويرها فى صدره ، وتعبيرها فيما بين حلقه الى شفتيه ، فصير القلب طرفا (١٢) للعلم، والصدر طرفا (١٢) للتصاوير، والفم طرفا (١٢) للتعابير ، فركب للحروف أدوات ، وجعل الحروف منقسمة على الأدوات ، منها للحلق واللهاة واللسان والأسنان والشفتان (١٣) ٠

ومن ههنا قال على رضى الله عنه : لا يكون كلام حتى يجـــــرى على سبعة (١٤) : الحلق واللهاة واللسان والأسنان والشفتان (١٤) ٠

قال أبو عبد الله رحمة الله عليه (*١٤) : فهذه الحــــــروف الثمانية والعشرون حرفا منقسمة على الأدوات ، فحروف الحلق جزء ، وحروف الأسنان جزء ، وحروف اللسان جزء ، وحروف اللهاة جزء ، وحروف الشفتين جزء ، وانما قيل تسعة وعشرون (١٥) لأن حرف (لا) يتكرر ، وانما هو (لام وألف) حرفان مقرونان ٠

ابتـــداء اللغـــات :

وفى حروف المعجم علم البدء (١٦) كله ، وصفات الله وأسماؤه من صورة حروف المعجم وصورة (أ ب ج د) فيكتب ههنا أ ب ج د (١٧) ، وفيها علم التدبير من لدن أنشأ خلق آدم الى يوم الوقت المعلوم ، فأول ما بدا من العــلم أسماؤه تعالى ، وأول أسمائه (الله) (١٨) ثم الأسماء كلها بعد ذلك منسوبة اليه فقال : « **ولله الأسماء الحسنى** » (١٩) ٠

اسم الله مصدرا للعلم :

فجعل الأسماء لاسمه (الله) ، فاسمه الله مستول على الأسماء مطــلع عليها ، فالاسم سمة الشيء ، والصفة ظهور الشيء ووضوحه وبروزه ، فالاسم

للمنطق والصفة للفظ ، فالاسم فى الفم للسان والصفة فى العين للعين (٢٠)٠ فقوله [تعالى] (٢١) « الواحد » يشير الى المعروف بالمعرفة ، وقوله « فرد » يشير الى التنزيه للمعروف ، وقوله (أحد) يشير الى التنزيه للموصوف ، ثم من بعد ذلك أسماؤه الحسنى التى أظهر منها أفعاله ، وللعباد منها حظ يستمدون منها الوفاء بالتوحيد (٢٢) الذى اعتقدوه قلبا ، واعترفوا به نطقا، ويقرون به على وفاء العبودية ، فأسماؤه دالة على صفاته ، وصفات أفعاله ، ثم من بعد ذلك سائر الأسماء ٠ فانما علم آدم الأسماء ثم عرضهم على الملائكة وعلمه البيان ، فقال : « **خلق الانسان علمه البيان** » (٢٣) أى تمييز كل شىء على جهته ،ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : (علم الله آدم كلمة فعلم بها الأسماء كلها (٢٤) ، فانمـــا علم بها لأنها أصـــل الكلام ، فبالحروف (٢٥) المعجمة ميز كل شىء ، وبالأسماء استدل على الأخبـار (٢٦) المكنونة فى الأشياء ، وعلى الجواهر (٢٦) الخفية فى العناصر ٠ ثم جعل هذه الحروف المعجمة منقسمة على ألف لسان لألف أمة ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق (٢٧) الله تعالى ألف أمة ، ستمائة فى البحر، وأربعمائة فى البر ، ولكل أمة منطق ، وقد علم الله تعالى نبيه سليمان منطق الطير ، وأما اللغات فعلى اثنتين وسبعين لغة ، أولها العربية وآخرها العربية لسان أهل الجنة اذا دخلوها ، وهى أوفر اللغات وأوسع الألسنة وأكشفها وأوفرها وأغناها وأجراها بقسمة الحروف ، ولذلك قيل [لسان] (٢٨) عربى لأنه (يعرب) أى يكشف ، فيوضح من مضمون معانيها ما لا يكشفه غيرها من الألسنة ٠

ألا ترى أنك تقول : جليل وعظيم وكبير ، وكل اسم مؤد الى معنى ، فان ترجمته فانما هو (بزدك) ليس وراء هذا شىء ، فهذا لضيقه (٢٩) ، فقـوله : بزدك لا يؤدى ، الا الى معنى واحد ، وجليل وعظيم وكبير يؤدى الى الجـلالة والعظمة والكبر ٠

وهى كرامة الله لهذه الأمة أن جعل لسانهم عربيا على هيئة ما نفصل ٠

وروى (٣٠) عن النبى صلى عليه وسلم أنه قال : ان الله تعالى لم ينزل وحيا قط الا بالعربية ثم يترجم جبريل عليه السلام لكل رسول بلسان قومه ، فالرسول صاحب الوحى يترجم بلسان أولئك ، فأما الوحى فباللسان العربى،

وقد أثنى الله تعالى عليه فقال : « بلسان عربى مبين » (٣١) ٠٠ فوصفه بالابانة وهى (٣٢) الظهور والكشف ٠

وسائر الألسنة لا تخرج عن الحروف المعجمة بتأليف الحروف (٣٣) ، فصيرت كل لغة بتألفها بخلاف اللغة الأخرى ، وانما هى الحروف المعجمة دليلا فقط على تركيب اللغة (٣٤) من الصدر الى الشفتين ، ومن الصدر ينصدر الكلام على تصوير العلم الذى يتصور فيه ، فان العلم فى القلب والتصوير فى الصدر ، والانصدار من الصدر الى الشفتين حتى يلقيه أى يرمى به فيصير لغة (٣٥) ، فهذه طرق اللسان ، فأى طريق أجرى فهى لغة (٣٦) ٠

وكان نوح عليه السلام قد علمها كلها ، وانما سمى لسان لأنه يلسن الكلام بالحروف المعجمة ، أى يسرع لمتابعته فينشره ويرمى به ، ولسن ونسل بمعنى واحد (٣٧) ، نسل ينسل ، فليس من حرف الا وله سهم فى العلم ، فأخذ ذلك السهم بحظه من العلم ، وليس من كلمة الا ولها سلطان يأخذ بحظه من النفاذ والقدرة وان قرب مأخذها ٠

ورب كلمتين قد تقاربتا فى اللفظ وتشابهتا فى المعنى ، وفى احداهما نكته بخلاف صاحبتها (٣٨) بزيادة حرف أو نقص حرف أو تبديل حرف ، فليس بحال الا أن يكون لتلك الزيادة معنى زائدا لم يكن فى الأخرى (٣٩) ٠

فكرة الواحد حسابيا وميتافيزيقيا :

وأما (الواحد) فهو أصل العدد (٤٠) ، وانما سمى واحدا على قالب فاعل الأوحد ، فتشعبت (٤١) منه أشكاله ، وأصل الكلمة انما هو (حد) على حرفين ، فزيد فيها (واو) لتقوى وتتم ، لأن الكلمة انما تتم بثلاثة أحرف، حرف يبتدأ به، وآخر يحشى، وحرف يعتمد عليه فيسكت، فقيل (وحد) وقيل (أحد) ثم ميزه على قالب فاعل فقالوا (واحد) ٠ وأصل هذه الكلمة انما هو (حد) (٤٢) : حاء ، ودال ، ثم زيد فى أولها واو فقيل (وحد) ، كما قيل فى الاسم (سم) ثم زيد فى أولها ألف ٠

والحاء من الحياة ، والدال من الدين وهو الحساب ، وانما جيء

الحساب والعدد بأوله ، فأول العدد سبب (٤٣) فى الحياة ، وآخره من الحساب فقيل (حد) (٤٤) ٠

ثم قيل : اثنين وأصله (ثن) ثم زيد فى أوله (ألف) لتتم الكلمة ، قيل: (اثن) والثناء من الثوران من النصرة ، وهو مفتاح اسمه [تعالى] (٤٥) : يا حى يا ديان يا ثلير يا ناصر ٠ فمبدأ الدين وهو الحساب حال (٤٦) ندبه يحيى الحساب، ثم الذى يليه يثور فيعلوه نصره له ٠ فمن سمة اسمه (الله) أنه علق القلوب به فالهم (٤٧) اليه بارهم (٤٨) وفاجرهم فليس لأحد أن يجحده، ومنها (٤٩) معرفة الفطرة ، فالمؤمنون ولهوا اليه وله معرفة العبودية ، من نور الهداية من عليهم بذلك فوحدوه ، والمشركون ولهوا اليه وله الفطـــرة وهى معـــرفة الحيلة ، وليس لأحـــد أن يجحـــده الا أنه ليس له قائمـــة ، فالتفتوا (٥٠) الى الأوثان فولهوا اليها ، فقالوا هذه تنفعنا من دونه وتعين الله فى أموره ، كما أضمر ابليس فى نفسه أن لا يتم الله أمرا (٥١) الا بأعوان، فأكذبه الله تعالى فى تنزيله فقال : « **وما كنت متخذ المضلين عضدا** » (٥٢) ، وقال : « **استكبر وكان من الكافرين** » (٥٣) ٠٠ فقدكان يعبد الله تعالى عن ذلة السلطان الذى كان يعاين ولا يعرفه ، لأن نور المعرفة لم يعمل فيه ، وكان يعرفه معرفة الفطرة ، وكان من الكافرين ٠ وقال تعالى (٥٤) : « **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (٥٥) ، كلا سيكفرون بعبادتهم** » ٠ فزعموا أن هـــذه الأوثان تعلوه فى ذلك الوقت فمرة صيروا القدرة لله ، ومرة صـــــيروها للاوثان، ومرة العلو لله بزعمهم ومرة للاوثان، فهذه [هى] (٥٦) التثنية (٥٧) فقال الله تعالى : « **لا تتخذوا الهين اثنين** » (٥٨) ـ أى لا يأخذ الوله (٥٩) قلوبكم فى المضار والمنافع الهين فتوله (٥٩) قلوبكم اليها فتعتقدونهما ، ثم قال اثنين صفة لالهين ، أى يجعلونهما (٦٠) ضدين ، أى يثنى أحدهما الآخر أى يعلوه ،وكل واحد منهما للآخر ثان له عال ، أى يوجد بوله القلوب فـــلا عال له ٠

علاقة الاسم بالمسمي :

فالأسماء مشتقة من أفعالها ومن صفاتها التى فى باطنها ، ولكل اســم معنى ، وانما علم الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام الأسماء كلها ، فكان جميع العلم فيه ، لأن الأسماء سمة الأشياء فكان كل اسم دليلا على صاحبه ، واسماء الرب عز وجل اسمه دليل على صفاته ، وأسماء خلقه دليلة على أفعالهم

وصفاتهم ، فلو كان سوى الاسم شيء من العلم يحتاج اليه ، لعلمه آدم عليه السلام ، فلما علمه الأسماء كلها علمت الملائكة أن جميع العلم داخل فيها ·

ألا ترى الى قوله عز وجل : « **خلق الانسان علمه البيان** » (٦١) أى بيان كل شيء انفصل بالأسماء على صفاتها ومعانيها ·

مجاهدة النفس الأمارة :

وقال رحمه الله تعالى : كلما هجمت على شيء كرهته نفسك أو رضيته قائم الربوبية هناك ، وهو (٦٢) أن ترى [أن] (٦٣) صنائعه هو الذى صنعها قبل كل صانع ، فمتى ما نظرت الى غيره قبل أن تنظر اليه وقعت فى التخليط ، ومتى ما غضبت على غيرك وقعت فى التخليط ما للعارف، وغضب النفس فى شيء منالأشياء انما يجرى هو علىأحكام ربه، وما لمتر ذلك [صنعه] ومشيئته وحكمه فقد أفسدت (٦٤) لك المعرفة وكدرتها وهى أصل كل نور ، واذا فسد الأصل فسد الفرع ، وكأنك أزلت الربوبية عنه الى غيره، فليأخذك الفزع هناك كفزعك من عبادة الصنم ، فانك ان لم تفزع هذا الفزع يوشك أن لا تقلع · واستعذ ربك أيضا على النفس ، فانه هو مهيج النفس ومحركها ومسكنها أيضا فى رضاها وسخطها وعدلها وجورها ، فعدل النفس منه امتن به عليها ، وجور النفس عدل (٦٥) منه عليها لأنها لم تستحق الفضل فى ذلك الموضع ، فعدل عليها ربها أى أنزلها منزلتها ·

ومتى رأيت الصانع واحدا ، والمحرك والمسكن والمهيج واحدا ، ثم هجمت على أمر من الأمور فكرهته نفسك ، وشاءت غير ذلك ، فكأنها كرهت حكمة الحكيم الذى دبر أمور السماوات والأرض والدنيا والآخرة ، وكأنها أرادت علما غير علمه الجليل الذى به علم الظاهر والباطن (٦٦) ، والشاهد والغائب، وان كان كل ذلك عنده وفى علمه سواء (٦٧) ·

فكأن النفس أثرت (٦٨) [علمها] (٦٩) على هذا العلم ، جل الجليل عن ذلك ، وكأنها أرادت [أن] (٧٠) تسبق بقدرتها وتعلو (٧١) بقوتها قوة ربها، فياله [من] (٧٢) سفه ، وما أجله وأفظعه وأهوله وأجهله (٧٣) وأخسه والأمه ، لولا أن المليك الأعلى عرف ذلك منها ومن سوء طبعها ، واحتمل بكرمه وفضله ، لدمرها ، فله الحمد وهو أهله ، ولها الذم وهى أهله ·

قســـمة العـــلوم :

وقال رحمه الله تعالى : ان أردت علم المعرفة (٧٤) فتفكر فى أمر البحر وعجائبه ، وأمر الملوك فان علم المعرفة يجرى على أمر الملوك وأمور البحور ان شاء الله تعالى ، وان أردت علم العبارة فتفقه فى المحترفين ، وان أردت علم الرياضة فتفقه فى أمر الدباغة والسياسة والقيادة ، وان أردت علم التوبة فتفقه فى القصارة ، وان أردت علم التفويض فتفقه فى أمر خدم الملوك الذين على رؤوسهم ، وان أردت علم الاخلاص فتفقه فى أمر ساقى الملك وطباخه وخبازه ونساجه ، وان أردت علم الصبر فتفقه فى أمر الآباء مع الأطفال ٠

وقال رحمه الله تعالى : العلم على وجهين ، علم مجان وعلم بثمن (٧٥) ، فالعلم الظاهر مجان ، والعلم الباطن من طريق الاصابة لا يدرك الا بثمن ، وثمنه اصابة الصدق بالسعى القوى ، وطريقه على العلم المجان كالايمان انما يعطى مجانا من المعرفة والتوحيد ، والبدن يعطى تورعا والفزع بالتكليف ، وكذلك طريق الاصابة ، وانما مراد العارف من الاصابة تقديس أمر الرب ، وتطهيره لأعز (جوانب) (٧٦) النفس ورفعتها (٧٧) وتقدسها ، فاعلم ذلك فانه ربما ابتغى العبد الاصابة لتقديس النفس ، والعارف عرف [من] (٧٨) أقذار النفس أنها خلقت قذرة بخسة مجبولة على السوء ، فرام صفاء أمر الرب، وكانت نفسه أهون وأذل من أن يؤهله للكرامات ، وان كان يراها (٧٩) من ربه ما لا تعد ولا تحصى بكرمه وجوده ، وهو أهل ذلك ٠

العبودية :

قال رحمه الله تعالى : وهذا علم مأخوذ من حكمة الله العليا ، ومقتبس من علم البدء ونور الوحدانية فى قربه من منازل الخاصة ، وانما عز وجوده لعزازة العزيز الماجد الكريم عن وصول مجده وكرمه الى اللئام ، وأما الأحرار الكرام فانه جاد عليهم بذلك، والأحرار الكرام [هم] (٨٠) منبذل نفسه لله تعالى عبودة ولم يلتفت اليها ، ولا لحظ الى تحقيق بذله ٠ واللئام عبيد النفوس تلفظوا (٨١) بالشفاه مقالا على الألسنة يتلذذون به، ويشممون (٨٢) القلوب رائحة منطقهم ، ثم تبادر قلوبهم الى شهوات أنفسهم فتطمئن اليها وحدها (٨٣) فحرام على هؤلاء أن ينالوا حكمة الله العليا ، وأن يمشوا فى نور الوحدانية ، ويصلوا الى وجهه الكريم فى مجالس الخاصة (٨٤) ٠

وانما أولئك المحدثون خاصة الخاصة كادوا يساوون الأنبياء ، وأن منتحلة هذا العلم الظاهر من علم الطريق (٨٥) وعلم اللغة قد أخذوا هذا الأمر من التوسط ، لم يأخذوه من الأصل وانما وجدوا اللغات قد رسمت لهم فاحتملوها ولم يطيقوا غير هذا ، لأن هـــذه (٨٦) طاقتهم ، ولأن (٨٧) عقولهم محجوبة عن الله ، وقلوبهم معلقة بالشهوات ، فانما لهم الاتباع لرسوم الأنبياء ، والأنبياء أخذوا من الله تعالى بيانا صريحا (٨٨) مكشوفا من أصول الأمور التى أسسها الله ٠ وهؤلاء المحدثون الذين كادوا أن يلحقوا الأنبياء لقرب منازلهم من الأنبياء ، وعظم نورهم من قرب نور الأنبياء ، أدركوا ذلك ووصلوا الى أسس التدبير وأصول العلم ٠

والمحدثون احتفظوا من النبوة على درجاتهم ، فمنهم من له من النبوة بضعها ، ومنهم من زيد على ذلك وله من صفوة الأنبياء على قدر ذلك ، وله مئ النور على قدر ذلك ، وله من القرب على قدر ذلك ، وله من الحديث على قدر ذلك ، وله من السكينة على قدر ذلك ٠

وجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم فى السمت الحسن والهدى الصالح والاعتقاد (٨٩) [القوى] (٩٠) أنه جـزء من أربعة وعشرين جـزءا من النبوة (٩١) ٠ وهذا كله فى المريدين السائرين الى الله عز وجل فى طريقهم ، فكيف بالواصلين ، فكيف بالجالسين من منازل الحديث فى تلك المجالس ، فهذه الطبقة تعرف كل حرف من هذه الحروف ، وتعرف سهمها من العلم ، وتطالع سلطان كل كلمة ، وقدرتها على الأمور ، ونفاذها فى الأمور ، فتعطى حظها من الوقار والحرمة ، وتأخذ بنفعه من المعنى الذى أودعت الكلمة ، فالخلق فى المقادير مأخوذون بالعبودة للزوم (٩٢) الحجة ، فمنهم من وفى ، ومنهم من أبقى (٩٣) ولم ينقض العهد ، ومنهم من هرب ونقض العهد ٠

ولهم قصة فى أخذهم العبودية ، وقد شرحناه فى الكتاب من أنى وقع عليهم هذا الاسم ، ومن أنى اشتق اسمه (عبد) ، فانهم فى البدء فى المقادير خلق ، ثم عبيد ، ثم شىء ، ثم متخذون عبيدا ثم قد لزمتهم الحجة ، ثم مصروفون الى مكان الأعراف ، ثم الميثاق ، ثم يستخرجون من الأصـــلاب والأرحام الى دار الامتحان واقتضاء الوفاء وتمييز الطبقات للثواب والعقاب، ثم مردودون الى اللحود، ثم منشورون عن اللحود، ثم محشورون الى العرضة

ثم مرجوعون الى الله الذى ابتدأهم فى المقادير ، [ثم] (٩٤) موقوفون على الثواب والعقاب ، مقتضون وفاء ما اعترفوا به وقبلوه يوم الميثـــاق (٩٥) ، [ثم] (٩٥) ترجع كل طبقة منهم الى ما علم لهم (٩٦) وبرز لهم من مشيئته فى تلك المقادير يوم البدء (٩٧) ٠

النور الالهى : (*)

وجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم نورا من نوره (٩٨) ، فقد ذكر الرش لا الصب ، ولو صب لأطبق فعم الجميع ، وانما رش ليصيب (٩٩) بعضهم دون بعض ، وقـد علم من يصيبه ٠ والرش هو المقادير صائرة (١٠٠) ، والرش قسمة بين العبيـد مقدرة (١٠١) ٠

وجاء عنه صلى الله على وسلم أن الله خلق المقادير قبل خلق السماوات بخمسين ألف عام (١٠٢) ٠

وقال صلى الله عليه وسلم : ان الله اتخذنى عبدا قبل أن يتخـــذنى رسولا (١٠٣) ٠

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى : فانما أحسنت أعمالهم وزانت لاشراق قلوبهم لمطالعة ملك العظمة ، وسقوط المشيئة عن نفوسهم ، وانما نالوا هــذه الخطة برفع مشيئاتهم لمشيئة الله تعالى فى جميع الأمور ، فما زالوا يرفضونها حتى وجدوا حلاوة مشيئة الله فصارت منية قلوبهم ، فاستراحوا (١٠٤) من مشيئتهم الشهوانية لأنها قد ماتت لهول العظمة التى تخلت عن قلوبهم ، ثم صارت تلك الشهوات منية قلوبهم ، فلا يتمنى القلب الا ما مناه مولاه لعلمه بعظيم مشيئة الله واختياره لعبده ، ولا ينال العبد تعظيم المشيئة حتى ينـال تعظيم ربه حين يشرق نور العظمة فى صدره، ولا يشرق نوره حتى يتطهر(١٠٥) صدره من دخان الشهوات وفوران المشيئات ، ولذلك قيل (١٠٦) : الكـلام للسان لا لغيره ، ومملكة اللسان الفم ، وحدودها من الصدر الى الشفتين ، فمن الصدر انبعاثه ، فبعضها الى الحلق ، وبعضها الى اللهاة ، وبعضها الى الأسنان ، وبعضها الى أطراف اللسان (١٠٧) ، وبعضها الى الشفتين ٠ فرب حرف يجد سبيل بروزه من الصدر فيستغنى عما سواه ، ورب حرف يجـد السبيل من الحلق فيستغنى عن غيره ، ورب حرف لا يجد المستقر حتى يبـلغ

الى الشفتين ، فانما تلفظ الحروف (١٠٨) بالمستقر ، وهى الحدود ، ولذلك يقال (حرف) والحروف [هو] (١٠٩) الحد (١١٠) ٠

الصلاة ذكر ورياضة للنفس :

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى : أن الله تبارك اسمه لما من على المسلمين بالاسلام ، أمرهم بالانتصاب بين يديه مصلين ، ولم يخل أحدهم من أدناس الخطايا ، فلم يرض لهم أن يقوموا بين يديه مصلين منتصبين اليه ، معتذرين اليه ، ومعهم غبار العدو وأدناسه ، وان لم يكن على أجسادهم فى الظاهر أقذار ونجاسات ، فأمرهم أن يغسلوا أطرافهم وسماه وضوءا ، يعلمهم أن هذه الأطراف تصير وضيئة بهذا الغسل ، ويذهب غبار العدو فيطهروا ، وقد قال تعالى فى تنزيله : « **ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم** » (١١١) ، ثم قال: «**لعلكم تشكرون**» (١١٢)، يطهركم بالماء حتى تزول الأنجاس وغبار العدو، فاذا زالت حيى القلب ، فتلك الحياة تمام النعمة ، فقاموا لله منتصبين بحياة قلب يعقلون ما يعبدونه به ، وأنهم بين يدى الله فذلك منهم شكر (١١٣) ٠

وروى عن وهب بن منبه [أنه] (١١٤) قال : ان الله تعالى ركب فى الملائكة العقل بلا شهوة ، وركب فى البهائم الشهوة بلا عقل ، وركب فى ابن آدم كليهما العقل والشهوة ، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم (١١٥) ٠

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى : مثل الدنيا مثل بحر يغرق فيه من دخله لأنه لا يرى جانبه ، فالى كم يسبح وهو فى السباحة حتى يعيى ويلقى بيديه الى التهلكة ، وربما هاج ريح فيغرق فى تلك الأمواج ، فالكيس من لزم الساحل وتجنب البحر ، فهو فى سلامة ومأمن ، وما من أحمق يدخل البحر فى قلة المبالاة حتى يغرق ، فاذا هـــو قد هلك ، ومن كان قويا فى ذات يده ، وهيأ (١١٦) مركبا بآلاته وأدواته ورجاله وأشرعه ، فركب البحر فى مركب لم يضره ، وكذلك [حـاله] (١١٨) فى البر ، لأن سفينة تعرض البحـر بطوله (١١٩) وقد أطبق (١٢٠) البحر ، فان سكنت الريح أرساها وان هاجت أجراها ٠ فكذلك الآدمى يجره حرصه الذى فى جوفه ، فليس لحرصه نهـاية ترى كالبحر الذى لا ترى أطرافه ، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقرأ من الذى نزل ثم رجع : لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى اليهما ثالثا ، ولا يملأ جـــوف ابن آدم الا التراب ، ويتـــوب الله على من

تاب (١٢٢) . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله تبارك اسمه أن صاحبه هذا كلما ازداد تناولا من الدنيا لم يدعه ما فى قلبه حتى يطلب مزيدا وذلك [هو] (١٢٣) حرصه الذى قد غرق فيه قلبه فأهلكه ، ثم قال فى آخره ويتوب الله على من تاب .

فالتوبة من العبد أقباله على الله بقلبه ،والتوبة من الله تعالى على العبد اقباله على العبد بوجهه الكريم ، وتلك (١٢٤) سفينة (العبد المؤمن) (١٢٥) وكما أن السفينة بلا أداة وآلة ورجال (١٢٦) ، لا تغنى عنه شيئا ، فكذلك التوبة لها شعب حتى يأتى على الشعب كلها ، وهو أن يعرض بقلبه عن (١٢٧) جميع شهوات النفس وعن هواها ومشيئاتها ، فكذلك الاقبال كل الاقبال ، فمن فعل ذلك فقد أمن من الغرق لأنه أوقع (١٢٨) قلبه فى بحار العظمة ، فامتلأ (١٢٩) قلبه حتى شبع وروى ، وغاب الحرص عن صدره وذاب فى نفسه ، فصار بمنزلة سفينة قد طبقت عرض البحر ، فان اهتاج البحر فانما هو بحر العظمة (الذى) (١٣٠) جرت سفينة بريح طيبة ، وشراعها حي الله ، وريحه شوق العبد الى الله ، فلو أخذ الدنيا كلها بكفة لقوى عليها ولم تضره ، لأن الحرص مفقود ، وان فخذها (فقد) (١٣١) أخذها من الله ، وأخذها لله ثم أمسكها لله ثم ردها الى الله فهو الخازن يأخذها بحق ، ويمسكها بحق ، ويصرفها فى حق ، ليست له فى ذلك شهوة ولا نهرة .

قال رحمة الله تعالى : ان القلب الذى عليه رين (١٣٢) الذنوب بمنـــزلة المرآة التى قد صدأت (١٣٣) ، فاذا فكرت فى شىء من أمـــور الآخـــرة لم يتراءى لك ، فاذا صقلت قلبك بترك الذنوب صار كالمرآة المجلاة ، فاذا فكرت فى سالف الذنوب تراءى لك متجها فاشتد عليك الحزن من ذكرها ، وعظيم (١٣٤) موقعها منك . واذا فكرت فيما أعد الله لأهل المعاصى ، هالك وفزع قلبك لعظيم ما تمثل لقلبك من عقابه . واذا تفكرت فى دار المطيعين (١٣٥) كرمت بالحياة وطار قلبك شوقا الى ما تمثل لك من كراماته لأوليائه . واذا تفكرت فى أمور يوم القيامة تعاظم عندك شأنها ، وقلقت وغلبك الحياء من ربك ، واذا فكرت فى أمر الملكوت عظم شأن العبودة . واذا لاحظت جلاله وعظمته كان صدرك ممتلئا نورا (١٣٦) ، وغلب نور ذكر جلاله ومهابته على ذكر الجنة والنـــار والقيامة ، وكل شىء سواها (١٣٧) ، ولهى قلبك عن ذلك كله ، ووقع القلب فى بحار العظمة بذلك حتى صار وله القلب الى الله سبحانه وتعالى .

باب ما ذكر فى الأسماء (١٣٨)

[أسماء الله الحسنى]

قال [أبو عبد الله] (١٣٩) : وبلغنا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان لله تسعة وتسعين اسما ، مائة غير واحد ، من أحصاها دخل الجنة ، وقال انه (١٤٠) وتر ، هو الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر (١٤١) ٠

قال رحمه الله تعالى أبو عبد الله محمد الترمذى : وجدنا الأسماء أكثر من تسعة وتسعين ، [ونرى غير] (١٤٢) التوقيت الذى وقت فى حديث أبى هريرة ، ولكن تلك الألفاظ يؤدى (١٤٣) بعضها عن معنى بعض ، فليس معناه عندنا أن من أحصاها أى من عدها دخل الجنة ، ولكن من أحصاها أى أطاق القيام بها ، وكان عالما بنور القلب بذلك ، ثم قام أى بتحقيق ذلك العلم فعلا ٠ وقوله أحصى يحصى أى أطاق يطيق ، وهو قوله (تعالى) (١٤٤) : « **علم أن لن تحصوه** » أى لن يطيقوه ٠

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : استقيموا ولن تحصوا (١٤٦) ، أى تطيقوا ، ولو كان معناه العدد لكان كل من يعده قد استوجب الجنة ، فان كان معناه هكذا ، فمن عد واحدا منها فقد استوجب ، على طريق أنه مؤمن ، واعترف باسم واحد مجمل ، فهذا الفضل (١٤٧) ما يحتاج الى احصائه وقد آمن به باجماله (١٤٨) ، واستولى هذا المحصى لهذه الأسماء ، والذى لم يحصى منها الا واحدا بدخولهم الجنة كلهم ، فهذا عن الكلام غير جائز على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يتوهم مثله ، ولكن من أحصاها أى أطاق القيام بعملها وتحقيقها فعلا ، والمؤمنون قد آمنوا به ، بأنه ربهم ، بأنه ليس كمثله شىء ، فنفوا عنه ونزهوه عن كل متنزه منه ، وبأنه ممدوح بكل مدح ، موصوف بكل جميل ، واعتقدوا ذلك بقلوبهم مجملا ، ثم لم يتبحر (١٤٩) فى علم ذلك الا خصائص من الناس ، فذلك قوله صلى الله عليه وسلم فيما جرى (١٥٠) فى غير حديث : عالم بالله وبأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، وعالم بالله ليس عالما (١٥١) بأمر الله ٠

وقول داود عليه السلام لربه : أعلمهم بك أشدهم لك خشية ، وما علم من لم يخشك ، وما خشية من لم يطع أمرك (١٥٢) • وهو قوله تعالى : « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » (١٥٣) •

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : العلم علمان (١٥٤) ، فعلم فى القلب فذلك النافع ، وعلم فى اللسان فذلك حجة الله على آدم ، فالعلم الذى على اللسان حين ظهر على اللسان ، ولكنه كان من العلم الذى مجمل فى القلب ، وهو الايمان بالله • والعلم النافع الذى هو فى القلب انما هو متبحر فى معرفة الله عز وجل ، والعلم بأسمائه الحسنى ، وانشراح الصدر به ، واستقرار اليقين بذلك فى قلبه ، فذلك الذى يورثه الخشية والحياء ، والأمل فيما لديه، وحسن الظن به فى النوائب ، ويفهم من ذلك فهم العلماء بالله ، وهم الذين انشرحت صدورهم بالعلم بأسمائه الحسنى وأمثاله العلى ، فاستنارت (١٥٥) قلوبهم بأنه رب وأنه اله ، وأنه صمد اليه يقصد ، وأنه عزيز لا يمتنع منه شىء أراده ، وأنه قريب لا يغفل عنهم فى نوائبهم ، وأنه رحمن (١٥٦) رحيم فآملوه لكل خير ونوال ومعروف ، وأنه حكم فلم يخافوا جوره ، وأنه غنى فسكنوا اليه ، وأنه عليم قدير فاطمأنوا اليه ، وأنه قهار جبار ، قهر الخلق وجبرهم حتى لا يقدروا أن يخرجوا من مشيئته فخضعوا له ، فكما نطق (العبد) (١٥٧) بأنه رب ، رأى بقلبه أنه ملك الأشياء بقدرته ، فانقطع طعمه عن سواه ، وأنه كريم فرجوا فضله وأنه حليم فلم يقنطوا من رحمته اذا أذنبوا، وكما نطق بأنه اله لم يتوله بقلبه الى أحد سواه فى احراز (١٥٨) منفعة أو دفع مضرة ، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من استغنى (١٥٩) بالله أغناه الله ، وكما نطق بأنه صمد لم يقصد بقلبه فى حاجته الى سواه ، وكما نطق بأنه مجيب دعاه فأحسن به الظن ، وكما نطق بأنه قريب لم يضق فى نوائبه ولم يفزع الا اليه ، وكما نطق بأنه عزيز لم يخف فوت الأشياء التى ضمنها له من الرزق والحفظ والتأييد والنصر ، وكما نطق بأنه عليم أمن الضياع من أجل الغفلة ، وكما نطق بأنه صادق رجاه ، وكما نطق بأنه كريم أمله ، وكما نطق بأنه حليم ورحمن ورحيم لم يقنط من رحمته ، وكما نطق بأنه قادر قوى سكن لوعده واطمأن واستراح من ظلمة الهوى ووسوسة العجائب (١٦٠) التى تورد على القلب ، فليس من أحد علم ذلك كله حتى سكن (١٦١) فى قلبه ، الا هاب الله عز وجل ، واقشعر (١٦٢) جلده من خشية الله ، وخرس لسانه من غير عيى ولا بكم ، وسكن قلبه عن الاضطراب ، وخرج

من ظلمات النفس الى النور الأعظم ، واستوجب دخول الجنة بلا حساب ، لأنه قد ذاق الخوف والحياء من ربه فى دار الدنيا ٠

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : « **وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ولا آمنين** » (١٦٣) ٠ وفى الأخبار يوجد تحقيق ما وصفنا ، فلم (١٦٤) يجب التطويل ، ومن ذلك قوله تعالى : « **ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ، الا من شهد بالحق وهم يعلمون** » (١٦٥) ٠ أى شهد بلا اله الا الله وهو يعلم (١٦٦) ذلك ، وانما أوجب الشفاعة يوم القيامة لمن علم الشهادة ٠ وقوله تعالى : « **فاعلم أن لا اله الا الله** » (١٦٧) ٠ ولو كان المبتغى منه علم الجملة لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم ذلك ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضل العلم لا اله الا الله ، وقوله للرجل الذى أتاه فقال : علمنى من غرائب العلم ، فقال : فهل عرفت الرب ؟ فقال : نعم ، قال : فما صنعت فى حقه ؟ قال : ما شاء الله، قال : فهل عرفت الموت ؟ قال : نعم ، قال : ماذا أعددت له ؟ قال : ما شاء الله، قال : اذهب فتعلم رأس العلم ثم تعال حتى أعلمك من غرائب العلم (١٦٨) ٠

أو لا ترى أنه قد آمن وعرف ربه فسأله عن رأس العلم ، وكم يكن قد تبحر فيه ، فلما سأله عن حقه عجز عنه ، فدلك هذا القول منه على أن العلم هو القيام بحقوقه ، والعلم بالله هو القائم بحقوق الله ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس العلم ، ودله على تعلمه وسماه أيضا معرفة ، وهو جائز فى اللغة ، لأن ذلك من حق المعرفة ٠

قال رحمه الله تعالى : ان الله تعالى خلق العرش فما دونه الى الثرى ، وحشاها خلقا ، ودعاهم أجمعين الى قول لا اله الا الله ، فأسماؤه (١٦٩) تعالى كثيرة ، فلم يدعهم الى أن يقولوا لا رب الا ربنا ، ولا ملك الا ملكنا ، ولا خالق الا خالقنا ، وانما دعاهم الى هذا الاسم فقال : قولوا لا اله الا الله ، لأن العرش فما دونه لما ألهمهم ربوبيته خافوا المضار والمنافع ، فأولههم كلهم الى نفسه ، فدعاهم الى أن ينفوا كل موله اليه الا هو ، لأنه من شأنه أن يسلط بعض خلقه على بعض ، فالنور يطفىء النار (١٧٠) ، والماء يطفىء النار ، والنار تأكل الأشياء ، فبالقدرة التى أبرزها ، والربوبية التى أظهرها ، أبان شأنه من الأشياء ، فالخلق ذو معنيين بين مضار ومنافع ، وخوف ورجاء ، كيف (١٧١) ذلك فيهم ٠

وهو تبارك اسمه ، بخلاف خلقه ، لا تغيره الاحوال ، ولا تجرى عليه هذه الأشياء من المضار والمنافع ، ولا تعتريه (١٧٢) ، الأحوال ، فقال تعالى : « **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** » (١٧٣) ٠٠ أى لونين اثنين ليكون هذا دليلا لكم على أنى لا شبه خلقى ، ولا يشبهنى خلقى ، فنطق الخلق والحجب والسماوات والملائكة الى الثرى بهذه الكلمات ، كذلك روى لباقى الخبر ٠ ثم قال تعالى : « **وما أرسلنا قبلك من رسول الا يوحى اليه أنه لا اله الا أنا** ، فانى أشهد بذلك وملائكتى ، وأولو العلم ، وشهادتى أعظم من شهادة الأنبياء والمرسلين ، وشهادة العلماء به ، وأول من شهد بذلك قبل خلقه ، هو تبارك اسمه ، فقال تعالى : « **شـــهد الله أنه لا اله الا هـو والملائكة وأولو العلم** » (١٧٦) تبكيتا لأعدائه واستحقارا لهم ، أى أنكم لم تشهدوا بأنه لا اله الا أنا ، فانى أشهد بذلك وملائكتى ، وأولو العلم ، وشهادتى أعظم من شهادة جميع خلقى ، فمن من عليه بهذه الشهادة لزمه اسم العلم ، وصار منسوبا اليه ٠ وأكيس العلماء ، وأعظمهم وأوفرهم حظا من العلم ، من نطق بلا اله الا الله صادقا من قلبه ، ثم قال عز وجل فى تنزيله (١٧٧) : « **الطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات** » (١٧٨) ٠ القول الطيب للبدن الطيب ، والبدن الطيب للقول الطيب ، فلا اله الا الله أطيب الأسماء وأطهرها وأصدقها وأعلاها ، لأنها خرجت من نور المعرفة ، فكذلك تنفذ الحجب الى ربها حتى تقوم بين يديه، فوجدنا فى ذكر هذه الآية أن المؤمن شكل لقول لا اله الا الله ، وأن هذا القول شكل للمؤمن ، فكل واحد منهما شكل لصاحبه (١٧٩) ٠ فكما أن هذه الكلمة ليس من الكلام كلمة هى كفؤها ، فكذلك هذا الجسم ليس من الأجسام له كفؤ، ولهذا ما جاء فى الخبر أن المؤمن أكرم على [أى الله] (١٨٠) من الملائكة والعرش ، ثم قال عبد الله بن سلام (١٨١) ، عندما استعظم من لم يعقل قوله : أرأيت الساجد أكرم أم المسجود له ، : ألم تكن من طينة آدم يوم خلقه بيده ؟! ألم تكن فى صلبه يوم أسجد له الملائكة ؟! والله تعالى يقول : « **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا** » (١٨٢) ٠ ومما تحقق مما قلناه قـوله عز وجل : « **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية** » (١٨٣) ٠ فالعرش وما دونه قد نطقوا بلا اله الا الله ، ولكنا برزنا عليهم بهذا القول ، فضلا عن أن هؤلاء آمنوا به جبرا ، والمؤمنون آمنوا به عرفانا (١٨٤) ، ألهم الخلق ربوبيته فآمنوا به ، وانكشف لهم الغطاء عن سلطانه وملكوت عرشه ، فوحدوه وخافوه ، وأجلوه وأعظموا باريهم سرا وجهرا ٠

قسمة العلماء والعلم :

والمؤمنون خلقوا بخلاف غيرهم ، خلق آدم أجوف ثم وضع فيه أشياء ، مختلفة من بين رأفة ورحمة ، ورغبة ورهبة ، وشهوة وغضب ، والملائكة عليهم السلام لم يخلقوا هكذا ، فصنف (١٨٦) منهم خلقوا للرحمة ، وصنف للغضب، وصنف للرسالة ، وصنف للعبادة ، وصنف للخزانة ، وصنف لمعاونة بنى آدم، [وكل] (١٨٧) صنف منهم مطبوعون على ذلك · وسائر الخلق كذلك من الخلق للعمل ، فهو كله (١٨٨) سخر للادميين ، ووضع فيها تلك الأشياء التى فيها منافع الآدميين بمقدار معلوم ووزن معلوم فى موضع معلوم ، فهم كلهم الى الثرى مسخرون موكولون باخراج ما وضع فيهم من المنافع للآدميين ، وأعطاهم العلم على قدر ذلك من الحاجة الى اخراج ما سخره اليهم · وخلق آدم عليه السلام للخدمة، ووضع فيه أنواره ليخرج الخدمة لله تعالى من باطنه، والحاجة بالآدمى الى العلم بالله حسب ماله خلق ، فانظر كم بين السخرة والخدمة ، فالسخرة لنا والخدمة لله عز وجل ، فلو أن أحدنا أقيم فى خدمة ملك من ملوك الدنيا ، لعظم شأنه عنده ، وأحتاج الى علم كثير ، وأدب عظيم ، وكياسة متداركة ، حتى يصلح لخدمته ولدوام القيام بين يديه ماثلا ليله ونهاره حتى لا يضيع (١٨٩) شيئا من خدمته ، فكيف بمالك الملوك ، رب العزة واله العالمين، فمن فهم هذا تحير قلبه فى هذا ، وقال كيف لى بالقيام فى خدمة ربى ؟؟ فلما نال العلم بالله ، والعلم بتدبير الله يسرا عليه الخدمة ، لأن هذين العلمين يهديانه الى الخدمة ، فعندما يقف خادما لربه ، فاذا وقف قلبه (١٩١) مقام الخدمة تام بعلم الأمر والنهى وثبت ، وعندها أمكن العبد الائتمار بأمر الله، والانتهاء (١٩٢) بنهى الله دق أو جل ، واستوجب الحفظ من الله تعالى ، والثبات فى تقلبه فى الأمور ، قال له قائل : ما الخدمة وما علمها ؟؟ قال : أما الخدمة فالوقوف بقلبك بين يديه ماثلا منتصبا كالمتشمر فى فراطق (١٩٣) الخدمة محقا مبادرا مسرعا ، مسابقا ، مركنا فى جميع الأمور الحب له ، وأما علم الخدمة فعلم النشاطين ، قيل : وما علم النشاطين ؟ قال : نشاط القدرة والربوبية والتدبير ونشاط العبودة من الذكر فى القيام والركوع والسجود والصيام والصدقة والحج ، وسائر أعمال البر والطاعة · فاذا طالعت نشاط القدرة بعقل وافر ، ثم طالعت نشاط العبودة بكياسة وحذق أدركت تدبيره فى العبودية ، وباطن أمره ونهيه ، وعلل التحريم والتحليل ، ولماذا حلل ولماذا حرم ، فبعلم نشاط القدرة تملك نفسك ، وبعلم نشاط العبودة

تملك جوارحك وخواطر قلبك ، والعلم بالله وبقدرته يؤدبك فى باطنك ، والعلم بتدبير الله يؤدبك في ظاهرك ·

قال له قائل : كيف يؤدبه فى باطنه ؟؟ قال : يجعله ذلك العلم مراقبا لله ، فيقف على حدود المراقبة فى الأمور كلها ، ويورثه الحياء منه ، ويقف به على مهابة أسرار الله ، ويقف به على الحذر والحزم ، وترضى نفسه رضا فى أثقال المنن حتى يؤديه من هذه المنازل الى التعلق به فى كل الأحوال ·

قال له قائل: كيف يؤدبه علم التدبير فى ظاهره؟؟ قال : اذا [علم] (١٩٤) علم التدبير تصورت (١٩٥) له صورة الأعمال ، فرأى مراتب الأعمال عند الله ، فالصلاة لها مرتبة ، والزكاة لها مرتبة ، والصدقة لها مرتبة ، وكذلك سائر أعمال البر ، لكل عمل مرتبة ، ولكل عمل ثواب بخلاف العمل الآخر ، ولكل عمل جزاء بخلاف جزاء العمل الآخر ، ولكل عمل صورة ، والصورة رأس العمل ·

قال له قائل : اشرح لنا شيئا منه حتى نقف عليه ، قال : الصلاة اقبال العبد على الله ، والزكاة فرار من شركها وشبكاتها الى الله ، والصوم وثاق النفس ورباطها لله ، والجهاد حمية وتعصب لله ، والحج وفاء البيعة الأولى (١٩٦) وتجديد بيعة أخرى ، والجمعة قبول ضيافة الله ، وتناول جوائزه، والأعياد عرض العبيد على الله ، ومجالس الذكر تملق العبيد الى الله ، ومرتع فى رياض الله ، ومؤاخاة المؤمنين ومصافاتهم حرمة عسكر الله ، والدعاء الى الله نصحة الله ، والرغبة الى الله افتقار العبد الى الله ، فالنظر الى ما نطق به التنزيل وما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثواب هذه الأشياء وحسن الجزاء ، هل يشبه بعضه بعضا ، فاذا نظرت الى ذلك علمت أن بينهم تفاوتا (١٩٧) ، وانما اختلفت (١٩٨) مثوباتها باختلاف صورها ،ومن التدبير خرجت الصور ·

فلسفة العبادات :

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى : فمن عرف هذه الصور من الأعمال فانما يعرفها بالعلم بتدبير الله تعالى ، فعلم حسب ذلك يقيم حرمتها ويضعها مواضعها ، ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان اذا صلى كيف

كان يعطى كل عضو منه حقه من الصلاة ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : اعطوا مرافقكم حظها من السجود ، ومعناه أن لا تبسط ذراعيك فيبطل حظها من السجود ٠ وقال ابن مسعود رضى الله عنه : لأن ترضى (١٩٩) ابهامى رضا أحب الى من أن أضعهما لغير القبلة اذا وضعت كفى بالأرض فى حال السجود ٠

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صلى الفريضة لم يصل فى مكانه شيئا (٢٠٠) من التطوع اقامة لحرمة الفريضة ، وكان اذا تغوط بتياسر (٢٠١) ويأمر بذلك ولا يتيامن اقامه لحرمة اليمين، وكان صلى الله عليه وسلم اذا صلى الى عمود أو سارية أو عصى حطه (٢٠٣) على حاجبه الأيسر، ولم يجعله نصب عينيه اقامة لحرمة القبلة ٠

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه اذا سلم خفض التسليمة الأخرى قليلا من التسليمة الأولى اقامة لحرمة كاتب اليمين ٠ فهذه وما أشبهها فى جميع أعمال البر محفوظ ذلك عنهم ومتعاهد ، وكذلك فى الصوم والزكاة تركنا وصفه لأنه واد عميق ٠

وانما أدركوا ذلك لأنهم علموا التدبير وطالعوا صور الأعمال ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما من نفس تموت تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا (٢٠٤) رسول الله ، ويرجع ذلك الى قلب موقن ، الا غفر الله له ، فهذه شهادة يشهد بها عند الموت ، وقد ماتت منه الشهوات ، وذهلت نفسه لما حل به من هول الموت ، وذهب حرصه ورغبته ، وسكنت أخلاق السوء منه ، وذل وانقاد وألقى [ما] (٢٠٥) بيديه تسليما (٢٠٦) لرب العالمين القاء العبيد ، فاستوى الظاهر منه والباطن ، فيلقى الله عبدا مخلصا ، فغفر له بتلك الشهادة التى وافق [فيها] (٢٠٧) ظاهره باطنه ، وأما الذى يقول [الشهادة] (٢٠٨) أيام صحته ، فقوله مع التخليط ، لأنه شهد هذه الشهادة وقلبه مشحون بالشهوات والمنى ، ونفسه شرهة بطرة ، تزيد على الدنيا عشقا وحرصا ، وولوعا على الأركان من الأفعال علامة ما فى باطنه ، فلا يستوجب بذلك القول المغفرة ، ولهذا ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢٠٩) : لا يقولها عبد عند الموت الا هدمت ذنوبه ، قيل : كيف يا رسول الله لمن قالها فى الصحة ؟؟ قال : هى أهدم وأهدم ، فانما هدمت ذنوبه لأنه قالها وقد ماتت عنه شهواته ، وندم على ما فرط منه ندما صحيحا ، فهو

تائب صادق ، والتائب على موعد (٢١٠) مع الله تعالى فى تنزيله ، « **وهو الذى يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون** » (٢١١) ٠ ويكفر عنه [أى التائب] (٢١٢) ويدخله الجنة ، **قيل : فكيف من قالها فى** الصحة ؟؟ قال : أما [لو] (٢١٣) يقولها فى الصحة على تلك الصفة التى هو عليها عند الموت بعد رياضة نفسه وموت شهواته وحرصه ورغبته ، وبعد زهادته فيها وصفائه عن التخليط ، فاذا قالها فى هذا الوقت فهى أهدم وأهدم ٠ وأما المخلط [وهو] (٢١٤) عبد شهواته وعبد دنياه وعبد درهمه وعبد ديناره فلا نعلم أن قول [الشهادة] (٢١٥) هذا يهدم ذنوبه حتى يصير مغفورا له بهذه الكلمة ، لأنه لا ترجع هذه الكلمة منه الى قلب موقن كما اشترط الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه ، بل ترجع هذه الكلمة الى قلب مفتون بدنياه، مأسور بشهوات نفسه ، سكران ، عن الآخرة حيران ، عن الله تعالى ميال ٠ والقلب الموقن الذى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القلب الذى استقر لربه ، واطمأن لحكمه ، وقنع بقسمته ، وانقاد لأمره ، وشخصت عيناه الى رحمته ، قد أيس (٢١٦) من كل شىء الا رحمته ، وهو الذى [لو] (٢١٧) قالها [أى الشهادة] (٢١٨) هدمت ذنوبه ، لأنه صادق فى قوله ٠

صدق التوحيد :

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من قال لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، مخلصا بها روحه ، مصدقا بها لسانه وقلبه، الا فتقت له السماء فتقا حتى ينظر الرب تعالى الى قائلها من أهل الدنيا ، وحق العبد اذا نظر الله اليه أن يعطيه سؤله (٢١٩) ٠ فالروح انما تخلص من شهوات النفس وأسرها ، وكذلك القلب اذا نطق اللسان بالكلمة ولم تنازعه النفس ولا القلب ولا الروح ، فكان ذلك صدقا منه ٠

وروى فى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : من قال لا اله الا الله مخلصا ، دخل الجنة ، قيل يا رسول الله ما اخلاصها ؟؟ قال : أن تحجزه عن المحارم ٠ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : يا معاذ أخلص يكفيك القليل من العمل ، والاخلاص أن تخلص ايمانك حتى لا تفسده شهوات النفس ، والفرائض التى فرضت عليك قليل العدد ، انما الشأن فى المحارم ٠

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان الله عهد الى أن لا يأتينى أحد من أمتك بلا اله الا الله مخلصا لا يخلط بها غيرها ، قال حرصا على الدنيا وجمعا لها ومنعا لها ، يقول بقول الأنبياء ويعمل عمل الجبابرة (٢٢٠) ٠

وروى عنه قوله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى قوله تبارك وتعالى : « **فوربك لنسألنهم أجمعين** » (٢٢١) ٠ قال : عن لا اله الا الله ، معناه عندنا عن صدق لا اله الا الله والوفاء بها ، وذلك أن الله تبارك وتعالى ذكر فى تنزيله فقال عما كانوا يعملون ، ولم يقل عما كانوا يقولون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى عن الوفاء بها والصدق لمقالتها ، وقال الحسن رحمه الله ليس الايمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكنه ما وقر فى القلب وصدقته الأعمال ، وانما ثمرة هذه الكلمة لأهلها ، وأهلها من رعاها حتى قام بوفائها وصدقها ، ألا ترى الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس على أهل لا اله الا الله وحشة فى القبور ولا فى النشور ، وكأنى أنظر اليهم وقد خرجوا من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور (٢٢٢) ٠ وانما ذهبت عنهم الوحشة فى القبور والنشور لأنهم بشر بالنجاة من العذاب والحساب ، وبالنور يوم القيامة ، ولقوا روحا وريحانا عند الموت ، وفى الآخرة نضرة (٢٢٣) وسرورا ٠

ومن قدم على ربه مع الاصرار على الذنوب فليسوا من أهل لا اله الا الله وانما هم من أهل قول لا اله الا الله ، فأهل قول لا اله الا الله من كان مرجعه القول والعمل بهواه ، وأهل لا اله الا الله من كان مرجعه الى اقامة هذا القول وفاء وصدقا ٠

ألا ترى الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا اله الا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فاذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ردت عليهم ، وقال الله عز وجل كذبتم ٠

وفى رواية أخرى عنه صلى الله عليه وسلم ، لا يزال [أهل] (٢٢٤) لا اله الا الله حسناتهم بها مقبولة ، وسيئاتهم بها مغفورة (٢٢٥) ، وتدفع البلايا عنهم ، ما لم يبالوا ما نقص من دينهم اذا أكمل لهم أمر دنياهم ، فعند

ذلك ان قالوا لا اله الا الله ردت عليهم الملائكة وقالت لهم : كذبتم لستم من أهلها لستم بهـــا صـــادقين ، وقوله كذبتم أى كذبتم فى شهادتكم . قال له قائل : فما صدق لا اله الا الله والوفاء بها ؟؟ قال : منزلتان احداهما (٢٢٦) أعلا من الأخرى ، فأما المنزلة الأدنى فمن صدقها أن تقف عند صنعه كالعبد ، وتقف عند أمره كالعبد ، فاما صنعه فأحكامه عليك وتدبيره فيك مثل العز والذل ، والصحة والسقم ، والفقر والغنى ، وكل حال مكروه أو محبوب فتقف هناك لا تعصى الله فى جنب ما حكم عليك ودبره لك ، وهـــو أن تحفظ جوارحك السبع (٢٢٧) عند كل حكم يدبره لك ويحكم عليك [به] (٢٢٨) .

وأما أمره فهو أداء الفرائض واجتناب المحارم ، فلا تعصيه فى ترك فريضة ، ولا انتهاك محرم ، فهذا صدق لا اله الا الله والوفاء بها ، وهـــو أدنى منزلة لأنه يعد فى حفظ الجوارح .

وأعلاها منزلة أن يكون فى هذين الوجهين (٢٢٩) حافظا (٢٣٠) للقلب، قد راض نفسه وماتت شهواته ، فما ورد عليه من أحكام الله تعالى رضى بها قلبه ، وأهلت (٢٣١) نفسه الى قبولها حبا لله واعظاما وشغوفا به ، وما أعطى من الدنيا قنع به ، وكان كالخازن الأمين الذى يعطيه مولاه شيئا يأتمنه عليه ، فهو يمسكه كالأمانة ، يرقب متى يؤمر الرد (٢٣٢) حتى يبذله من غير تلجلج ، وما ورد عليه من أمره ونهيه أنفذه من غير أن يلتفت الى عوض منها فى عاجلة، أو ثواب فى آجلة ، فمثل من تكلم بلا اله الا الله بلا رؤية (٢٣٣) قلب ولا استعمال عقل كمثل من يلقى فى زرعه ترابا ليقويه ، ثم لم يسقه (٢٣٤) الماء ، فلا يزيده التراب الا يبسا ومنعا من النبت ، ومن سقاه استخرج الماء قوة ذلك التراب فأداها الى الزرع ، فكذلك من تكلم بها [أى بلا اله الا الله] (٢٣٥) ولم تكن له حياة قلب يعقل ما قال فذلك كالتراب لم يزده الا ثقلا ، لأنه انما اقتضى مرة واحدة فى جميع عمره ، وذلك الاقرار بتوحيده وما سوى ذلك تجـديد لقوله ، لأنه اذا قال لا اله الا الله فانما يقضى منه قبل ذلك وله القلب اليه ، فاذا لم يوله قلبه اليه لم يقبل منه ، وهو الكافر لأنه أشرك به غيره ، وأن كلمة لا اله الا الله لازم للخلق الاعتقاد بها قلبا ، والاعتراف بها نطقا ، والوفاء بهـــا فعلا .

فأما الاعتقاد بها قلبا بأن يعتقد بقلبه نفى القدرة عن جميع من تولهت اليه القلوب فى المنافع والمضار سواه .

وأما الاعتراف بها نطقا فان يقول لا اله الا الله ·

وأما الوفاء بها فعلا فان يكون له [أى قائلها ومعتقدها من الخلق] (٢٣٦) من الثقة فى باب النوائب ، ومن التوكل فى باب الرزق ، ومن التفويض فى باب الحوائج ، ومن الصبر فى باب المتشابهات ، ما يحفظ هذه الجــوارح السبع التى (٢٣٧) أؤتمن العبد عليهن ، ثم وكل برعايتهن من أن يعصى الله تعالى بجارحة منها بسبب شىء من هذه الأبواب ·

فهذا ما لزم الخلق ، فليس لهم عن ذلك محيد ، ولا لهم منه بد ، فان أقامها خرج من الظلم ، وهو من المطيعين لربه عز وجل ، ثم لأهل الدرجات فيما وراء ذلك سعى الى الله تعالى بالقلوب ، فكلما ازداد القلب استنارة بما عقد ، كان للنطق (٢٣٨) به أنور وعند الله أعظم خطرا وقدرا ، وكان الوفاء به أصفا وأخلص ، وفى الميزان أثقل ·

فهذه [هى] (٢٣٩) العبودة ولهذا خلق الخلق ، وبهذا أنزل الوحى ، والى هذا دعت الرسل ، فقال جل جلاله فى تنزيله : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » (٢٤٠) ، أى ليكونوا لى عبيدا كما خلقتهم عبيدا · وقال تعالى: « **وما أرســـلنا من قبلك من رســـول الا يوحى اليـــه أنه لا اله الا أنا فاعبدون** » (٢٤١) · أى اعبدونى بهذه الكلمة اعتقادا بالقلب واعترافا باللسان ووفاء بالجوارح ، فهذا أصل الدين الذى لم يؤذن لمخلوق أن يتفرق فيه ، فان التفرق فى هذا شرك ، والاجتماع على هذا اخلاص ،وعلى هذا كان آدم فمن دونه الى محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم انى مشير لك [الى] (٢٤٢ ما اشتركنا فيه ، فافهم نضر الله وجهك بما ظلل عليك من سحائب الرحمة ، فغمرك وصيرك فى بحار آلائه (٢٤٣) ومننه ، وغرقك بعد ذلك فى نعمه ، وجعلك من القائلين عدلا لا اله الا الله ، كلمة تغلب (٢٤٤) على ألسن خلق لا يحصى عددهم الا الله تعالى ، وذلل لسانك بعبادتها ، وخففها عليك ، ويسر لك ادارتها وحمل ثقلها ، لا اله الا الله كلمة لو حملت السموات والأرض لقصمتهن وصيرتهن قطعا دكا ، كلمة تزين الأرضين سمعها ، وتتنافس وتتفاخر بها الجبـــال والأودية والمفاوز (٢٤٥) والبقاع على غيرها وتتفاضل بها عليها ، كلمة تخرق الجو الأعلى ، وتخرق البحار الجوية الهوائية ، وتخرق غلظ الطباق السبع، وتخرق صفوف الكروبين وصفوف الروحانيين ، وتخرق بحار النار ، وتخرق

بحار الظلمة ثم بحار النور واحدا فواحدا ، وتخرق بحار الثلج وبحار البرد، كلمة تخرق الحجب الوحيية ، والحجب القدسية ، والحجب النورية ، والحجب الدخانية ، والحجب البرقية، والحجب الياقوتية، والحجب الغمامية، والحجب الجـــوهرية ، والحجب اللوليـــة ، والحجب النيرانية ، ولا تزال تخـــرق حجابا (٢٤٦) بعد حجاب حتى تنتهى الى حجاب المهابة ، وعدد كل حجاب سبعون ألف حجاب ، وغلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام ، بين كل حجاب من صحارى النور مدة خمسمائة عام ٠

كلمة تخرق هذه الحجب كلها بما فيها من المفاوز والبرازى النورانية حتى تقف بين يدى ربنا ، رب العزة ، ولها صوت ودوى حول العرش ٠

كلمة ألبست من القدرة والسلطان ما تخرق [به] (٢٤٧) هذه الحجب، وتقطع هذه المفاوز أسرع من لمحة برق أو طرفة عين ، حتى تقف مكانها من عرش الرحمن ، ولها ضجيج ودوى فتسمع الملائكة الصوت فترتفع أصواتهم من حول العرش من الملائكة الذين حفوا بالعرش ، والملك الذى يسمى الروح ، بالتسبيح والتحميد والتهليل والتقديس والدعاء ، يقولون سبحانك يا عزيز سبحانك ، وبحمدك سبحانك ، اللهم يا جليل سبحانك ، اللهم يا عظيم سبحانك، لا اله الا أنت فاغفر لقائلها ، وقه عذاب الجحيم ، وأدخله جنات عدن التى وعدته ، ومن صلح من الآباء والأزواج والذرية معه ، انك أنت العـــزيز الحكيم ٠

باب فى (٢٤٨) سر الله تعـــالى

[قال أبو عبد الله الترمذى رحمه الله تعالى] (٢٤٩) وان سر الله تعالى مثل القدر والعلوم التى حجب الله تعالى خلقه (٢٥٠) عن ادراكها ، تلك لفظة (٢٥١) لا تعرف ولا تملك ، وهى موضوعة على طريق التوحيد ، ومدرجة العقول الى التوحيد بادى للعباد ، فأهل الزيغ طالبون لها ، باحثـون عنها ، ومفتشون عليها ، ولن يزدادوا بذلك التفتيش الا حيرة وعمى ، لأنه علم لايدرك منتهاه [هو] (٢٥٢) بمنزلة بحر مظلم عميق لا يدرك حده ونهايته ، والسابح فيه كم يسبح حتى يغرق ويهلك ٠

ومن شرط التوحيد أن يطمع العباد فيما توحد الله تبارك وتعالى به ، وتفرد ، وحق على العاقل أن يعقل فيقول : اذا قلت الله واحد أحد صمد ، فأى علم فى الأحدية والفردية ؟! انما العلم فى الصفات ، صفات القدرة ، فاذا انتهيت الى وحدته وانفراده ، فأى علم هناك تطمع فى طلبه ، وقد انقطـع فى طلبه وقد انقطعت (٢٥٣) الصفات ، وكيف تصف علما فى لا صفة ٠

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أفضل ايمان العبد أن يعلم العبد أن الله تعالى معه حيث ما كان ، (٢٥٤) ، وهذا علم الانابة ، اذا أناب استنار قلبه فبقى خوفه معه ، فقيده عن المعاصى سرا وجهرا ٠ والظالم انما يعلم علم الايمان أن الله معه ثم لا تأخذه مخافة هذا العلم حتى يقيده ، فذلك العلم الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [أنه] (٢٥٥) عـلم اللسان ، وعلم المقتصد الذى أورثه المخافة والقيدة عن المعاصى وهو علم القلب الذى قال [فيه] (٢٥٦) رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك العلم النافع ٠

وأما المقـــرب فعلمه أنور من هـــذا وذاك ، عـلم يقـارب المعـاينة والموا كأنه (٢٥٧) ٠

ألا ترى الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن تعبد الله كأنك تراه، وصدقه جبريل ، فمن أعطى علم الانابة ، وهو النور الذى أناب ، أعطى فوجد المخافة قيده ذلك الذى ورد على قلبه عما كره الله تعالى ، ووقف به على سبيل الاستقامة ، ووقف به قلبه بين رجاء ومخافة ٠ ومن أعطى علم اليقين انكشف

الغطاء عن قلبه بنوره ، وهو أنور الأنوار ، فنظر الى جلال الله تعالى وعظمته، فاندست أعضاؤه بعضها فى بعض ، وماتت نفسه الشهوانية كشجرة رطبة أصابها الحريق فيبست فصارت جذعا ، وصارت أركانه كوعاء فيه رمل أو شىء مكانه ، فامتلأ حذرا وضعفا وعجزا ، ثم أحله مرتبة من مراتبه بين يديه، وأحيا قلبه به ، فقوى بالله ، وحبست شهواته فى سبيل الخير ، ورطب جسده، وانبسطت جوارحه ، وانفتقت أعضاؤه ، وعاش فى نعمائه وبشراه ونجواه بقية محياه ٠

العلم الكشفى القلبى :

وان علم الأشياء مجتمعة متراكمة فى الصدر بعضها على بعض فاحساس القلب من ذلك العلم هو علم القلب ، أداة الى الذهن والى الحفظ ، فالذهن قبله بما استودعه الحفظ حتى يؤديه عند الحاجة اليه ، فأداؤه عند الحاجة اليه كنبعان الماء من العين يتفجر منه الشىء بعد الشىء ، فما دام هكذا ساكن خامد لا قوة له ، فاذا تصور فى الصدر بعين الفؤاد قوى القلب بالذى تصور فذاك علم مستنير وفى القلب بقية ضعف وخمود ٠

فاذا انكشف الغطاء عن الصورة التى تصورت فذاك الفقه ، لأنه حين تصور الصدر أحس القلب بتلك الصورة علما ولم يره لأن الغطاء قام بينه وبين العلم ، وهو ظلمة الهوى ، فهو عالم بذلك الشىء ، يترجمه بلسانه ، ويتضمنه بحفظه ،ويتمثله بعقله ، وليست له قوة ينتصب قلبه لذلك ، ويتشمر بعقله ، ويطمئن الى (٢٥٨) غزارة العلم ٠

وقوله يكشف له الغطاء عن تلك الصورة التى صورها عقله عيانا للفؤاد ، فيقال لذلك العيان علم اليقين فهذا الذى انكشف له الغطاء ، وانفتق (٢٥٩)له الحجاب عن مكنون العلم ، فأبصر بعين الفؤاد صورة ذلك الشىء المعنى به ، فيسمى لذلك فقها ٠ واذا وقع بصر القلب على تلك الصورة المكشوفة عن الغطاء ، سمى ذلك الوقوع فهما ٠

فاذا وقع بصر القلب عليه استعمل عينا الفؤاد بما فيهما من النور ، فسمى ذلك الاستعمال رؤية ، وهو ترائى (٢٦٠) القلب ، ومنه اشتق الرأى ، وهو قوله عز وجل : « **انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما**

أراك الله » . فانما نسبه الى اسمه (الله) من بين الأسماء ، لأنه استعمل بصر قلبه بنوره الذى أولهه اليه ، وهو نور التوحيد ، ولو علم من أنسب الى الرأى ، وما وصفنا لاحتجوا بها على غيرهم ممن خالفهم فى مذهبهم ، ولكنهم فى خلو من هذا لأن صدورهم مظلمة بحب الدنيا وأخذ حطامها تأكلا ، وطلب الرياسه والعلو والجاه عند الخلق ، والحرص على جمع الدنيا ، ومن الكبر الذى فى صدورهم بما فى أيديهم من التنافس فى الدنيا ، والاعراض عن الحق استكبارا قد حجب ظلمة معاملتهم عيون أفئدتهم عن الملاحظه الى صورة الشىء . قال تعالى : « **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق** » (٢٦١) . ومع ذلك كله ينسبون أنفسهم الى الفقه ، ولا يعلمون أن الفقه هو انفتاء (٢٦٢) الحجاب عن عين الفؤاد الملاحظ ببصر القلب آيات الله وبراهينه ، وبيانه ، ويرى القلب منة الله تعالى عليه وحسن صنائعه ، وما خرج من نفسه من سوء المعاملة معه ، فيستحى القلب من ذلك ، فاذا استحيا القلب حييت النفس بحياة القلب ، فاذا حييت النفس صارت الاشياء لها (٢٦٤) معاينة ، وهو قوله تعالى : **كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين** » (٢٦٥) .. فعندما ابتشر ببشراه وانتذر بنذارته ، فبقوة البشارة تهللت (٢٦٦) نفسه ، وأعطت بزمامها متواضعة لله ، آيسة من جميع خلقه ، معرضة عن حب الدنيا والمحمدة ، وبقوة انتذاره ذلت [نفسه] (٢٦٧) وانقبضت ، وانخشعت عما يكره ربها هيبة له واجلالا ، وقام العبد ناصحا لله تعالى فى خلقه ذابا عن الحق وداعيا الى الخير ، قال الله تعالى فى تنزيله : « **فلولا نفر من كل فرقة ، منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، وليذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون** » (٢٦٨) .. وقال تعالى : « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** » (٢٦٩) .

العلم والحكمة :

وصنف منهم أعلا من هذا ، وهم الى الله تعالى وتقدس ، اذا فقهوا لما بصروا صور الأشياء فى صدورهم ، وعاينوا ما فى صور الأشياء من المعانى ، لأن المبتغى من صور الأشياء فى الصدور ، وجود ما فى الأشياء من المعانى (٢٧٠) ، فاذا طالعوا ما فى المعانى كان لهم الوجود فى المعانى ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما من آية الا ولها ظهر وبطن ، وما من حرف الا وله حد ، ولكل حد مطلع (٢٧١) ، فاذا كان لهم

الوجود أى الوجود لما فى المعانى من المطالعة ، سمى ذلك الوجود بصيرة ، وهى بصيرة النفس لأنه لما كان لهم الوجود انكشف الغطاء وهـــو ظـــل الهوى لأن ذلك غطاء ، وذلك لأن الهوى نفس النفس ، فلما فارقت النفس الهوى بقى ظل الهوى خيال على النفس ، واذا كان لهم الوجود انكشف كل غطاء دق أو جل ، وخشعت النفس لله وجالت قلوبهم فى الملكوت الأعلى ، وفتح لهم من الحكمة العليا ، فالعلم علمان ، والحكمة حكمتان ، ثم هما ذا أنواع ، فكما أن العلم أنواع فكذلك الحكمة أنواع ، لحديث النبى صلى الله عليه وسلم : ما من آية الا ولها ظهر وبطن (٢٧١) ، فظاهر الآية علم ، وباطن الآية حكمة ٠

قال جل جلاله ، وعظم شأنه ، وتعالى كبرياؤه ، وتقدست أسماؤه ، وسمت كلماته سبحانه وبحمده : « **ونعلمهم الكتاب والحكمة** » (٢٧٢) فالكتاب ظاهر القرآن ، والحكمة باطنه ، وهى التى يقال لها حكمة الحكمة ، وهى الحكمة العليا ، فلما آتاهم من الحكمة العليا عاينوا ما فى الملكوت بأبصـــار القلوب ، فصارت تلك المعاينة بصيرة للنفـــوس ، وذلك قوله تعالى ذكره : « **قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى** » (٢٧٣) ٠٠ وهذه البصيرة لا تكون الا لتابعى محمد صلى الله عليه وسلم ، وتابعوه هم الذين ساروا بقلوبهم الى الله تعالى على طريقه ، فهم تابعوه وهم خلفاء الأرض الذين اجتباهم ربهم فى سيرهم اليه ، عندما فارقوا هواهم فبقوا مضطرين فى ظل الهوى ، وهو خيال النفس ٠ وقال تعالى : « **أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض** » (٢٧٤) ٠ فالسوء هو الغطاء الذى ذكرنا انكشافه عند الوجود ، ثم قال ويجعلكم خلفاء الأرض ، فهم خلفاء الرسول ، وهم أهل سنته ، وسائر الأولياء أهل هدى الله (٢٧٥) بانابتهم ، وهو قوله تعالى : « **الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب** » (٢٧٦) ولهم صفاء العبودة واجابة الحق فى كل موطن ، ولهم علم اليقين ، يعنى يقينا للنفس لا للقلب ، فانه قد كان يقين القلب كما ذكرنا والنفس متحيرة فى ظل الهوى ، ألا ترى أنه ذكر فى كلتا (٢٧٧) الآيتين عندما وصفهم فى آخرها التبرىء من الشرك ، فقال : « **وسبحان الله وما أنا من المشركين** » (٢٧٨) وقال **أاله مع الله ، تعالى عما يشركون** » (٢٧٩) ٠ فأعلمك أنه لم يكن هذا الحظ من ربه لمن عمل من مشاركة الهوى ، وذلك لأنهم لم يعتقوا من رق النفس ، وهؤلاء عتقوا من رق النفس ، وهم الأحرار الذين ذكرهم عيسى بن مريم عليه السلام : « لعبيد أتقياء ولأحرار كرماء » (٢٨٠) وهم القائمون بالحجة ، وهم الذين وصفهم على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : **لا تخلو الأرض من قائم**

لله بالحجة ، أولئك الأقلون عددا ، الأكثرون عند الله تعالى ، قد رأوا أرواحهم معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله تعالى فى بلاده ، وأمناؤه فى عباده ، وهم أئمة الهدى الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه فقال تعالى : « **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ، وهم يعدلون** » (٢٨١) . وهم أولو الأمر الذين جعلت طاعتهم واجبة على الخلق ، فقال عز وجل : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** » (٢٨٢) .. وذلك أن الله جل وعز جعل طاعته فى طاعة رسوله لفضيلته ، ورفع درجته على غيره من الرسل ، فقال تعالى : « **من يطع الرسول (فقد)** (٢٨٣) **أطاع الله** » (٢٨٤) ـ ذلك ليعلم أن هذه الآية تكرمة له على غيره ، وذلك أنه عبده الذى أرسله الى الجميع كافة مع ختم النبوة ، وانما أعطاه النبوة وختم عليها لئلا يكون للنفس ولا للهوى ، ولا لظل الهوى عليه سبيل ، فلما رفعه (٢٨٥) الله تعالى اليه جعل له فى أمته خلفاء كرامة له ، ففارقهم ظل الهوى ، واعتق نفوسهم من خيالها ، فكما جعل طاعته فى طاعة الرسول فضيلة له على غيره من الرسل ، فكذلك جعل طاعة هؤلاء الخلفاء واجبة على الأمة فضيلة لهم على غيرهم من الأولياء ، وهم خواص الأولياء (٢٨٦) ورجال الله فى أرضه ، الذين يغبطهم (٢٨٧) النبيون والشهداء يوم القيامة لمكانهم وقربهم من الله عز وجل وتعالى .

باب بيان علم التقــوى

اعلم أن الله تبارك اسمه ، أعطاك علم التقوى (٢٨٨) ، كيف تبقى(٢٨٩) على الأشياء ، وكيف تجعل حذرك وحراستك للاشياء ، وتلطفك لها وقاية لما ينجرف (٢٩٠) عليها من الآفات ، فاذا ضيعت حراسة أعظم الأشياء قدرا وأنفسها خطرا ، فقد عظمت حجة الله تعالى عليك ، لأن القلب خزانة الله وضع فيها جوهرا (٢٩١) نفيسا لا يحاط بمبلغ ثمنه ، وهى المعرفة ، فان نظرت الى نفاستها لم تقدر أن يحيط بكنهها علما ، ولا ائتمنت عليها أحدا ، وان نظرت الى بهائها ونورها اتقيت عليها من كل دخان من الشهوات ، لئلا يلج الخزانة فيدنسها ، وان نظرت الى رقتها اتقيت عليها من كل صدمة من ذل النفس أن تصدمها ٠

وان نظرت الى طيب رائحتها اتقيت عليها من نتن كل معصية ٠

وان نظرت الى اصطيادها الطاعات والعبادات فتنتشى (٢٩٢) قلوبهم بالدعاء الى الله تعالى ، لهفوت (٢٩٣) عليها من أن تضيع برمتها (٢٩٤) ، وتعاهدها بما يتعاهد مثلها لئلا تطير عنك ، فتذهب بباقى (٢٩٥) معرفتك الفطرية ، وهى معرفة الكفار ، فمن الله تعالى على المؤمنين منة عظيمة أن أعطاهم نور الهداية حتى وحدوه بلا اله الا الله ، فأمر أن يتقوا على ما أعطاهم، وهو النور الذى أشرق فى قلوبهم ، ثم من قلوبهم الى صدورهم ، فيجعلونه فى وقاية الحراسة والحذر ، لئلا يصل اليه ما ليس بأهل ، فان المعـــرفة أيدت بالعقل والفهم والحفظ والذهن والذكر ، فهذه الأشياء حولها قد قطع الله تعالى ألسنة الأميين (٢٩٦) عن نفسه ، فلا يكون لأحد حجة فى معصية أو سوء يأتيه ، فتقوم هذه الأشياء التى حولها تحرس للمؤمن معرفته ، وتدفع عنها مكر النفس ودواهيها وكيد العدو حتى تصير المعرفة فى وقاية منها ، فأمرهم الله تعالى بالتقوى ، فقال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اتقـــوا الله** » (٢٩٨) ٠٠ ففهموا عن الله جل وعز أن التقوى على سبع جوارح العين واللسان والأذن واليد والرجل والبطن والفرج ، فلا يستعمل واحدة منهن الا [فى] (٢٩٩) ما أطلق له وأذن له فيه ، فأقبلوا على حفظ الجوارح ، فوجدوا أنفسهم بين أمرين ، أمر هو لله طاعة ، وفيه عيب لأنه عمله على غفلة ، فما كان مما يؤذن فيه ففيه عقوبة ، وما كان مما أذن له فيه وعمله على غفلة بلا حسبة

ولا نية ، رمى بها وخاب عن أجره ، فقال : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته** » (٣٠٠) ، ففهم العباد منه أن حق تقاته أن يتقى من المعاصى ومن كل عمل عمله على غفلة بلا حسبة ولا نية ، فصارت (٣٠١) التقوى على ضربين: ضرب منها تقوى (٣٠٢) على المعاصى، وضرب منها تقوى (٣٠٢) على ما أذن له فيه فيعمله على غفلة بلانية ، فالأول هو تقوى الظاهر ، والثانى تقوى الباطن، فأقبلوا على تقوى الظاهر حتى استحكموها، واعتادت الجوارح السبع ، فلما صاروا الى التقوى الباطن ، وهو أن لا يعملوا شيئا مما أذن لهم على غفلة ، حتى تكون لهم نية وحسبة ، اشتد ذلك عليهم ، وعجزوا عنه لأنهم فى غطاء ، فقال تعالى : « **فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا** » (٣٠٣) فى الفرائض ، فبقيت العامة على هذا (٣٠٤) التقوى الظاهر ، وهو حفظ الجوارح ، دعامة عمله الذى أذن له فيه علي غفلة ، ففى كل عمل عيوب موجودة ، فوجدت طائفة من العامة من ذلك وجدا شديدا أن رأوا أكثر أعمارهم متعطلا (٣٠٥) من الأكل والشرب ، واللبس والقعود ، والمشى والسكوت ، والنظر والاستماع ، مما أطلق لهم بلانية ، فلا يجدون غدا فى ميزان الحق شيئا منه ، فيثابون عليه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأعمال بالنيات، فلا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسبة له (٣٠٦) . فحزنوا على تعطيل العمر ، وقالوا متى وجدنا أنفسنا فى عمل الآخرة فنحن على رجاء ، فاذا خرجنا الى عمل الدنيا فنحن على خيبة وخسران ، تمضى أعمارنا متعطلة لافتقاد النية فى الأعمال الدنياوية ، فلما رأى الله تعالى وجدهم وحزنهم على ذلك ، رحمهم فقال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا أن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا** » (٣٠٧) . فقال أهل التفسير يجعل لكم مخرجا ، فهذه كلمة مبهمة لم تفسر ما المخرج ولا من أين ولا الى أين ، وانما المخرج من ظلمة النفس ودخان الشهوات الى النور الذى يعطى ، وقال تعالى فى تنزيله فى موضع آخر : « **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا** » الى قوله تعالى « **وأعد لهم أجرا كريما** » (٣٠٨) . فلما أقبلوا على التقوى (٣٠٩) الظاهرة ، وهى (٣١٠) حفظ الجوارح السبع عن جميع ما نهى عنه ، واستحكموا هذه التقوى ، ثم ذكروا الله ذكرا كثيرا عند كل محبوب ومكروه ، وعند كل نعمة وبؤس ، وسبحوه بكرة وأصيلا ، طرفى النهار ، ليعمروا ما خرب منه ، وليتداركوا بذلك التسبيح ، ويتطهروا به من أدناس العيوب التى خزنت فى الأعمال التى أذن لهم فيها على غفلة ، بلا ذكر ، صلى عليهم جل ذكره ، وصلت الملائكة عليهم، فصلاة الملائكة أن يستغفروا (٣١١) لهم هذه العيوب ، وأما صلاة الرب سبحانه ، فيسل لهم نفسة من نفسة نور الفرقان ، حتى أوجب لهم ذلك ، حتى

أخرجهم من الظلمات الى النور ، من ظلمات النفس الى نور الله ٠

وانما سمى نور الفرقان لأنه نور يفرق بين الحق والباطل ، وقد ذهبت الغفلة ، وانما الغفلة حجاب أصله من شهوات النفس ومشيئاتها ، وهـو كالدخان فى الصدر ، فهى ظلمات تحجب عين الفؤاد عن معاينة الحق ، حتى تنفى عنه الباطل الذى يجىء من النفس الى الصدر ، فيتراءى (٣١٢) لعينى الفؤاد يريد أن يمده (٣١٣) بذلك الى نفسه ، فاذا هو باطل لا ثياب عليه غدا ، وزن جناح بعوضة من الخير ، فاذا أخرجه الله تعالى من هذه الظلمات ، فانما يخرجه بصلاته عليه ، وايجابه له هذا النور ، واستغفرت (٣١٤) له الملائكة لتلك العيوب ، حتى [اذا] (٣١٥) ولج هذا النور القلب كانت العيوب قد سترها استغفار الملائكة ، ووافاه (٣١٥ م) النور فوجـد مكانا طاهرا مقدسا فأشرق واستقر ، وعندها استوى له الأمر ، فينال [حال] (٣١٦) التقوى الظاهر والباطن ، فلم يعمل شيئا اذن له فيه الا على (٣١٧) ذكر الله ، ونية وحسبة ، دق ذلك الشىء أو جـل ، فأدرك القلب أسرع من اللمحـة أو اللحظة (٣١٨) يعظم ذلك النور حتى يترقى منها الى درجة تعظم أنواره حتى تصير الأشياء كلها له (٣١٩) وبه ، وهم أهل القبضة ، فبه تنطق ، وبه تصمت، وبه تسمع ، وبه تبصر ، وبه تمشى ، وبه تبطش ، وبه تعقل ، وهو قوله جـل وعز : **ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » (٣٢٠) ، ثم وصفهم ، من هم ؟ وما عملهم ؟ فقال تعالى : « **الذين آمنـوا (بآياتنا)** (٣٢١) **وكانوا يتقون** » (٣٢١) ٠ فيها ، وطبقة آمنوا به حقا فاطمأنت (٣٢٢) قلوبهم بأحكامه عليهم حكما ، وذلوا لربوبيته خشوعا ، وآثروه على أنفسهم حبا ، وبذلوا أنفسهم جودا وسمحا ، فكانت (٣٢٣) تقواهم على المشاهدة كما ذكر فى أول الآية ، فقال تعالى : « **وما تكون فى شأن ، وما تتلوا منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل ، الا كنا عليكم شهودا** » ، اذا يفيضون فيه معانيه بالقلب ، فهابوا الله هيبة ماتت النفوس منها موتا ، وأحبوا الله حبا حييت قلوبهم حياة عبدوه بكل كلمة ، فصارت أنفاسهم كلها ولحظاتهم كلها عبادة ، وكل حركة من جوارحهم عبارة ، وجدوها فى ميزان غدا ٠ فهذى تقوى الأولياء ، وهى (٣٢٥) تقوى الباطن ٠

وقوله تعالى : « **اتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور** » (٣٢٦) ، فالظالم يتقى تخليطه حتى لا يدخل فى عمله شىء نهى الله عنه ، والمقتصد قد فزع من التخليط فهو يتقى أن يشوبه رياء أو عجب أو فساد أو خطأ (٣٢٧) ٠ والصديق

وهو المقرب السابق (٣٢٨) ، قد فزع من هذا ، فهو يتقى الأسباب والعلائق ، والاعتماد على شىء دونه ، ويتقى الخطرات ، فهذا كله تقوى ، ولكن انمـــا يتقى كل صنف بما يفىء عليه من التقوى ، وان لم يفعل حاجه القرآن بمـا يفىء عليــه ٠

وأصل التقوى على خمسة أنواع كما قال تعالى : « **اتقوا الله** » ، وقال: « **اتقوا ربكم** » ، وقال : « **واتقوا يوما** » ، وقال : « **اتقوا النار** » ، وقـال : « **اتقوا الأرحام** » ، فهذه جملة أوجه التقوى (٣٢٩) ٠

فأما تقوى الله تبادك وتعالى فأن تتقى (٣٣٠) أن توله الى أحد سواه ، ثم للوله وجوه : فواله توله الى الأوثان ، حتى يعبدها من دون الله رجاء نوال، وهو قوله تعالى حكاية عنهم : « **ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى** » (٣٣١)

وواله توله الى مخلوق تجرى المنافع والمضار على يديه ، حتى يفتتن به قلبه ، ويعصى الله فى جنبه ٠

وواله توله الى أعماله فيعجب ويتكل عليها ، يرجو (٣٣٢) الفـــوز والنجـــاة بها غـــدا ٠

وأما تقوى الرب سبحانه وتعالى ، فان تتقى أن يخاصـــمه فى ربوبيته وهى على وجوه : فمخاصم يخاصم فى القدر ، يقول : يقدر علينا الذنوب ثم يعذبنا ، فينكر ذلك حتى جاءت مشركو (٣٣٣) قريش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنطقوا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هم خصماء الله جل وعز ، ونزلت [الآية] (٣٣٤) : « **ان المجرمين فى ضلال وسعر** الى قوله **انا كل شىء خلقناه بقدر** » (٣٥٥) ٠

ومخاصم قالوا : « **أنطعم من لو شاء الله أطعمه** » ، وهم الزنادقة ، قال الله تعالى : « **ان أنتم الا فى ضلال مبين** » (٣٣٧) ٠

ومخاصم قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك »(٣٣٨)، فىشأن آدم عليه السلام ، قال الله تعالى : « **انى أعلم ما لا تعلمون** » (٣٣٩) ، وقال جل وعز لنبيه عليه السلام : « **ما كان لى من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون** » (٣٤٠) ٠

الصلاة بين الله والملائكة والعبد :

يقال فى اللغة صلى فلان كذا وكذا ، وقول القائل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث أنشده : تركت الخمر تصلية وابتهالا ٠

فأما صلاة الرب على عبده فبذل الرحمة العظمى سماحة وجودا وتكرما ثم الصلاة من الرب على عباده درجات على قدر منازلهم ، وحظوظهم منه ، والرحمة ذو عدد كثير ، وهذه الرحمة السابقة غضبه ، هى الرحمة العظمى، فالعباد منهم فى شأن هذه الرحمة على طبقات : فمنهم من سبقت له رحمته غضبه فى شأن التوحيد ، فتلك الرحمة له عصمة من الكفر ودوام التوحيد ٠ ومنهم من سبقت له رحمته غضبه فى شأن المعاصى ، فتلك الرحمة له عصمة من الاصرار على الذنوب ، فاذا أذنب تاب ، ثم ان أذنب [و] تاب لا تتركه تلك الرحمة أن يصر ٠

ومنهم من سبقت له رحمته غضبه فى شأن التقوى ، فتلك الرحمة له عصمة من الذنوب والخطايا ٠

ومنهم من سبقت له رحمته غضبه فى شأن الهوى ، فتلك الرحمة له عصمة من استعمال الهوى فى أموره ٠

ومنهم من سبقت له رحمته غضبه فى شأن وجود السبيل اليه فى القربة فتلك الرحمة عصمة له من الحجب عنه ، فأى عبد سبقت له منه [تعالى] (٣٤١) رحمته غضبه فى منزلة من هذه المنازل ، أمن سلب تلك المنزلة خيرة تلك المرتبة ، فان أخطأ أو زل أو بلى بذنب ، كانت الرحمة السابقة تحوطه وتكتنفه، وفى كل واحدة من هذه الخصال مصر عليها ، فلا ينحط عن درجة التوحيد، لأن الرحمة منه له قد سبقت غضبه ، فالملتقى يزل ويذنب ويعصى ويتوب ، ثم يعود فهو فى ذلك لا ينحط عن درجة المتقين ، وهو قول الله تعالى فى تنزيله: «**ان الذين اتقوا اذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون**» (٣٤٢) فلم يخرجهم من أهل التقوى ، وقال تعالى : « **وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين** » (٣٤٣) ٠ ثم قال : « **والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله** » ثم قال : « **ولم يصروا على ما فعلوا** » (٣٤٤) ٠ فسماهم متقين اذ لم يصروا ، والمحق يزل ويذنب ويعصى وهو فى ذلك ينيب ، فلا يحط من

درجته ، وانما هو أعلى درجاته مع هذه الأفعال ، لأن صلاته تبارك اسمه قد أدركتهم ، ولولا ذلك لهلكوا ، وهلاكهم سقوطهم من درجاتهم ٠

فوعد الله تعالى المؤمنين بالصلاة فى خصال ذكرها فى تنزيله ، فقال تعالى : « **وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون** » (٣٤٥) ٠

معانى الرحمة :

فذكر الصلاة وذكر الرحمة يعلمك أن فى الصلاة معينا (٣٤٦) زائدا على هذه الرحمة ، قد تكون منة على العبد ، ثم تزول عنه بزوال العبد عن الرحمة بسيئة يعملها ، فاذا صلى عليه الرب تعالى كان قد أوجب له تلك الرحمة العظمى التى تسبق غضبه [فى] (٣٤٧) كل حال من أحوال العبد من يومه ذلك ، الى أن يبلغ باب الجنة ، فهذه مرتبة الصلاة من الرب تعالى على عبده ، ألا ترى الى قوله عز وجل : « **يا أيها الذين آمنوا أذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا** » ثم قال : « **هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما** » (٣٤٨) ، فوعد الذاكرين الله كثيرا والمسبحين له بكرة وأصيلا الصلاة عليهم ، ثم بين ما ثمرة الصلاة ، فقال : ليخرجكم من الظلمات ، أى اذا أوجب (٣٤٩) الصلاة لعبد ، وهى تلك الرحمة السابقة غضبه ، أخرج قلبه من ظلمة الهوى وظلمة النفس والشهوات الى نور الجلال ، وبهاء الكبرياء والعظمة ، ليكون متقلبة فى كل أمر مع الله تعالى ٠

وطبقة أخرى أوفر حظا من هذه الرحمة السابقة غضبه ، فاذا أوجب لعبده هذه الصلاة وهى هذه الرحمة التى ذكرنا أخرج قلبه من ظلمة ظل الهوى الى نور وجهه الكريم ، أولئك من المجذوبين ،قد وفى بالعهد ، وأتى بالاسلام وحقائقه فقرب وأوفى وأومن ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم (٣٥٠) ٠

أثر الشهوة فى المعرفة :

وآخر وضعت فيه هذه المعرفة فجاءت الشهوات فغطتها ، ولم يستعمل

صاحبها العقل ، ولم يتحر فى ذلك فاستعمل الشهوات ، فتراكمت على صدره غيومها وغبارها ودخانها ، فكل شهوة (٣٥١) استعملها من حلها وللنفس فيها نصيب الاكبار (٣٥٢) صارت غيوبا ، وكل شهوة استعملها من حلها وللنفس فيها نصيب الغفلة ، فاستعمل القلب ذلك فى غفلته عن الله صارت غبارا فى الصدر . وكل شهوة استعملها بحرص وهلع وتخليط صارت دخانا .

وكل شهوة استعملها من غير حلها صارت ظلمة كالليل ، فبقيت هذه المعرفة فى الصدر ، فتراكمت هذه الأشياء فيه ، ولم تجد المعرفة مساغا الى أن تشرق بما فيها من باب القلب حتى تبصر عينا الفؤاد ذلك ، فيقوى فيستقيم ويستمر فى العود ، فصار القلب بكنوزه كالمسجون الذليل ، وصاحبه فقير محزون ، لأن غناه بحطام الدنيا ، وحزنه لما يفوته من الدنيا فلا يناله ، ويحرص ويكد ويتعب فلا يدرك مناه ، والعدو منه بمرصد ينتظره متى يجد فرصة الاغارة على هذا الكنز ، لأن طعمه فيه قد عظم لما رأى أن أسلمته من الحرص والشهوة والكبر قد اشتعل فيه حريقها ، وأقبل الهوى بغبار جيشه وتخلل (٣٥٣) الباب، فوقعت الغارة فى الكنوز ، كنوز المعرفة ، حين ترك الباب خاليا من الجنود، وبقيت المعرفة مغلقة بأدق من الشعر ، وبقى القلب متحيرا يتذبذب قد أفقد العلم والحياء والخشية والخوف والحب ، وجاء الهوى وشهوات النفس فسكنوا القلب وأحاطوا بالمعرفة ، فذهبت قوة المعرفة وصارت كالمعلقة بشعرة، وصار الصدر مملكة الهوى ، ورجع العدو الى مرصده ينتظر سلب المعـرفة حتى يورده النار معه ، فظهر على الجوارح من الحرص جمع الدنيا ، ومن الكبر ابطال الحقوق وظلم العباد ، ومن الشهوات دفع العبودة ونبذ العهد ونقض الميثاق . وجاءت أعمال الفسق والفجور وخبث السريرة ، وحسن العلانية والنفاق ، وسكر العقل ، وولاية الهوى وامرته ، وانكمن العقل ، وانسد الفهم ، وحمق الذهن وانطبق الحفظ ، واندفن العلم ، وذابت المعرفة، وناض جهلا ، وامتلأ كذبا وخيانة ، وذهب الوفاء ، وطارت الأمانة ، وظهـر الاستبداد وعلاه الكبر ، وأحاط به التجبر ، وملأ الأرض والسماء فضـائح وقبائح وهو فى حكم الله ، والعدو بمرصد ينتظر متى يحل به سخط الله تعالى، فيحمل [عليه] (٣٥٤) حملة تكفـره ، فتورده حتى يشـك فيه « أى الله تعالى] (٣٥٥) ويقنط ، فاذا حلت به السخطة رفعت المرفة ، وانقطع الحبل ، وساد (٣٥٦) العدو ، وصير الهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه .

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه جاءه رجل فقال : يا رسول الله أى العمل أفضل ؟ فقال : العلم بالله ، ثم أتاه فسأله ، فقال مثل ذلك ، فقال: يا رسول الله انما أسألك عن العمل ، فقال : ان العلم ينفعك معه قليل العمل وكثيره ، وان الجهل لا ينفعك معه قليل العمل ولا كثيره ، فالعلم ثلاثة أنواع: علم بالله ، وعلم بتدبير الله تعالى وربوبيته ، وعلم بأمر الله تعالى (٣٥٧) ٠

وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال : العلماء ثلاثة : عالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله تعالى ليس بعالم بالله ، وعالم (٣٥٨) بالله عالم بأمر الله تعالى ٠ وكان (٣٥٩) عيسى عليه السلام جعل العلم بتدبير الله وربوبيته مع العلم بالله تعالى علما واحدا ، وانما صيرناه ثلاثة أنواع [اذ] (٣٦٠) أردنا أن يتميز عند من لا يعقل علم الله تعالى من تدبيره ، لأن علم التدبير للعباد هو داخل فى باب العبودة ، وعلم الله هو الثناء الذى يظهر على الألسن من بساتين القلوب ، وأن الله تعالى خلق كل شىء وجعل فيه الحياة، فأعطاه العلم به فأفضاهم [الى] (٣٦١) القنوت ، فقال تعالى : « وله أسلم من فى السموات والأرض ، كل له قانتون » (٣٦٢) ٠ القنوت [هو] (٣٦٣) الرقود (٣٦٤) بين يديه ، كل فى مقامه الذى أقامه فيه ، ثم جعلهم أهل صفوته ، وخاص أهل قربته ، ليكون متقلبه فى كل أمر الى الله تعالى ، فدامت لكل طبقة من هذه الطبقات تلك الرحمة الى يوم القيامة فى دار السلام ٠

فهذا معنى الصلاة منه سبحانه على عباده عندنا ، والحمد لله حق حمده كما ينبغى لكرم وجه ربنا (٣٦٥) ، وعز جلاله ، وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

ويتلو الجزء الثانى (٣٦٩) : اختلاف الناس فى الشكر والصبر ، وفى مقدم أحدهما على الآخر ٠

بسم الله الرحمن الرحيم (٣٦٧)

باب اختلاف الناس فى الصبر والشكر وتقدم أحدهما على الآخر

قال رحمه الله تعالى : وجدنا أقوال المتقدمين فى ذلك كثيرة ، فمنهم من قدم الصبر ، ومنهم من قدم الشكر ، وكل يرجع الى شيء من ظاهر الكتاب، ومتواتر الأخبار ، وأنا مبين لك ما حصل عندنا من علمه ان شاء الله (٣٦٨)، وتام الاختلاف فى الصبر والشكر من قوله ، وهذا مثال الصبر والشكر فى صورتيهما ٠

والشكر سرور القلب بنعمة ربك ، فربك عندك محمود، فاذا أضرت (٣٦٩) بالبلاء فصبرت فأنت الممدوح ، والرب لم يكن ممدوحا ، فاذا استعملك (٣٧٠) بما فيه مدح ربك خالصا صافيا ، خير لك من أن يستعملك بما فيه مدحك مع مدح ربك ، فيكون مزاجا ، فان الثناء من الجزاء ، فان أجزيت شيئا (٣٧١) من منقوص الدنيا ، فالحظ هناك أنه كان بقدرة ٠

ومن درجة الشكر أن الله تعالى أثنى على أنبيائه وأصفيائه ، وانما أثنى بالشكر على نوح وابراهيم عليهما السلام ، فقال فى قصة نوح عليه السلام : « شاكرا لأنعمه » (٣٧٢) ٠ وذكر من سواهما (٣٧٣) من الرسل فقال: « كل من الصابرين » (٣٧٤) ، خصهما بالشكر مع أن الكل شاكر ، وعمهم بذكر الصبر مع أن كلهم كانوا صابرين ٠

والشاكر قد ظهرت (٣٧٥) ناره ، فلا يحتاج الى قدح الزناد حتى يورى (٣٧٦) ٠

والصابر لابد أن يكون هناك شيء حتى يستخرج بالزند ناره ، فمنهم من يورى لأنه يابس الباطن من الشهوات ، ومنهم من لا يورى (٣٧٦) لرطوبة الباطن من الشهوات ، كما أن الحجر اذا أصابته نداوة فضرب بالزناد لم يورى ٠

درجات الشكر والصبر :

وعن (٣٧٧) درجة الشكر قال الله تعالى فى التنزيل: «**فاشكر لى**» (٣٧٨)

وفى الصبر قال : « **فاصبر لحكم ربك** » (٣٧٩) ، « **لئن صبرتم لهو خير للصابرين** » (٣٨٠) فشتان بين أمرين ، أحدهما له [تعالى] (٣٨١) ، والآخر لك ٠

ومن درجة الشكر أنه ذكر الشكر [مقترنا بالعمل] (٣٨٢) فقال : « **اعملوا آل داود شكرا** » (٣٨٣) ٠ والعمل اظهار الشكر ، والصبر هو ترك العمل السيىء ، فذاك عمل ، وهذا كف عن العمل ، ففى هذا الكف ترك الشهوة ، وفى العمل ترك الشهوة والعمل زيادة ٠

ومن درجة الشكر أن : العاملون له قليل ، قال تعالى : « **وقليل من عبادى الشكور** » (٣٨٤) ، وأكثر العباد انما يعملون لأنفسهم ابتغاء وجه الله تعالى ، وابتغاء رضوانه ، وقليل من يعمل له على القبول للعبودة شكرا ٠

ومن درجة الشكر [ما] (٣٨٥) بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقوم حتى تورمت قدماه ، بعد المغفرة له ، فقيل له : يا رسول الله ، تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟!

وبلغنا أن ادريس ، صلوات الله عليه ، جاءه الملك فبشره بأن الله تعالى عنه راض ، فسأل الحياة ، فقال له : وما تصنع بالحياة ؟ فقال : أريد أن أعمل له فى الشكر بما رضى الله عنى ٠

حدثنا بذلك عبد الله بن أبى زياد ، عن بشار ، عن جعفر بن سيمان ، عن سنان بن ربيعة ، حدثنا جعفر بن زيد العبدى قال : أتى ادريس عليه السلام ملك من الملائكة فقال : جئت أبشرك أن الله تعالى عنك راض ، فبكى (٣٨٦) ادريس عليك السلام ، وأخذته نفضة ثم سأله الله تعالى أن يبقيه ، فقال له الملك : وما تصنع بالبقاء وقد رضى عنك ؟ فقال : انما كنت أعمل لنفسى فأريد البقاء [لأجل] (٣٨٧) أن أعمل فى الشكر ، فبسط الملك جناحيه فقال له : اجلس ، فجلس على جناحه ، فصعد به الى السماء ٠

والشكر فعل الأحرار ، والصبر فعل العبيد ، وانما هى عبودية ثم حرية ، ألا ترى أن ادريس صلوات الله عليه وسلم ، عمل فى الشكر بعد ما رضى عنه

وحرره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمل فيه بعد ما حرره ، وغفر له الذنوب ما تقدم منها وما تأخر ، فابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر ثم بالشكر ٠ ألا ترى أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأنا بالفتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء ، وقول عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنه : ابتلينا بالفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بالفتنة السراء فلم نصبر ، فكل من خرج من النعمة مستقيما فهو أرفع درجة من الذى خرج من الشدة مستقيما ، وهو قول عيسى عليه السلام : ولا عبيد أتقياء ولا أحرار كرماء ، وتأويله أن العبيد على ضربين : عبد ولدته أمه حرا كريما ، حرا من الشهوات ، كريما طبعه من لين التركيب ، وصفاء الخلق ، وطهارة الروح، وحرية الطين ، ألا ترى أن الطين الحر كيف ينقاد للعمل (٣٨٨) ، لهذه الكيزان والجرار ، وكيف يتحدد ، فمن خلق من هذا الجنس وطينته ، لين كريم حر ٠

وعبد ولدته أمه كذا (٣٨٩) لئيما ذا شهوات ، وذلك لصلابة طينته وقوتها وحدتها ولزازتها ، فأخلاقه كدرة ، وروحه مكدرة فى استعمالها (٣٩٠) فى الجسد بهذه الأخلاق ، فاذا أدركه الايمان والخوف من ربه ، اتقى وانقاد فهو عبد تقى لا يصلح للعبودة الصافية ، انما يصلح ذلك للعبادة المازجية ، فله الجنة ، والأول القربة ٠

وهذا المقتصد والأول هو السابق فى الخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير ، فهذا انما يعمل على الصبر فى الطاعة ، والصبر عن المصيبة، فهذا أبدا فى غمرة أثقال الدين ٠

والأول تخطى هذه الدرجة الى درجة المعرفة ، فمربض القربة ، ومغلق باب الملك ، وهو يعمل على الشكر والمحبة والشوق ، فهذا فى بساتين الدين ، قد ارتفعت عنه أثقال الدين ، ونشط من عقدها فقال : « وقليل من عبادى الشكور » ، ولم نجده قال وقليل من عبادى الصبور ، فالأول من كل صنف هو الأعز، ألا ترى أن المؤمنين قليل من (٣٩١) الكافرين، والأتقياء قليل (٣٩٢) فى المؤمنين ، والأولياء قليل من الأتقياء ، والأنبياء قليل فى الأولياء (٣٩٣) ، والرسل عليهم السلام قليل فى الأنبياء ٠

جزاء الشـــكر والصبر :

ومن درجة الشكر قال الله تعالى : « **وسنجزى الشاكرين** » (٣٩٤) وقال: « **انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** » (٣٩٥) ٠ فذكر الأجر لأنه عوض لمن شد على (٣٩٦) نفسه ، وثبت على الشدة على وجه المتاجرة ، فأعطى أجره فى الجنة بغير حساب ، لأن الصابر أخذ من نفسه فثبتت (٣٩٧) فأعطى أجره، والشاكر أعطى فتواضع ، وتكرم فجزى ، وأجر الصابر من الجنة لأنه عوض النفس (٣٩٨) عن الذى أخذ منها ، وجزاء الشاكر بالتواضع رفعة ، [وجزاء الشاكر] (٣٩٩) بالتكرم كرما ، فبعد ما بين الأمرين نال ذلك الجنة ، ونال هذا الرفعة والكرم من ربه ٠ فقد قلنا أن الصابر عامل على جهة التجارة ، فأعطى أجرَه من الجنة ، والشاكر أعطى القربة ، والجنة عوض عن النفس التى سلمت فثبتت الى ربها فنعمت فيها ، والقربة عوض عن القلوب التى قطعت أسبابها الى خالقها ، فهذا عمل على السماحة والسخاوة بنفسه من غير أن تلتفت الى متاجرة ، والصابر عمل له على ما ذكرنا فولى جزاء الشاكر بنفسه التى قطعت أسبابها الى خالقها ٠

هذا عمل على السماحة ، وأبهم ذكر من يلى جزاء الصابرين ، فشتان ما بين الحديد والحجر ٠

ومن درجة الشكر أن ضده كفر ، وضد الصبر الجزع ، والكفور ممقوت، والجزوع مذنب ، لأن ترك الشكر هو من الغطاء ، وذهاب الرؤية فى وقت الغفلة عن الله عز وجل ، وترك مدحه ٠

وترك الصبر هو أن الشدة أزعجته عن مكانه ، فقيل جزع (٤٠٠) لما أزعجه البلاء ، وجزع وعجز بمعنى واحد ، الا أن [هذا] (٤٠١) يستعمل فى صنف ، وذلك فى صنف ، فالعجز فى ضعف الجوارح وسقوطه عن ذلك العمل، والجزع ضعف النفس فى الباطن وسقوطه بما أراد من البيان ، ففى العجز ترك مدحه وغفلة عن ذكره ، وفى الجزع سقوط عن مقامه ، فالأول أعظم خطرا ولذلك صار ثوابه أعظم ٠

ومن درجةالشكر أن الله تعالىقال: «**استعينوا بالصبر والصلاة**» (٤٠٢)

ـ الآية ، لأن الصابر يحتاج الى العون ، ولم يقل مع المصلين لأن المصلى مقامه الشكر ، وهو مع الصابرين والمصلين ، ألا ترى الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » (٤٠٣) ، ولم يقل بالصلاة ولكن فى الصلاة ، وهو لانفتاح القلب فى الصلاة ، ووجود القلب لذة القربة والمناجاة ، وليس هذا فى الصوم لأنه كف عن الشهوات فيحتاج الى عون ، وهو مع الصابرين فى العون ، وهؤلاء فى القربة ٠

ومن درجة الشكر قال الله تعالى : « **لئن شكرتم لأزيدنكم** » (٤٠٤) ، ، وزيادة الشىء من الشىء ، فجعل زيادة الشكر شكرا آخر ، وذلك أن العبد اذا رأى المنة عجل له فى العاجل ثوابا ، فزاده نورا ، فهو زيادة الشكر ، فازداد بصيرة ، فذلك أبعث له على السير اليه ، ويوصل له اليه ، وقال تعالى فى الصبر : « **انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** » (٤٠٥) ، فوجدنا الشكر ثوابه الزيادة منه ، وهو الوصول اليه ، ووجدنا الصبر ثوابه من الجنة ، والصابرون يثبتوا على أحكام ربهم ، وتاجروه فأثابهم نعم الجنة ، والشاكرون رأوا المنة بذلك النور ، فزادهم نورا ، وازدادت (٤٠٦) بصيرتهم، فامتلأت قلوبهم معرفة وبصيرة ، وعلقت بالنعم ، فمثل هذا فى التصوير مثلما (٤٠٧) لو قلت لعبدى ، وأشرت له الى مكان بعيد منى ، قف على ذلك المكان بين يدى حتى أرميك بسهامى فان تثبت لى كان ذلك علامة لصدقك فى تسليم العبودة ، فلم أزل أرميه وهو راسخ القدمين ، ثابت لا يزول عن مكانه ، قد رفع المبالاة عن نفسه فقد أظهر صدقه فى تسليم نفسه الى ، وآثرنى (٤٠٨) عليها فأكرمته وأهديته (٤٠٩) وأغنيته وجزلت عطيته ، وأعتقته بما أظهر من صدقه ، فهذه صفة الصابرين ٠

والآخر عبدى قلت له : قف هناك ، فكلما رميت لك دينارا فأقبله ، فرميت اليه دينارا فأخذه ، ثم رميت له آخر رمية أقصر من الأولى فوقع منه على ربوة فتقدم فرفعه ، فلم أزل أرمى اليه دينارا بعد دينار ، وكل واحد دون الآخر ، وهو فى كل واحد يتقدم يرفع ما رميت حتى صار واقفا بين يدى فى محل القربة ، فهذه (٤١٠) صفة الشاكر ٠

بين الشاكر والصابر :

والصابر واقف فى مكانه يرمى بالشدائد ليثبت ويظهر صدقه بتسليم

نفسه ، فتعلو رتبته وتخلص عبوديته ٠ والشاكر يرمى باللطائف والتحف ليدنو فتظهر حريته ، والشاكر راكض اليه عدوا ، وتعظيما لربه بما يصنع به ، ومحبة له ، وشوقا اليه ، والصابر ثابت بمكانه وفاء لربه ، والشاكر يقمع نفسه بالبر حتى تستحى فترجع الى ربها (٤١١) ، والصابر يقمع نفسه بالبلاء حتى تذل وتنقاد لربها ، فالشاكر يرجع الى ربه مسرورا ، والصابر يرجع الى ربه مقهورا ٠

فالشكر سرور القلب بالله تعالى ، وفى الصبر تحير وانكسار ، وهـــو على خطر عظيم ، فهذا بالبر والنعمة مسرورا ، وهذا بالشدة والبؤس مقهورا، لأن النفس عليك ، وفى الأولى معك ، فههنا (٤١٢) تعينك ، وههنا (٤١٢) تعين عليك ، الا أن يعصم الله تعالى فتحير وتدهش ٠

الشكر رؤية العبد بره ولطفه ، وجوده وكرمه ، وعطفه ومحبته ، ورأفته واحسانه ٠ والصبر رؤية أحكامه ٠ والشكر بمنزلة أدوية الكيمياء تلقى منها مثقالا (٤١٣) على مائة مثقال من مس فتصير ذهبا ، والصبر بمنزلة النار تصفى الذهب ، وتزيل خبثه ، ولشدة حريقه ليس له سلطان الكيمياء ٠

والشكر رؤيتك الأشياء به ، والامساك على نوائبه وأموره أخذه أو لم يأخذه فهو له ، والصبر تسليمك الأشياء اليه من بعد أن حسسته بنفسك ، فيأخذه منك ٠

وفى الشكر رؤية الحظ من الله تعالى ، وفى الصبر رؤية النفس أن الله تعالى وجدك محقا فقط ٠

والشكر بر الله لعبده ، والصبر طلب الصدق من عبده ٠

والشكر ايمان العبد بأن الأشياء له منة ، والصبر ايمان العبـــد بأن نفسه له ٠

والشكر منزلة لا ينالها أهل النار فى النار ، وهى لأهل الجنة ، والصبر منزلة قد ينالها أهل النار فى النار ، وان كان غير مقبول منهم ٠

والشكر باق لأهل الجنة فى الأبد السرمد ، والصبر قد سقط عن أهل الجنة فى الجنة ·

والشكر على العافية ، والصبر على البلاء ، والعافية من فضله ، والفضل من جماله ، والبلاء من سلطانه ، والسلطان من ملكه ، وفى الآخرة غدا الجمال منة لأهل الجنة ، والسلطان منة لأهل النار ، فانظر من أين مخرج العافية ، ومن أين مخرج البلاء ·

والشكر مع فرح القلب بصنع الله تعالى ، والصبر مع ألم القلب بفجعة النفس بحكم الله تعالى ·

والفرح مركب القلوب فى حال السير الى الله تعالى ، والوجد من الألم بحر راكد يحتاج الى سفينة وريح طيبة ·

جوهر الشكر والصبر :

قال أبو عبد الله ، رحمه الله تعالى : فنظرنا الى جوهر الشكر والصبر ، والى اسميهما فان الأسماء دالة على الأشياء ، لأنها انشقت من تلك الأشياء فوسمت بها ، فالشكر رؤية العبد منة الله تعالى عليه فى كل شيء ، والصبر هو ثبات العبد على مقامه من ربه ·

فالشكر جوهره الايمان ، والصبر جوهره الاسلام ، وذلك أن العبد اطمأن الى ربه ، فسمى مؤمنا ، وأسلم نفسه عبدا فسمى مسلما ، وكلاهما فى وقت وفى عقد واحد ، لأن القلب كان فى جولان وتردد طالبا لربه ، فلما أدركته الرحمة وجاءه النور والهداية سكن القلب عن الجولان ، فقيل أمن كما اضطرب فى وقت الخوف من شيء ، فلما ذهب ذلك الخوف وسكن القلب عن الاضطراب فقيل أمِن فى قالب أفعل ، وآمن فى قالب فعل ، فانما آمن برب منقاد له مطيعه ، فانتظم فى هذه المعانى كلها ، فصار مسلما له نفسه عبودية بالانقياد، فقيل : مؤمن مسلم ، فلزمه الايمان والاسلام فى وقت واحد فى عقد واحد ، ثم أمر بالاعتراف ليحرم دمه وماله وعرضه على الخلق ، ويكون اعترافه بذلك

حجة الله على من سواه اذا انتهكوا هذه الحرمة ، فيثاب (٤١٤) من أقام الحرمة ، ويعاقب من انتهكها ، ويأخذ له منهم بحقه ٠

ولو لم يعترف بذلك لم يقم الحجة ، ثم اقتضى (٤١٥) الوفاء بهذين الاسمين جميع عمره ، ثم وضع بين يديه فى جميع عمره أمرين لا يجد ثالثا : أمر هو يفعله بك ، وأمر أنت تفعله ٠

فأما ما الذى هو يفعله فأحكامه فى أحوالك التى (٤١٦) تتقلب فيها (٤١٧) : عز وذل ، وفقر وغنى ، وصحة ومرض ، وخوف ونعمة ، وشدة ورجاء وبلاء ، ومحبوب ومكروه ، واقتضاك فى هذه الأحوال رضاك بما اطمأن قلبك به ايمانا ، فان لم تقدر على ذلك الرضا لشهوة فيك للاشياء ، ومنية لها ، فالصبر لابد منه ، وهو ثبات الجوارح على مقامه فلا تعصيه ٠

وأما الذى أمرت بفعله كالأمر والنهى [فهو أن] (٤١٨) تأتى ما أمرت به من الفرائض وتتجنب المحارم ، فاقتضاك الوفاء بهذا الأمر والنهى ، فتكون قد سلمت نفسك عبودة كما سلمت نفسك يومئذ (٤١٩) اسلاما ، فاذا ختمت عمرك بهذا ، وقدمت عليه ، كنت عبدا [مؤمنا] (٤٢٠) فقد وفيت له بالايمان والاسلام ، وسقط عنك الوزن والحساب ٠ ومن وفى ببعض هذا وخلط جاء الوزن والحساب والسيئات ، ووجب الحساب على حسب التخليط والتصفية، فهذا شرح الايمان والاسلام ، وهو قطع علائق المختلفين فيه ، فقال بعضهم الايمان والاسلام واحد ، وقال بعضهم اثنان ٠

ثم رجعنا الى ذكر الصبر والشكر ، والشكر فى اللغة هو انفتاح القلب حتى تتراءى لك المنة ٠

يقول العرب : شكر وكشروهما من الحروف الثلاثة ، وكلاهما يؤديان الى معنى واحد ، الا أنه يستعمل هذا فى نوع ، وذلك فى نوع ، فاذا كشف عن نابه قيل كشر ، واذا انكشف عن قلبه قيل شكر ، وهو أن يتصور لك فى صدرك منة الله تعالى عليك ، وفى ذلك الشىء ان وصفه بك تبارك وتعالى ، ورأى عن الحسن البصرى أنه قال : قال موسى يا رب كيف شكرك آدم عليه السلام ؟ ، قال : علم أن ذلك منى فكان ذلك شكره ، فالعلم هو العلاقة ، وهو التصور فى

الصدر ، وذلك أن الصدر بيت القلب قد أشرق فيه النور ، فاذا حدثت فكرة أو ذكر شيء ، ووقع لذلك الشيء ظل على الصدر بمنزلة البيت الذى يضيىء فيه السراج على حائط ، فاذا أشرت بأصابعك هكذا ، فيما بين السراج والحائط ، وقع لها ظل على الحائط ، وتصورت لك الأشياء ممثلة بين عينيك ، فتنظر الى عدد أصابعك ان زادت أو نقصت ، الى صورة وجهك ٠

وكذلك شأن القلب يتصور ذلك الشيء الذى يتردد ذكره على القلب ، ووقع ذكره ، فاذا ذكرت الخالق لم يقع لذكره ظل ، لأن الذى أشرق نوره فصار الصدر شعاعا كله بمنزلة المرآة ، اذ لاقى (٤٢١) نور بصرك نور المرآة ، رأيت فيه الخيال ، فاذا لاقى (٤٢١) نورها نور الشمس ، صار شعاعا وامتلأ البيت من شعاعه ، فهذه (٤٢٢) صفة الشكر ، واسمه دال على صفته ٠

وأما الصبر فاشتقاقه من الاصابة ، وهو أن يتخذ الشيء غرضا، ومنه قيل نهى عن أكل المصبورة ، وهو أن ينصب الشيء ليرمى بالسهام ، فكأن صورة الصبر ثبات العبد لسهام بنى آدم ، لا يميل يمينا ولا شمالا ، ولا يزول عن مكانه موليا هاربا ، فان شرط العبد فيما بينه وبين ربه الايمان والاسلام ، فبالتسليم هو قائم بين يديه لحكمه ، فاذا جاء سهم القضاء ترك المركز وهرب فعصى ربه من أجل ذلك الحكم الذى قد حل به ، كأنه (٤٢٣) قد ترك المقام

فالشكر هو رؤية النعمة والمنة ، وهو مدحه ٠

والصبر هو اصبارك نفسك بين يديه ، كالغرض منصب للسهام ، وهو مدحك ٠

ففى الشكر اظهار مدحه ، وفى الصبر اظهار مدحك ٠

والشكر هو أن النعمة ظاهرها عليه ليرى مدحه ، وينطق بالحمد عليه، والحمد والمدح بمعنى واحد ، الا أن الحمد مستعمل فى صنعه ، والمدح يستعمل فى صفاته ، فكانت الرؤية منك له تؤديك الى الحياء (٤٢٤) منه ، والخضوع لـــه ٠

والصبر هو أنه ابتلاك ليستخرج خيرك وشرك ، هل تثبت له ؟ وهل

تنصب نفسك لسهامه عرضا ، فكأنما خضعت وتذللت وانقادت من أجل النعم، مسيرا · انما يظهر صدقك بالذى ابتلاك به ، واذا صبرت فأنت شكور ، فأخرج الصبر على قالب فعال ، ويحقق ذلك قوله تعالى : « **ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** » (٤٢٥) · فأخرج الصبر على قالب فعال ، والشكر على قالب فعول ، وبدأ بالصبر قبل الشكر ، لأنه يظهر شكره ، فالشكر منكمن كالنار فى الحجر ، والبلاء كالزند يورى النار من الحجر ، فاذا قدحت به الحجر ، ظهر المنكمن من النار ، فكذلك الشكر هو رؤية المنة والنعمة والفرح بالمنعم ، وتعظيم العطاء ، والتذلل والتواضع لعظمته ، وهشاشة القلب اليه ، فهذا كله سر فى القلب منكمن ، فاذا ضرب بالبلاء فوجد صابرا لا يخرج ، فقد امتحن باسراج خيره الذى كان فيه سرا ، ثم اذا وجد راضيا قد سالم البلاء، وقد ضرب بالزناد الأكبر حتى أورى جميع ناره ، فدل أن هذا الأمر الجليل انما هو فى النار ، والزناد والحجر ليس لهما ذلك الشأن ·

فهذا بيان الشكر والصبر وصورتيهما ·

باب فضـــل العلم وحقيقتهِ

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى : أن الله تبارك وتعالى اختص بالعلم أهل خشيته ، فرفع درجتهم فى الخلق ، وجعل عامة الخلق عيالا عليهم فى ذلك، فرزقهم الايمان ، وضمن الايمان جميع العلم ، ثم أيدهم بالفهم الذكى ، والعقل الوافر ، وشرح الايمان فى صدورهم ، فهم على نور من ربهم ، ينفقون على الخلق على مدرجة اللسان ، يوصلوا ذلك الى الاسماع بابانه الحـــــروف وتفصيل (٤٢٦) المعانى ، حتى يقيموا حجة الله تعالى عليهم ، فهم القـائمون بالحجج فى كل وقت وزمان ، والمأخوذ عليهم الميثاق يوم أخرجهم من الظهور ليبينه للناس ولا يكتمونه ٠ فالبيان هو ابانة الكلام باللسان مترجما عن العلم الذى يتراكم فى الصدر ، ثم تدبره وميزه بعقله ، فأبرزه باللسان للاسماع ٠

ومبدأ العلم كله من نوعين : اسم وفعل ، فالاسم ساكن ، وانما هو شىء موضوع ، وهو سمة ذلك الشىء المسمى ٠

والفعل ذو حركات ، وهو سمة تلك الحركات ، وكلاهما اسم ٠ ولكنه ميز بينهما بالحروف ، ليعلم الاسم من الفعل ، كما ميز بين الفاعل والمفعول بالرفع والنصب ، ليعلم من الفاعل منهما ٠ وانما علم آدم الأسماء فجمـــع له العلم كله فيها ، فالمبتغى من ذكر الأسماء والأفعال وصول المعـــانى الى القلوب ، لادراك خبر ما فى المعانى حتى يصير الخبر علما فيقبله الذهن ، ويزينه العقل ، وينطوى عليه القلب ، وتطمئن اليه النفس ، فهذا هو الأصـــل ٠

فالعلم رأس كل أمر ، وخلق الله تعالى أصنافا وألوانا ، ثم أعطى كل شىء علمه الذى ينبغى له ، فبالعلم يعرف ربه ، وبالعلم يعبد ربه ، وهو جواب موسى عليه السلام لفرعون حين قال : « فمن ربكما يا موسى ، قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (٤٢٧) ٠ أى أعطاهم خلقهم ، ثم هداهم من خلقهم وكونهم ، ومن تملكهم ، ومن قواهم ، فالهدى هو العلم الذى أعطى كل شىء خلقه حين هداهم الى نفسه ، فالعرش ومن دونه ، وما بين الحدين فى الجو الأعلى ، وفى الهدى الى الحدود (٤٢٩) السفلى ، كلهم أعطـــــاهم خلقهم وهداهم ٠

فالعلم جملة ، والمعرفة تمييز الجملة ، والهدى اياجده اياهم بالقلوب على طريقه ، فاذا هداهم اهتدوا فقصدوه بالقلوب ، واستقرت النفوس له بالعبودية أستسلاما ، وانما قيل علم لأن علائم الايمان قد ظهرت فى الصدر ناظرتها فى القلب ، وذلك أن الايمان مستقره فى القلب ، فاذا أشرق نوره فى الصدر ، ثم اعترضه فكر الأمور من الخير والشر ، صار لكل فكرة فى الصـــدر ظل على هيئتــه ·

فالخير يتصور فى بهائه وحسنه وزينته ، والشر فى قبحه وشينة وظلمته، فلما فكر وتردد فى الصدر من شأن الآخرة وأمور الملكوت ، وقع لتلك الفكرة ظل على الصدر وعين الفؤاد ، وينظر الى ما يتصور على الصدر من تلك الأمور ، ويقع فى ظله ، فتصير الأشياء والأمور كلها له معاينة ، فيستقر القلب ويطمئن بما أبصر ، وهو اليقين · فاليقين فى لغة العرب استقرار الشيءبمكانه، فهو بمنزلة بيت فيه مصباح منير يضىء حائط البيت منه ، فاذا أشار انســان بكفه أو حرك اصبعا، وقع ظله على الحائط، فتصور ذلك الفعل وأبصرت(٤٢٩) العين تلك (٤٣٠) الصورة ، فاستقر بما أبصر · فكذلك أهل الطهارة قلوبهم على هذه الصفة ، فاذا امتلأ البيت دخانا أو غبارا ، فالمصباح فيه منير لمـا خالطه الغبار والدخان لم يبق للاشياء على حائط البيت ظل ولا صورة ، فكذلك القلب الذى لم يطهر من المعاصى ، من الغل والحقد وحب العلو فى الدنيا ، وحب الحياة وطلب المدح ، والثناء والذكر فى الناس ، وأشباه هذا ، فصدره مظلم، فاذا أضاء النور منالقلب ولميجد مكانا يضىء، وجاء لظل (٤٣١) هذه الأشياء فلم يقع على صدره ظل الأشياء ولا صورتها ، فاذا لم يعاين القلب صورة الأشياء فانما علم علما لم يستقر فى الصدر ، فيستقر القلب اليــه ويطمئن ·

الايمان طريق المعرفة :

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : العلم علمان ، علم فى القلب فذلك العلم النافع ، وهو هذا الذى وصفنا ، فانما يضىء فى القلب، لأن عينا (٤٣٢) القلب قد أبصرتا صورة ما ذكر له على صورة من داخل البيت فاستقر القلب ·

وعلم على اللسان فذاك حجة الله تعالى على ابن آدم ، فذلك علم حفظه وليس له قرار فى القلب ، انما حفظ ، والحفظ قرين العقل ، وكأن هذا العلم مستودع العقل ، والذهن به يعلم الحسن من القبيح ، والزين والشين ، والضر والنفع ، فعلم الذهن يريك ما تناله عين الرأس ٠

والعلم الأول مستودع المعرفة ، وهو علم اليقين ، يريك ما تناله عين الفؤاد ، يريك الأشياء بصورتها حتى تعبد الله تعالى على رؤية التدبير ، وعلى مهابة القربة ، وهى معرفة الموحدين ، ومعرفة أهل اليقين تحييز ، وكلاهما معرفة واحدة ، الا أن أهل اليقين فضلوهم فيها بانشراح الصدر حتى علموا من ربهم ما خفى على سائر الموحدين ، وهم أهل الخشية الذين (٤٣٣) ذكرهم الله تعالى ، فقال « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » (٤٣٤) ٠ وما ذكر فى الأحاديث ، أنهم هم العالمون بالله وبآياته ٠ وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جاءه رجل فقال : يا رسول الله علمنى غرائب العلم ، قال : ما صنعت فى رأس العلم ؟ قال وما رأس العلم ؟ ، قال : هل عرفت الرب ؟ قال : نعم ، قال : فما صنعت فى حقه ؟ قال : ما شاء الله ، قال : هل عرفت الموت ؟ قال : نعم ، قال : فما صنعت فى حقه ؟ وأعددت له ؟ قال : ما شاء الله ، قال : اذهب فتعلم رأس العلم ، ثم تعال أعلمك غرائب العلم (٤٣٥) ٠

فانما دله رسول الله صلى الله عليه وسلم على العلم بالله ليقوم بحقه ، ألا ترى أنه سأله عن حقه ، ذلك ليعلم أن من ضيع حقه وجهل ثم ادعى علما فهو كاذب ، وذلك على سمعه بأذنه وأودعه حفظه ، وليس فى القلب منه الا الايمان به ، فالمعرفة موضوعة فى القلب ، وحولها بحور العلم بالله متضمنة لأسماء الله ، وعلم صفاته ، وعلم معروفاته ، مثل جلاله وجماله ، وعظمته وبهائه ، وبهجته ورحمته ، وسلطانه وجوده ، ومجده وكرمه ، وعطفه ومنته، وغناه وسعته ، فمن عرف ربه هذه المعرفة امتلا قلبه فرحا ، ونفسه غنى ، وقويت جوارحه ، وفسح أمله ، وعظم رجاؤه ، واستغنى بغنى الله ، وتوسع فى سعته ، وأجمعت همته ، وطاب ايمانه ، واستقام هديه ، وثبت ركنه ، ووقر اسلامه ، وصدقت عبودته ، وشرف ذكره فى العلى ، ومثل جاهه ، وكان من المختصين برحمة الله ، المهتدين بولاية الله ، فهذه المعروفات هى حظ النفس ، فما لم تعرف النفس ربها بهذه الصفات فهى متحيرة فقيرة ، وخـــامدة ذليلة ٠

حب الله ومحبته :

وكل شعبه من ذلك العلم فتملأ ما بين العرش الى الثرى ، وتزيد وتفضل، وكل اسم للعبد به متعلق ، وله اليه مستند ، وعليه اعتماد (٤٣٦) يعتمد ، ووسيلة يتوسل بها الى ربه ، وكل اسم له شفيع الى ربه تعالى ، فهذه جوهرة مكنونه تملأ الدنيا والآخرة ، وتملأ الملكوت وفوق العرش . قال الموحدون هذا من وجود الله ، وعظيم رأفته ، وواسع رحمته ، رأس هذه الجوهرة ، حب الله تعالى والفرح به ، فان الله تبارك اسمه لم يعط ذلك أحدا حتى أحبه وفرح به ، وابتدأ خلقه من باب الحب والفرح ، وأيد الله تعالى المؤمنين بالمعرفة والعقول، حتى وحدوه فحبب اليهم الايمان وزينه فى قلوبهم ، فضلا من الله ونعمة ، والله واسع بفضله على المؤمنين ، عليم بمن جعله أهلا لذلك ، حكيم فى قسمته وفضله ، والمحبة جرت من الله تبارك اسمه الى عباده فى اللطف ، فوصل الى جميع خلقه فأحبوه وفرحوا به ، ألا ترى الى قوله تعالى : « **كل حزب بما لديهم فرحون** » (٤٣٧) ، وفرحوا به وبعبادته لمحبته ، واللطيف رفيق ، فلما جاءت الشهوات مالت بهم عن الله ، هكذا يمينا وشمالا ، فقالوا ربنا الله ، ثم لم يستقيموا فأشركوا به ، مالوا الى هواهم والى ما زين لهم الشيطان .

ثم خرجت محبة أخرى فى التوحيد الى أهل المنة والاجتباء ، فأحبوه وفرحوا به ، والتوحيد ثخين ركين ، فلما جاءت الشهوات ، وتزين الشيطان ليميل بهم ، لم يقدروا على ذلك ، « وقالوا ربنا الله ثم استقاموا » (٤٣٨) ، فلم يشركوا ولم يروغوا فى الشريعة ، روغان الثعالب .

ثم خرجت محبة ثالثة الى أهل الصفوة فشبت قلوبهم ، وغلت المحبة غليان المرجل ، فأحرقت حب الشهوات ، ووفدت بالقلب الى العزيز الجواد ، فشبت قلوبهم ، فبحلاوة المحبة تحلوا الأسماء ، وتجد القلوب تلك الحلاوة ، وترطب بذلك اللطف لأن فى الأسماء صفات المحبوب ولطفه وآلاءه (٤٣٩) وأخلاقه ، ورحمته وأفعاله ، وعلى قدر محبته لك تجد حلاوة الصفات فى اللطف والآلاء والأخلاق والكرم ، وتعظيم (٤٤٠) أفعاله عنك ، وتأخذ من قلبك بسلطان ذلك الفعل ، فاذا لم تكن فى القلب تلك المحبة اللذيذة التى يجد حلاوتها فى قلبه ، لم يجد حلاوة هذه الأسماء .

الحب طريق المعـرفة :

فبالحب ينال القلب طعم ما فى الأسماء من المعانى ، فاذا كان ذلك (٤٤١) وجد القلب طعم المعانى التى فى الاسم ، فأكل الأسماء بما فيها أكلا ، فسمى عليها ، لأنه [تعالى] (٤٤٢) أجرى الى العباد من كل اسم حوائجهم ، حلوا وحامضا ، عذبا ومرا ، ودسما وحارا ، فمن اسمه الرزاق رزقهم ، ومن اسمه التواب تاب عليهم ، ومن اسمه الغفار غفر لهم ، ومن اسمه الجواد جـــاد عليهم ، ومن اسمه الحنان تحنن عليهم وعطف ، ومن اسمه الرؤوف رأف بهم، ومن اسمه العزيز أثبت لهم العز ، فقال تعـــالى : « **ولله العزة ولرســـوله وللمؤمنين** » ، ومن اسمه الرحيم رحمهم فى دنياهم ، ومن اسمه الرحمن رحمهم فى دينهم ، ومن اسمه الوكيل توكل لهم ، ومن اسمه العظيم عظـــم شرفهم ، ومن اسمه الغنى أغناهم ، ومن اسمه الجليل أعزهم (٤٤٤) ، ومن اسمه الكريم أكرمهم ، ومن اسمه القريب قربهم ، ومن اسمه الرب در عليهم التربية فى الدنيا ، ومن اسمه المنان من عليهم من رحمته العظمى وهداهم ، ومن اسمه الله اجتباهم وعلق قلوبهم به ، حتى ولهت قلوبهم ٠

ومن كل اسم أهدى اليهم ما وضع فى ذلك الاسم ، لأنه من أجلهم أخرج لهم الأسماء (٤٤٥) ، فمن لقى الله تعالى ولم ينكشف له الغطاء لقى الله تعالى على غفلة وكفران نعمة ، وضياع شكر ، فبينما هو يعرف ربه بالجود والكرم والوفاء ، ثم تصير معرفته نكرة فيتملق الى عبيده فى النوائب ، ويتعلق بهم ويتخذهم من دونه وكيلا ووليا ، ويعرف ربه بالعطاء والكفاية فيستظهر عمن دونه وكيلا حتى يقع فى اثار المهلك ، ويصير مداهنا مرائيا متصنعا ، يتزين لخلقه ، ويرضى القبائح والمشاين فيما بينه وبين ربه ، ويستتر من خلقه ، ويتهاون فى الذنوب ، فعظم يوم القيامة حياؤه ، واشتد خوفه ، واستقبلته أهوال القيامة وعسرة الحساب ٠

ومن انفتح له ذلك ، وانكشف له الغطاء ، لقى الله تعالى على بصيرة، شاكرا مؤمنا موقنا ، باذلا نفسه ، غير مخاصم فى شىء ٠

ومخاصم يخاصم فى أحكامه ، يقول (٤٤٦) لولا كذا لكان كذا ، ولولا كذا لم يكن كذا ، مجادلا (٤٤٧) أهل التوحيد ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أياكم واللو ، والليت ، فانهما يفتحان عمل الشيطان (٤٤٨)٠

ومخاصم يخاصم فى تدبيره ، فيدبر نفسه لنفسه بداية من أمور دنياه وآخرته بمبلغ ما أوتى من عقله ، وعمله على تدبير ربه جهلا بالله ، واعجابا برأى نفسه ، وتملكا واقتدارا ، وأما تقوى اليوم فان ذلك اليوم يوم حشاه الله بالمثوبة والجزاء والعدل والنصر ، ويثيب على الاحسان ، ويجزى على العقول ، لأن الناس فى نياتهم على درجات على تقارب عقولهم ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يروى عنه ، قال : يعلمون الناس الخير، ويعطون أجورهم على قدر عقولهم (٤٤٩) ٠

وروى عن الله عز وجل قال : يا موسى انما أجزى الناس على قدر عقولهم، قال له قائل : صف لنا شيئا منه ، كيف تفاوت على قدر العقول؟ قال : مثل رجل دخل المسجد فوجد الصف الأول قد قام ، فوقف فى الصف الثانى ، فقد سقطت (٤٥٠) عنه درجة الصف الأول (٤٥١) ، ودرجته أنه قال (٤٥٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله وملائكته يصلون على الصف الأول (٤٥٣)، وجاء أيضا أن الرحمة تنزل على الامام مائة رحمة ، فيأخذ من بخياله (٤٥٤) خلفه مثل للامام ، ثم الذى عن يمينه الى منتهى [الصف] (٤٥٥) خمسة وسبعين ، ثم الذى عن يساره خمسين (٤٥٦) ، فمن دخل المسجد فوقف فى الصف الثانى عن غفلة لم ينل من صلاة الرب عز وجل شيئا ، ولا من هذه الرحمة التى وصفت عن ابن عباس رضى الله عنهما (٤٥٧) ، فمن دخل [المسجد] (٤٥٨) فنوى : أنى لو وجدت مكانا (٤٥٩) لدخلت فى الصف الأول ، فبهذه النية استوى هو بالصف الأول ، وله مثل أجورهم لما نوى ، كأنه فيهم ، ثم اذا تمنى أن يدخل فى الصف الأول ونوى ذلك ، وامتنع مخافة أن يؤذى مسلما أو يضيق عليه ، يضاعف أجره على من فى الصف الأول ، بما اتقى أذى المسلم ٠

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ترك الصلاة فى الصف الأول مخافة أن يؤذى مسلما أو يزاحم أحدا (٤٦٠) ، فصلى فى الصف الثانى أو الثالث ، أضعف الله عز وجل أجره على من صلى فى الصف الأول (٤٦١) ٠

فهذا بعقله نال زيادة الثواب على الصف الأول ، والآخر بغفلته وجهله سقط عنه (٤٦٢) هذا الثواب ٠ فهذا تفسير (انما أجزى الناس على قدر عقولهم) ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يعجبنكم اسلام رجل

حتى تعلموا ما عقده عقله (٤٦٣) (انتهى) ويجـــازى على الكفران ويظهـر عدله حتى يختم به الأفواه ، ويخرس به الألسنة ، وينصر حقه ، ثم ينشر رحمته ، ويبرز فضله ، ويهطل جوده وكرمه ، ويظهر فيه لخلقه جلاله وعظمته، وملكه وكبريائه ، وسلطانه وبهاه ، وعزه ومجـــده ، وجـوده ورحمته ، فللمتقين (٤٦٤) فى ذلك اليوم درجات ٠

درجات المتقين :

فمتق يلقاه بتوحيده ووفاء توحيـــده قولا وفعـــلا ، قد اتقى الشرك والمعاصى ٠

ومتق يلقاه بتوحيده ووفاء توحيده قولا وقلبا وفعلا ، فهذا هو الميثاق الذى دأبت (٤٦٥) عليه قدميه أيام الدنيا ، قد اتقى أن يطمئن الى شىء واحد سواه ، واتقى أن يستأنس بشىء سواه ، وبأحد سواه ، وأخذته الغيرة لربه أن يأنس بأحد غيره ، أو يفرح بشىء سواه ٠

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أراد أن يعـلم منزلته عند الله فلينظر ما منزلة الله تعالى عنده ، ويعظمه ويهابه ويجله ، فان الله تبارك (٤٦٦) اسمه ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من نفسه (٤٦٧)

وأما تقوى النار فان النار منتقمة ، وللانتقام خلقت ، وكانت بيضـــاء نيرة على خلقتها ، لأنها من النور ، ثم أرسل اليها [الله تعالى] (٤٦٨) سلطانه حتى سودها وحددها ولظاها وحشاها من غضبه ، حتى أكل بعضها بعضا ، وكادت تميز من الغيظ ، ثم لها فى الموقف شرر ولهب ودخان وتلظى وزفرات ، وجواز الخلق عليها ، فهذا كله لتبارك نصرة الحق ، فمن نصر الحق وقى النار وشرها ولهبها ودخانها ، وحبسها حتى لا يراها ولا يسمع حسيسها (٤٦٩) ، ولا يعلم بالجواز عليها ، ويجعلها عليه بردا وسلاما ٠

حدثنا محمـــد بن أبى عمر العبيـــدى ، حدثنا سلمان بن حـــرب ، [حدثنا] (٤٧٠) أبو صالح الحسن بن غالب بن سليمان ، عن كثير بن زياد، عن أبى ميمنة قال : سألت جابر بن عبد الله عن الورود (٤٧١) فقال : سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الورود الدخول ، لا يبقى بار (٤٧٢) ولا فاجر الا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على ابراهيم [عليه السلام] (٤٧٣) ، ويبقى لجهنم من بردهم ضجيجا (٤٧٤) ، ثم قال : « ثم ننجى الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيها جثيا » (٤٧٥) ٠

حدثنا عبد الله الربعى ، عن منصور بن عمار ، عن ابن لهيعة ، عن بشر بن طلحة الحزامى ، عن خالد بن دريك ، عن خالد بن منبه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : تقول النار للمؤمن جـــز ، فقد اطفأ نورك لهبى (٤٧٦) ٠

ثم للتقوى من النار حدود ودرجات : فمتى لقى الله تعالى بتوحيده فلابد أن يبقى على الصراط حتى تمس جوانبه النار ، الا أن يعفو الله ، وانما قلنا جوانبه لأن الوجوه الساجدة والأطراف المتوضئة محرمة على النار ، فيمـــا روى فى الخبر ٠

ومتى لقى الله تعالى بتوحيده ووفاء توحيده وهناك تخليط فى الباطن ، وتضييع وتفريط فى الفرائض والحقوق ، وهنات (٤٧٧) ، فلابد أن يصـــيبه شررها وأهوالها وحسيسها ، الا أن يعفو الله تعالى ٠

ومتى لقى الله بتوحيده ووفاء توحيده ، وهناك تخليط وتفريط وتضييع وهنات (٤٧٧) ، ولكنه لقى الله مستورا بها ، وندم وتاب وجاهد فى ذات الله تعالى أيام حياته ، فستره وعفا عنه فى الدنيا حتى لقى الله تعالى صادقا مستورا ، فجوازه على الصراط مع ســـتره (٤٧٨) ، فوقى شررها ولهبها وحسيسها ورؤيتها ٠

ومتى لقى الله تعالى بتوحيده ووفاء توحيده ، وهناك (٤٧٩) تخليط وتفريط وتضييع وهنات (٤٨٠) ، فتاب وندم ، واجتباه ربه بمشيئته ، فأحبه ربه ، فأحرق حبه لعبده تخليطه وتفريطه وتضييعه وهنانته ، وقلبه مع حبـــه ومع شوق العبد اليه فبدله مكان كل سيئة حسنة ٠ وههنا قول الشعبى : اذا أحب الله عبدا لم يضره ذنبه ٠

صلة الرحم وقيمتها :

وأما تقوى الأرحام ، فتقواها من القطيعة ، والرحم مأخوذ من اسمه الرحمن ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما (٤٨١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أول ما خلق الله تعالى الرحم قامت فأخذته بمقوى الرحمن ، واستعاذت (٤٨٢) من القطيعة ، فقال لها : خلقتك بيدى ، وشققت لك اسما من اسمى ، وهذا مكانك منى ، لأصلن من وصلك ، ولأقطعن من قطعك (٤٨٣) ٠

وعن كعب قال : الرحم مشحنة من منكب الرحمن فمن وصلها وصله ، ومن قطعها بتته (٤٨٤) ٠

فالرحم أصله من الرحمة ، وهو سبب بين الرب تبارك اسمه وبين العباد، فهذه ثلاثة أسباب [هى] (٤٨٥) أسباب الوصلة : سبب منها المعرفة ، والسبب الثانى العهد ، والسبب الثالث الرحم ٠

فبالمعرفة يتواصون (٤٨٦) ، وبالعهد يتعاملون ، وبالرحم يتواصلون٠

وروى عن موسى صلوات الله عليه وسلامه أنه قال : يارب أوصنى ، قال: أوصيك بصلة الرحم لجنس أبيك آدم عليه السلام ، قال : يارب فكيف لمن تباعدنى فى مشارق الأرض ومغاربها ؟ قال : أحب لهم ما تحب لنفسك (٤٨٧)٠

وروى عن كعب أنه قال : ان سرك أن تصل رحمك ما بينك وبين آدم عليه السلام ، فأحب لهم ما تحب لنفسك ، فمن بلغ هذه الرتبة فقد صحت معاملته، وصحت معرفته (٤٨٨) ٠

ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى هريرة : يا أبا هريرة أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا ، قال : فهذا ميزان تزن به العبودية ، وذلك أن الله تبارك اسمه جعل بعض عبيده فى الرق ملكا لك ، حجة عليك ، [فانظر] (٤٨٩) ما الذى تقتضى من عبدك كيف تريد أن يكون لك ، فكن لمولاك مثل عبدك لك ، وانظر ما الذى تحب لنفسك فأحب لخلقه مثل ذلك ٠ فانتظم

هذا ان [أردت] (٤٩٠) جميع العبودة · وان الله تعالى اتخذ من أجل العباد كسوة ، ولا حاجة له الى الكسوة سبحانه ، فالرحمة قميصه ، والعز ازاره والكبرياء رداؤه (٤٩١) ، فهذا منة للعباد · ثم أرسل القميص فى جوانب عرشه فخلق منه (٤٩٢) الرحم ، فوضعها فى الجسد ، فمن وصلها فانما يتصل بالقميص ، ومن قطعها انقطع من ذلك القميص · ولذلك كان كعب لايخرج على من جلس اليه وهو قاطع الرحم ، وذكر ذلك عن التوراة ·

وكذلك روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم ، فكان يكره أن يحرم القوم نزول الرحمة [من] (٤٩٣) أجل ذلك القاطع ، والرب اسمه ، والله اسمه ، والرحم منه بدا ، والنار من نوره بدت ، واليوم من كلمة كن ، وتلك كلمة سلطان لا تشبه الكلمات المتقدمات من قوله كن ، لأن قوله كن فيما مضى كلمة قدرة وربوبية ، وهذه الكلمة قدرة وسلطان · ألا ترى أنه قال : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب » (٤٩٤) ، أى بل هو (٤٩٥) أقرب ، فانما صار هذا أقرب من لمح البصر، لأنها كلمة زجرة وسلطان ، ألا ترى الى قوله عز وجل : « **فانما هى زجرة واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب** » (٤٩٤) ، أى بل هو (٤٩٥) أقرب ، فانما صار هذا أقرب من لمح البصر ، لأنها كلمة زجرة وسلطان ، ألا ترى الى قوله عز وجل : « **فانما هى زجرة واحدة فاذا هم ينظرون** » (٤٩٦) ، فانما صار ذلك اليوم بكلمته ، وهى كلمة سلطان وزجر ، فندب العباد الى أن يتقوا هذه الأسامى الخمسة (٤٩٧) ، فيجعلوا أنفسهم فى وقاية من ذلك ، فانه وضع فى كل اسم منها ما اذا برز لم يقم له ، والتقوى أن يجعل نفسه فى وقاية الوفاء بما أمر به ، والوفاء بذلك يستجلب للعبد الرحمة ، والرحمة تصير وقاية للعبد من هذه الأشياء ·

باب فى بيان الشكر والحمد

قال أبو عبد الله رحمه الله تبارك اسمه ، خلق آدم عليه السلام فأحسن خلقه ، وجمل صورته ، فقـــال فى تنزيله : « **لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم** » (٤٩٩) فمن ذا يقدر على صفة حسن تقويمه ؟ وقال تعالى : « **الذى خلقك فسواك فعدلك** » (٥٠٠) فمن ذا يقدر على صفة تسويته وتعديله ، وليس أحد من خلقه فى مثل هذه الصفة من التقويم (٥٠١) والتسوية والتعـديل ٠ ثم قال : « **فى أى صورةٍ ما شاء ركبك** » (٥٠٢) فأخرج تقويمه وتســويته وتعديله من باب الرحمة ، وأخرج تركيب الصورة من باب المشيئة والفـــرح به ، ثم فضله بالروح ، وقربه بالنفس ، وجعل فيهما الحياة والحراك للعبودية، ثم جعل تلك البضعة الجوفاء خزانته وهو القلب ، وجعل لها عينين تبصران الغيب ، وأذنين تسمعان وحيه وكلامه ، وجعل لهما بابا الى الصدر كالسراج المتوقد شعاعه فى الصدر ، وجعل تلك البضعة معدنا لجوهر التوحيد من الحكمة البالغة والعلوم العالية ، وقبض عليها - ضنا بها - فلم يطلع عليها ملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا ، فهو يقلبها على مشيئته ٠

وخلق الآفات فى ذلك اليوم الذى خلقه ، وذلك يوم الجمعة ليقـــابل كل شىء من صنعه الجميل فى آدم عليه السلام ، وفى ولده وفى الظاهر منه وفى الباطن آفة ذلك الشىء ، ليكون الآدمى حامدا لله عز وجل ، يزينه ذلك الصنع الجميل على نفسه ولنفسه بذلك الحمد والشكر ، وليكون أخذه الحذر من الآفات بهذا الحمد والشكر ، وليكون داخلا فى ستره ، فجعل أول الحمــد فى الكلمة العليا وهى لا اله الا الله ، فاذا قالها صار له عبدا متعبدا ، واذا شهد بها من شهدائه وأوليائه والقائمين بالقسط لله ، ثم يثنى هذه الكلمة بالحمد لله، فعندها صار قوله بالحمد لله مقبولا ، ولا يقبل منه هذا حتى يكون على مقدمة لا اله الا الله ، ثم اقتضى العبد بعد ذلك تحقيق هاتين (٥٠٤) الكلمتين بالشكر، وهو أن يفى بالعبودة له بهذه الجوارح السبع ، فينتهى عما نهى عنه من فعل هذه الجوارح السبع ، ويأتمر بما افترض عليه فى جسده وما له الذى جعله قائما لجسده ، فهذا الشكر المقتضى من العبد تحقيقا لما تقدم منه من قوله الحمد لله حتى يفى حمده بهذا الشكر ، فاذا وفى بهذا كان ذلك الحمد تحقيقا للكلمة العليا التى تقدمت ، لا اله الا الله ، وسماها فى تنزيله كلمة التقوى ، تقيه آفات الدنيا والآخرة ٠

ثم (٥٠٥) لما صار للعبد فى هذه المهلة غفلات وهنات (٥٠٦) ، مما يلحقه من نزعات العدو وهمزاته وخطراته ونفجاته ونفثاته من أجل الشهوة المركبة فيه ، والهوى الهفاف فيه ، لهبوب تلك الشهوات ، وهما سلاح العدو وسبيله الى الآدمى ، بهما يصل الى اغوائه (٥٠٧) ، فاذا كان ذلك دخل فى الشكر تقصير ، وفى الحمد تكدير ، وفى الكلمة العليا ترجيم ، وعلى العروة الوثقى توهين حتى يصير القلب معلقا بعد أن كان منتصبا ، ويصير مقيدا بعد أن كان مطلقا ، ويصير منقبضا بعد أن كان منبسطا ، ويحرج صدره بعد أن كان مطلقا منشرحا ، فعندها الآفات كائنة ، وعلى كل شىء من جميع صنعه لازمة ، فيجده أعمى بعد أن كان بصيرا ، وأصم بعد أن كان سميعا ، وأبكم بعد أن كان نطوقا ، وزمنا بعد أن كان يدب على وجه الأرض ، وعاجزا بعد أن كان قابضا وباسطا ، وفى الباطن كذلك انما تلحق الآفات كل شىء قابل نعمة من نعمه ، وانما لحق العبد تلك الآفات لما دخل من التقصير فى الشكر ، وقال فى تنزيله: **«ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»** (٥٠٨) وقال فيما جرى من الخبر عن الله تعالى لبنى اسرائيل : انى أبتدى عبادى بنعمتى ، فان قبلوا أتممت ، وان شكروا زدت ، وان غيروا بدلت ، وان بدلت غضبت ٠

ثم أعطى العباد من بعد ذلك من باب الرحمة من جوده كرما ، ومن كرمه عطفا عليهم ما يحترزوا به من الآفات مع هذا التقصير الذى جاءوا به ، وجعل لتلك الأشياء حرمة اذا نطق بها العبد وجبت للعبد حرمة لحرمة تلك الأشياء ، فوقع فى حراسة من تلك الآفات عطفا منه جل جلاله على العباد ، وتكرمة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، واختصاصا لهم بالفضل الذى لهم على الأمم ، وأنزلها على رسوله صلى الله عليه وسلم فى تنزيله تبارك وتعالى، فمن تلك الآيات ونطق تلك الكلمات صار للعبد شفيعا الى ربه يسأل حراسته وكلايته ، حتى يقع العبد فى حصن الله من الآفات ٠

التسبيح :

وروى فى الخبر أن آدم عليه السلام لما هبط ابتلىبالحرث والنسل (٥٠٩) فبكى وقال : يارب شغلتنى بهذا وقد كنت أسمع تسبيح الملائكة ومحامدهم ، فبعث الله تعالى اليه جبريل عليه السلام وقال : قل الحمد لله حمدا يوافى نعمه،

ويكافىء مزيده ، فانك اذا قلت ذلك غلبت جميع ما خلقت بذلك ، محامدهم وتسبيحهم ، فانما غلب الخلق لأن العبد فى أثقال النعم فلا ينفعك منهـــا الا بالحمد ، فيحتاج لكل نعمة الى حمد يتخلص عنها ، وديوان النعم على حده ، وديوان الحسنات والسيئات على حده ، وديوان مظالم العباد عــلى حدة ، فينشر على العبد ثلاثة (٥١٠) دواوين يوم القيامة ٠

كذلك بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان العبد محتاجا عند كل نعمة الى حمد ، فأعطاه الله تعالى كلمة جامعة جملة ، فتتشعب تلك الكلمة وتجزى عدد كل نعمة لله عليه ، حتى تذهب الى كل نعمة فتلزمها ، حتى اذا وقف بين يدى الله تبارك وتعالى ونشر عليه ديوان النعم ، وجـــد لكل نعمة نورا قد لزمها ، وذلك نور الشكر الذى نطق بحمده ههنا جملة ، فيوزع وينقسم بأجزائه على جميع النعم ، فكأنه قال تبارك وتعالى ، على وجه المباهاة به ، يا ملائكتى هذا عبد خلقته من تراب فبلغ منمعرفته اياى بأن يشكر على كل نعمة ، فترى الملائكة نعمة نعمة ، بلغ كل نعمة نورا قد لزمها ، وهو نور شكر العبد من تلك الكلمة التى نطق بها ، فيقول هذا ما وجهت الى عبدى ، وهذا النور الذى وجهه الى شكرا لما وجهته اليه ، فيبهو (٥١١) ذلك العبد على رؤوس الخلائق يومئذ بتلك المباهاة ، فاذا قال الحمد لله حمدا يوافى نعمه ويكافىء مزيده ، فقد حمد نعمه حمدا يلحق بكل نعمة جزءا من ذلك الحمد ، وبقى للمزيد أجزاؤه حتى يكافئه بها فى الجنة يوم الزيادة ، فاذا لقيه العبد لقيه من نور ذلك الحمد الأجزاء (٥١٢) المكافئة ، وهو حبه ، لأن العبد لا يقدر أن يكافىء ربه على رؤيته والنظر اليه بشىء الا بحبه اياه ، فانما حمده العبد بهذا الحمد الذى له من نور الحب ما يتجزأ ، فيلحق كل جزء منه كل نعمة لله جل ذكره فيلزمها ، ويلحق أجزاء المزيد فتقوم كفاءة ، أى اذا تراءى له الجليل جل جلاله يوم الزيادة ، لقيه العبد بحبه مكافئا لما صنع الرب جل ذكره من رفع الحجاب واظهار جلاله وجماله وبهائه ونوره على عينه ، فهــذه كلمة قد ملأت الدنيا والآخرة ، فلذلك قال [تعالى] (٥١٣) : اذا قلت هــذا فقد غلبت جميع ما خلقت ، فانما عظم ذلك لأن الكلام حين جاءه ولج صدره مع نور الكلام ، فلما نطق به خرج مع النور والشعاع ٠

وروى فى الخبر أن العبد اذا قال الحمد لله ملأ نوره ما بين الســـماء والأرض ، فاذا قالها الثانية ملأ نوره ما بين الأرض الى العرش ، فاذا قالها

الثالثة ملأ نوره ما بين العرش الى الثرى · ففى أول دفعة صفى المجرى ، وذهب (٥١٤) الغشاء المحيط به ، وهو دخان الشهوات وغيوم الهوى ، فقوى القلب وأخرج مرة أخرى من صفاء العلم بالحمد لله ، فازداد صفي طريق المجرى ، فأخرجوا من محصن العلم ، وذلك أن علم الحمد لله في قلبه ، فكلما انكشف الغطاء عن القلب كان أصفا وأنور وأعظم نورا ، فاذا نطق به خرج من النور والشعاع ما وسع النعم أجزاء ، وبقى [من] المكافأة يوم المزيد مايكون كفارة ، والذى لم يطهر من الأدناس ، أى أدناس الشهوات ، وظلمات الهوى ، والحرص والرغبة ، والكبر والحسد ، والتجبر والبغى والتعزز ، والتملك والاقتدار والعلو والتعظم ، رجع النور كأنه يقول ليس هذا مكانى ، انما أحل الصدر الذى يتطهر من هذه الأدناس والأقذار والظلمات ، فهناك معدنى ومحلى، فيقف خارجا يلتمس صدرا بريئا من هذه الأشياء ، فمن اشتمل على هذه الأشياء علم الحروف ، فانما فى صدره الحـــــروف المؤلفة ، فتلك الكلمات والصوت الذى يبرزها به ، كانت قوة لتلك الحروف تجزئة (٥١٦) ، فتلحق بكل نعمة فتلزمها ، فانما ثواب هذا العبد على النطق بها ثواب الأجزاء ، فانه قد أعمل جوارحه فى طاعته ، وأثقال الشكر باقية عليه ، فاذا وقف بين يدى الله عز وجل ، ونشر عليه ديوان النعم خالية من أنوار الشكر ، فاستحيا العبد من لهوه وغفلته وبطالته ، فأعطى الله تعالى المؤمنين جمل الكلام ، أعطاهم للنعم كلمة ، وهو قول الحمد لله ، فيلحق نورها جميع النعم بأجزائها ، فصارت كل نعمة مقرون بها شكر العبد ·

وأعطاهم لنفى الشرك كلمة ، وهو قول لا اله الا الله ، فصارت مقرونة بكل شىء خلقه الله تعالى للعباد ، ونافية للشرك عنه ·

وأعطاهم لتنزيهه كلمة ، وهو قول سبحان الله ، فصارت مقرونة بكل مسبح لله تعالى ، فاذا سبحه بحمده فقد أتى بجميع المحامد ·

وأعطاهم لزينة العبودية كلمة ، وهو قول الله أكبر ، فاذا أكبره فقد تواضع ، وألقى بيديه ·

وأعطاهم للقوة على هذه الأشياء كلمة ، وهو قول لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ·

فانما تخرج هذه الكلمات من العبد مع نور الكلمة ، تعمل عملها ، وتبلغ مبلغها ، فاذا قال الحمد لله فانما هى كلمة جملة ، فاذا اشترط وأشار الى غير موصوف فقال حمدا يوافى نعمه ، خرجت الكلمة بنورها ان كان له ذلك النور ، فتوزعت وانقسمت على جميع نعم الله جل ذكره ، فلحقت كل نعمة قسطها فلزمتها ، فيخرج من اثقال النعم ، لانه قد قال فى تنزيله : « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » (٥١٧) · فاذا عجز العبد عن عده للنعم أن يحصيها فعلمه كلمة يلحق بأجزائها كل نعمة على حدتها ، فوافاها حتى اقترنا ، كل نعمة وشكر العبد مقرون بها لما نطق بهذه الكلمة · وهذا الكلام انما يخرج من هذه الافواه حروفا مؤلفة ، والأنوار كسوتها معها ، نزلت من السماء للعباد ·

فالعباد في النطق بهذه الكلمة متقاربو الشأن فى تلك الأنوار ، ومثل ذلك كمثل الخواتم لا تكد تجد الخاتم الا فيما بين المثقال والمثقالين ، وعامة الخواتم أوزانها هذا القدر من الفضة ، فليس ههنا كبير تفاوت بين خواتم العباد ، انما الشأن فى الفصوص التى تباينت جواهرها ، فرب جوهر هو فص خاتم لا يساوى درهما ، ورب فص جوهرة لا يوصف جودة ، مبلغ ثمنه ألف دينار وأكثر ·

فكذلك النطق بهذه الكلمات ، الناس متفاوتون فى التصويت وأنوارها لفظا وقراءة ودعاء ، ولكن تتفاوت المعادن التى فيها هذه الأنوار ، التى فيها هذا الكلام ، أكثر تفاوتا من تفاوت الفصوص ، فكلمة تخرج من قلب معدن ذلك القلب فى الآخرة ، وتخرج من قلب معدن ذلك القلب فى الملكوت ، وتخرج من قلب معدن ذلك القلب فى ملك الملك بين يديه ، فانما استنار قلبه بذلك النور ، فكل كلام يخرج منه ، فمن ذلك النور يخرج ·

ومثل من سبح تسبيح غيره مثل رجل يعجز [عن] ٥١٨ أن يهدى الى الملك على قدر ملكه وغناه ، فأهدى اليه من طاقته ومعدنه ، فقال أهديت هذا من ذات يدى ، وأهديت اليك بقلبى هدية مثلك ، فعلم الملك أنه صادق فى مقالته ، فاحتسبها منه على قدره كرما منه ، وجعل على ذلك جوادا ، جل جلاله منه ، فكذلك العبد انه عاجز عما وراء ذلك من الثناء ، اذ هو فوق ما أثنى عليه ، فيقول لك الحمد كما حمدت نفسك ، وأنه كما أثنيت على نفسك ، ولك ذلك التسبيح الذى سبحت به نفسك ، ولك الحمد زنة عرشك ومداد كلماتك،

ورضى نفسك • فهذا لعجزه عن بلوغ هذه الأشياء يجعل مقالته بالقلب كتلك الأشياء التى ذكر ، ولا يقدر بلسانك أن يعبر الا بمبلغ علمه ، فربنا تعـــالى ذكره يقبل منه كهبة ، ما أحال عليه من حمده وثنائة على نفسه ، وكما أحب ورضى لنفسه ، وانما أمر بالثناء قبل سؤال الحاجة ، لأن الثناء حق العظمة، فأمر العبد أن يبدأ بحق العظمة ، حتى يعظم بالثناء عظمته ، ثم يسأل الحاجة، فاذا سأل الحاجة من قبل أن يثنى فكأنه لم يعظم الرب ، ولم يؤد حق العظمة•

ولو أن ملكا من ملوك الدنيا رفع الحجاب فيما بينك وبينه وسهل لك السبيل الى نفسه ، ورفع الحوائج اليه ، فكان قد علم رتبتك ومنزلتك ، فكيف برب العالمين أفليس يجب عليك فى ذكر شكر ، وأول الشكر تعظيمه باللسان والقلب ، ثم بعد ذلك رفع الحاجة ؟! •

باب [فى فضل التسبيح والاستغفار] (٥١٩)

ومثل حركات الآدميين مع الحفظة مثل رجل أصبح وله حرفاء ، يأخذ من أحدهمطعامه ، ومن الآخر لحمه ، ومن الآخر توابله ، ومن آخر فواكهه ، ومن آخر هواضمه ، ومن الآخر فنون ما يروم (٥٢٠) به معاشه ٠ فهؤلاء الحرفاء يكتبون عليه دينا (٥٢١) ، فاذا أهل الهلال خرجوا عليه حسابا جما ، وديونا طويلة (٥٢٢) ، فان هو أعد لكل حريف فى وقت الآخر ما يصدرهم عن رضا من بابه فقد خفت المؤنة ، وهنأت النعمة وأمرأت ، وان تغافل عن ذلك توالت عليه وظائف الشهوات يحرق **فيها** ٠

كذلك العبد بين نعم كثيرة وذنوب كبيرة ، والحق يقتضيه شكر كل نعمة، والعدل يقتضيه الاستغفار من كل خطيئة ، فان كان منتبها حى القلب ، أعد لكل نعمة حمدا ، ولكل خطيئة استغفارا ، حتى يخف الحساب وينمحى (٥٢٣) ما فى الديون (٥٢٤) ٠ وان تغافل عن ذلك فحمد حمد الغافلين ، واستغفر استغفار الغافلين ، قولا كقول السكارى على العادة ، فخرج الحمد والاستغفار منه فلم يجد مساغا لأنه ليس لقلبه طريق (٥٢٥) الى الله سبحانه ، والطريق مسدود بالهوى والشهوات ، رجع الحمد والاستغفار الى فمه فتراكمت أثقال النعم وأدناس الخطايا على القلب فغرق ، فمات القلب غريقا ، كالذى يغرق فى الماء ولا يجد مخلصا ولا متعلقا ، فيرجع (٥٢٦) الى أنفاسه لا يجد متنفسا فيموت غرقا ، ومن كان لقلبه طريق (٥٢٧) الى الله تعالى وجد مساغا فجرى، فاذا لم يجد مساغا وجمع الماء فصار بحرا يغرق فيه صاحبه ٠

ومثل التسبيح مثل ملك بين يديه خدم فوجههم الى عمل لا ينفلت من ذلك العمل أحد الا ناله من غباره ، فاذا عملوا العمل ورجعوا الى مقام الخدمة نفضوا عن ثيابهم ورؤوسهم ذلك الغبار حتى يدخلوا على الملك على هيئتهم التى كانوا عليها مع الطهارة (٥٢٨) والنقاوة ، فكذلك العباد اذا ما دسوا أمور الدنيا ، وخالطوا الخلق لم ينفكوا من الغبار والأدناس ، وان اجتهدوا فى التقوى وفى الصدق وفى التدبير ، فيرجعوا الى ربهم بالتسبيح حتى يكون ذلك منفضا لما لحقهم من الغبرة ونالهم من الأدناس ، قال رحمه الله تعالى : ومثل التسبيح والثناء والقرآن كمثل عروس زينت للعرض على الزوج وعلى المجمع على رؤوس ما اجتمع ، فمن شأنها أن تقلم أظفارها ، وتنقى

شعرها وصدرها ، وعنقها وبدنها وقدميها من الأوساخ والأدران ، ثم تتحلى بالحلى وتلبس ألوان الثياب زينة لها فان لم تفعل ذلك وتركت هذه الأظفار والدرن والأوساخ على بدنها ، وحليت بالحلى وزينت بالثياب كان ذلك كاللعب، ونسب ذلك الى أهل الجنون والعتاهة ·

فكذلك الذى تدنس بالمعاصى وتوسخ بالبطالات ، ويتزين لربه بالثناء والتسبيح وقراءة القرآن ، ألا ترى الى قوله جل وعز : « **انما يتقبل الله من المتقين** » (٥٢٩) · والصادق الحاذق فى أمـــــره يبدأ فيتطهر ويلقى الدرن وأوساخ المعاصى والفضول ، ثم يتحلى بالحلى ، ويتزين بالحلل ، فذاك فعل لبق ، وهو جاد فى فعله ، وانما وكل الآدمى فى أمر دينه برمى الفضول ، فأمر أن يتقى الشرك بقول لا اله الا الله ، وأمر باجتناب المحارم من الظلم والعدوان والسرقة والزنا والكذب وشرب الخمر والغيبة ، وسائر الآثام ، فهذا كله فروض ، ثم أمرنا بالفرائض ثم بالسنن لنتحلى بها ، ثم بالتطوع لنتزين به ، فاذا لم يرم الفضول وقصد قصد الزينة فهو لاعب يستهزىء بدينه ، ويســخر بنفسه ، وهو قول ابراهيم خليل الرحمن لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ليلة أسرى به : أقرأ أمتك منى السلام ، وقل لهم أن الجنة قيعان طيبة التربة ، عذبة الماء ، وان غراسها قول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر ، فمثل ذلك مثل رجل غرس غرسا فى بستانه ، فكان بذره ألوانا من الرياحين ومن اثمار ألوان ، فنبت على هيئة ما بذر ، فكذلك بذر التسبيح غير بذر الحمد ، ولكل كلمة بذر غير الكلمة الأخرى ، فمنبته من بذره ، وكل بذر له جوهر وطعم وريح ، فكذلك هذه الكلمات ، فكل كلمة لها جوهر وطعم وريح وثمرة ، فجوهر سبحان الله القدس والطهر والنزاهة ، وطعمها السعة والغنى والشوق والحلاوة ، وريحه الفرح ، وثمرته نفاد مشيئتك والحكم والقسم ·

الذكر طريق الحب :

وجوهر لا اله الا الله الوله بالألوهية ، وطعمه الامتلاء والغنى ، وريحه النصر ، وثمرته الحرية والخروج من الرق والاعتزاز بالله جل وعلا ·

وجوهر الله أكبر ، أكبر ، وطعمه النزاهة ، وريحه السماحة ، وثمرته القوة فى سبيل الله ، فاذا بذرت نبت هناك على تراب ذهبى ، قد خرج ذلك

التراب من الرضوان ، والماء من الحياة والرحمة ، والبذر من الصفات ، فما ظنك بنبات أصله من الرضوان والحياة والرحمة ، فكيف تكون تلك الرياحين وتلك الثمار فكل يكون نبته وثمرته وطعمه على قدر ما خرجت منه هذه الكلمة يقينا ومعرفة وعلما ، وهو قوله تبارك وتعالى : « **ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا** » (٥٣٠) فحسن الكلمة فى حسن الخروج منه فى هذه المعادن لحسن المساكن والأزواج والكسوةوالبساتين والثمار والأفراح والوجوه والاحسان والخدم ، فقسم الله تعالى حسن الجنة فى الدرجات عى قدر حسن أعمالهم (٥٣١) وعبودتهم ، فبالعلم والمعرفةواليقين تحسن الأشياء ، وبالأفعال والأقوال وباليقين تطيب وتثبت وتدوم ٠

ومثل الذكر فى الحقيقة مثل رجل شم مسكا ، وللشم تفاوت ، فرجل شمه من وراء وعائه وزجاجة وكنه ٠ ورجل فتح الكن وشمه من وراء الوعاء والزجاجة، ورجل خلص الى الزجاجة فشمها والمسك فى صرة ، ورجل فتح الوعاء وهو الصرة فشمه بحتا ، فهذه كلها مشامات مختلفة متفاوتة ، ورجلا شمه ممزوجا بالمسك والعنبر والأدهان ، وتسمى غالية لأن ثمنها غال ، ثم ضم اليها من سائر الطيب حتى يصعد سلطان ريحه ، وذكاوة ريحه ، فذلك المحمود المنتفع به ٠ وانما تحمد الأشياء للنعم التى تؤدى منه الى الخلق حتى يكون هذا الحسن راجعا الى الأصل الذى منه جرى النفع الينا ، فقام الحمد مقام أصل النفع ، فكما بان تفاوت هذا الشم لهذا المسك ، فكذلك بان تفاوت ذكر الذاكرين ، فكل ذاكر بما يذكر على قدر قربه منه ، ووجدان ريح الرأفة ، لأنه لا يأذن لأحد فى ذكره حتى يجعل له حظا من رأفته ، فاذا تحركت الرأفة هاج الحب ، حب الله عز وجل لعبده ، فاذا هاج احتملته الرحمة فأدته الى العبد ٠

وفى الحب والرأفة (٥٣٢) فرح البهجة ، فمبتدأ ذكر العبد من ملك البهجة ، فاذا تحركت البهجة هاجت رياح البهجة على قلوب الموحدين ، فظهر الذكر ، فاذا ذكر المحدون بالقلوب ، صعد الذكر الى محل ملك البهجة ، فذكرهم الرب تبارك اسمه ، فاذا نطقت الألسن بالذكر ظهر ثناء وذكر محاسنه وصياغه ، صعد هذا الذكر الى الله جل وعلا ، فوقفت أنوار الذاكرين (٥٣٣) بين يديه كالشفعاء لقائله ، فعندها يذكر الله تبارك اسمه ، وعبده بما يقربه اليه ، فيظهر من الرب تبارك وتعالى للعبد بالنظر له فى جميع أموره ، فيشتمل ذلك الذكر من الله جل ثناؤه على سيئات العبد ، لأن الرب تعالى اذا ذكر عبده فانما يذكره بالثناء عليه ، فذاك الثناء من الله عز وجل يشتمل على مساوىء العبد فيسترها حتى تذوب تلك المساوىء فى حريق ذلك الحب ، وقد يتضمن

ثناء الرب تبارك وتعالى • وبتلافى مساوئهم (٥٣٤) فهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، قال الله تبارك وتعالى : « **واذكر ربك اذا نسيت** » (٥٣٥) ، فجعل ذكره الحادث عوضا عن الغائب فى ساعات النسيان • ومستدركا له ، وهذا لعظيم حرمة (٥٣٦) الذكر ، ورفيع مرتبته عند الله عز وجل ، لأن الذكر منبعه من الفرح ، وفرح الله بعبده ومشيئته ، وفيضه من باب الجود ، فلذلك صار ساعة الذكر عوضا عن ساعات النسيان ، فتشتمل على تلك الساعات ، فتورد على العبد ما يتلافى كل ما فاته ، وانما فاته تدارك الرحمة ومردها •

بين الحب والمعرفة :

ومثل الحب كمثل شجرة لها قلب وأغصـــــان ، فالقلب من الساق ، والأغصان فروع الشجرة منها الثمرة ، ولكن أصل الثمرة من القلب ، فالمعرفة هى الشجرة ، والحب قلب المعرفة ، والخوف والرجاء والحياء والخشـــية والرضا والقناعة ، وسائر الأشياء أغصانها ، ومنها تتولد الثمرة وهى الطاعات ، وانما جاد عليك ربك بالمعرفة ، فمن بها عليك بعد أن قسم لك حظا من محبته ، فأخرج اليك محبته من باب الرحمة والرأفة ، فنلت حظا من المحبة والرأفة والرحمة حتى ظفرت بالمعرفة ، فلما عرفته خفته ورجوته وخشيته ، ورهبت منه ، فاطمأننت (٥٣٧) اليه ، فاعتقدت عبودته بقلبك ، وتسليحك اليه نفسك فى أمره ونهيه ، هذا كله فى عقد المعرفة ، وهى كالأغصان من الشجرة ، وانما عظمت الشجرة بأغصانها ، والثمرة من بعد ذلك كسبك الطاعة •

فالحب سر الله تعالى فى ايمان العباد (٥٣٨) ، يفتح لهم من ذلك على أقدارهم بمشيئته بما سبق لهم من الأقدار منه ، وهو قوله عز وجل : « **ان الذين سبقت لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون** » (٥٣٩) ، عن النار • ثم قال : « **لا يسمعون حسيسها** » (٥٤٠) ، وكأنه أجازهم على الصراط وهم لا يشعرون بها ، فالحب سر فى الايمان بارز ظاهر ، وهو قوله تعالى : « **حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم** » (٥٤٣) •

التجلى الالهى :

والله تعالى عرف (٥٤٢) نفسه لأهل (٥٤٣) مشيئته بالمنة ، وخوفهم من عظمته ، ورجاهم من كرمه ، وأخشاهم من ربوبيته ، فنالوا هذه الأشــياء من المعرفة المشحونة بهذه الأشياء •

وأما الحب فانهم نالوا حبهم من حبه لهم ، كأن بدء المسرة حبه لهم ،

والفرح بهم ، ألا ترى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أفرح بتوبة عبده من رجل أضل بعيره فى مفازة مهلكة ، عليه زاده وحمولته ، فهو يضرب يمينا وشمالا فى طلبه حتى أيس منه ، وأشرف على الهلاك ، فقال فى نفسه ، أرجع الى حيث أفقدته فأموت هناك ، فرجع فوجد بعيره (٥٤٤) عليه زاده وحمولته ، فجعل يغلط من الفرح ، وجعل يقول ، اللهم انك عبدى وأنا ربك ، قالوا : يا رسول الله ، كفى بهذا فرحا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذى نفسى بيده ، الله أفرح بتوبة العبد من هذا ببعيره ٠

فبدو شأن المؤمن فرح الله تعالى به ، وحبه له ، من ههنا ، خرج وظهر أمره فى البدء ، فهذا شأن سر الله تعالى فيما بينه وبين عبده ، وضعه فى باطن معرفته فهو يحبه ويخافه ويرجوه ويخشاه ، فهذا كله نظام واحد عند العامة ، ولكن خاصة الله لما اختصهم (٥٤٥) بالرحمة التى اختص بها الموحدين حتى نالوا توحيده ، ثم أولج للخاصة باب الرحمة حتى دخلوا فوصلوا الى الرحمة العظمى التى منها خرجت هذه المائة رحمة التى كتبها على نفسه لعباده ، وفى تلك الرحمة حبه ، فلما دخلوها وصلوا الى تلك الرحمة العظمى فغرقوا فيها ، وفيها حبه ومشيئته ، ففتح لهم باب المشيئة، وأنالهم من حبه ، فلما فتح لهم باب المحبة علقت به ، ولهت عن كل شىء سواه ، وشبت النفوس بتلك الحلاوة التى نالت ، فعندها انقطعت الأسباب والعلائق ، وتطهروا من أدناسها بوصولهم الى مقامهم فى القربة ، فلما تطهروا تقدسوا تقدس قربة القدوس ، فلما تقدسوا خلصوا الى فردانيته فانفردوا ، فعندها جاز لهم أن يقول أحدهم يا واحدى ، فاذا قال صدق وأجيب، وكان من أهل القبضة الذين (٥٤٦) وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى هريرة أنه قال : سيروا ، سبق المفردون ، قالوا : يا رسول الله ، ومن المفردون ؟ ، قال : الذين اشتهروا فى ذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفافا ، فالخوف انما تخاف من عظمته ، والرجاء ترجوه من رحمته ، والخشية أن تخشاه من مهابته ، والحب هو أحبك وأعطاك من حبه لك حتى أحببته ، فهذا مباين الخوف والرجاء والخشية فى الأصل ، والخوف والرجاء والخشية هاجت من نفسك لعظمته ٠ والحب منه بدأ فوضع فيك حتى هاج منك حب من ذلك الموضوع فيك ، والذى وضع فيك من الحب سر منظوم من نور المعرفة ونور التوحيد كشىء فى شىء ٠

فالمعرفة ظاهرة والحب فيها باطن ، كلب الشىء ، فلذلك قلنا انه من

المعرفة بمنزلة قلب الشجرة ، فعظم القوة فى الشجرة من قلب الشجرة ، ثم اختص [من اختص] (٥٤٧) من العباد وفتح عليه باب حبه حتى هاج ما فى قلبه يسمو (٥٤٨) الى الذى عبده به ، فلا يزال قلبه يسمو (٥٤٨) فى السر وحب الله له فى مزيد حتى يصير العبد هائما والها به ، فكما كان هذا فى الأصل سرا ، فحقيق على العبد أن يسر ذلك فيما بينه وبين ربه ، ولا يبديه حتى يكون ذلك مصونا فيما بينه وبينه ، ويجتهد فى أن لا يشتهر فينسب الى ذلك فيقتضى غدا صدق ذلك وحقائقه ووفائه ، فيستحى من ذلك ، ألا ترى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما ذكروا منة الله تعالى عليهم بالاسلام طابت نفوسهم ، فقالوا : انا لنحب الله ، فلو علمنا ماذا يحب لأتبعنا (٥٤٩) محبوبه ، فابتلوا بهذه الكلمة ، فأنزل الله عز وجل : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** » (٥٥٠) فجعل أتباع نبيه صلى الله عليه وسلم علما لمحبته وامتحن دعواهم بمحبتهم اياه بقوله : « **ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** » (٥٥١)، فاقتضاهم قتالا بهذه الصفة من الثبات ليبرزوا حقائق حبهم ، فلما خرجوا الى القتال فمنهم من وفى (٥٥٢) بذلك ، ومنهم من لم يوف ، فأنزل الله تعالى : « **لم تقولون ما لا تفعلون** » (٥٥٣) ٠

وروى عن أبى الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله **تعالى** : « **قل ان كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله** » (٥٥٤) ، قال على البر والتقوى والتواضع لله وذل النفس ، فالبر ما افترض الله على العبيد ، والتقوى ما نهاهم عنه ، والتواضع أن يضع مشيئته لمشيئة مولاه فى جميع أموره ، وذلة النفس ترك التمنى فى عطاياه فى الدرجات ٠ وفى اقامة هذه الأربع صفوة العبودية ، فهو عبد الله ورسوله أرسله الى الخلق على طريق العبودة لله ، فمن شأن الكريم أن يحب من أحبه ، ولم ينل حبه أحدا الا مد حبه فجعل الاتباع علامة المجيبين (٥٥٥) لهذه المقالة ، فقالوا : على ماذا نتبعه ؟؟ فقيل : هذه سيرته فاتبعه فى سيرته فانه واصل الى [أى الله تعالى] (٥٥٦) فاذا اتبعته فى سيرته وصلت الى ، وسيرته العبودة ، والعبودة فى هذه الخصال الأربع (٥٥٧) التى أجملت لك ٠

تم والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وسلم تسليما ٠

وقد كان الفراغ من نسخة يوم الاثنين ، ثالث وعشرين مضى من شهر صفر الخير سنة واحد وتسعين بعد الألف (٥٥٨) ٠

[ملحق فى تفسير الترمذى لقول لا اله الا الله] (٥٥٩)

قال أبو عبد الله محمد الترمذى ، رحمه الله تعالى : **تفسير كلمة لا اله الا الله** ، اذا قال العبد لا اله الا الله فان معناه لا رازق ولا كاف ولا معبود الا هو ، ولا نافع و ضار ، ولا معطى ولا مانع ، ولا محيى ولا مميت ، ولا معز ولا مذل الا الله عز وجل ٠

الله لا اله الا هو، فالأول فى الآية اثبات وشهادة، وكذلك فى الآخر اثبات، وفيما بين ذلك نفى الأضداد والأنداد ، ردا (٥٦٠) على الملحدين فى التبرئة والتنزيه وسقوط الأنداد ، فهو من المؤمنين شهادة وعبادة وذكر وتذكار ، وفضل وزيادة فى الدرجات ٠ ومن الكافرين اقرار بالتوحيد وتبرؤ من الشرك والكفر ، وايمان بالله ٠ ومن المنافقين ان كان بغير اخلاص ومعرفة وصدق فهو يسترهم ويصون عرضهم ومالهم به ، وليس لهم فى الآخرة من نصيب ٠

فان قالها المنافقون على الشرائط التى شرط عليهم ، كان اخلاصا منهم وخروجا من النفاق ، وتلك الشرائط فى قوله تعالى : « **ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار** » (٥٦١ ٠ ثم قال : « **الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله** » (٥٦٢) ٠٠ فان كان القول من المنافقين على هذه الشروط اخلاصا فهو موجبا لهم ما وعد الله المؤمنين بقوله : « **درجات منه ومغفرة ورحمة** (٥٦٣) ٠٠

فلسفة التوحيد :

قيل له [أى الترمذى] : ففسر لنا لا اله الا الله ، وترجمته ان وفق الله لك ذلك ، قال [الترمذى] (٥٦٥) : وأما ترجمة لا اله الا الله فليس على ماذهب اليه العامة ، ولا على ما فسره المفسرون ٠ ولا على ما ترجمه المترجمون ، وقد غلطوا فى ترجمته وتفسيره ، وقصدوا غير سبيله ، وشرحوا الظاهر وكتموا الباطن وما فى حشوه (٥٦٩) ، وذلك أنهم ترجموا قوله (لا) بالأعجية (نيست) وهو خطأ بين ، وكيف يشبه (لابليس) ، أم كيف يشبه به بالأعجمية (نيست) ؟؟

ولو كان كما ذهبت اليه من قولهم (لا اله : نيست خداى) لكان ليس اله على قياس قولهم ، ولكنهم بالخطأ يتكلمون ، وبالمحال يترجمون ، والهم

ينفون ، وسيستبين لك خطأ قولهم ،ومحال ترجمتهم ، وتكون على علم منـــه ان شاء الله تعالى ، وبالله التوفيق •

فلسفة النفى والسلب :

ان (لا) كلمة نفى وتنزيه ، أبرزها الجليل لينفى بها كل معبود دونه عن أن يكون مثله ، وتنزه بها ربك عن أن يكون له شبه ، أو يكون له فى ملكه شريك أو ولد كما زعم الكفار والمشركون ، وكفرة أهل الكتاب •

والنفى والتنزيه هو التسبيح والتبرئة •

وأما (ليس) فهى (٥٦٧) كلمة جحود وانكار ، وليس للانكار والجحود ههنا معنى ، انما ههنا موضع النفى والتنزيه ، وهما التبرئة والتسبيح ، وقد دعى الله الخلق اليهما ، وبهما أمر ، لا بالجحود والانكار ، وذلك أن القوم لم يكونوا ينكرون أو يجحدون أن ليس فى السماء اله ، وأنهم يزعمون أن له ولدا شبهه وهو عيسى ، وأن له شريكا فى ملكه وهو هذه (٥٦٨) الأصنام ، وأنه قد اتخذ صاحبة وهى مريم ، وأنه اصطفى البنات على البنين ، وهى(٥٦٩) الملائكة ، وأن الشمس والقمر والشجر والكواكب له شركاء فى ملكه • وقد قال الله تعالى فى كتابه يحكى عن قولهم : « **ولئن سألتهم من خلق الســـموات والأرض ، [وسخر الشمس والقمر] ليقولن الله** » (٥٧٠) • فدعى الله خلقه الى أن ينفوا عنه مقالاتهم الرجسة ، وينزهوه عن ذلك كله ، وينفوا الآلهة التى اتخذوها من دون الله ، ويوحدوه بوحدانيته فى ربوبيته •

فاذا قال لا اله ، وزعم أن ترجمته ليس اله فانما أنكر الاله المستحق ، وبه جحد ، وهو الرب تبارك وتعالى اسمه ، لا المستعار وهو الصنم ، لأن الاسم المستعار للصنم من اسم ربنا وهو الاله ، لا يدخل فى قوله ليس ، وانما يدخل الاسم المستحق وهو اسم الرب ، لأن الجحود انما يقع على المستحق نصا ، لا على المستعار المنحول ، وانما يقع النفى على المستعار والمنحول بـ لا (٥٧١) ، ألا ترى أنك اذا قلت ليس اله (٥٧٢) فقد جحدت اسم الاله الذى هو اله ، واذا قلت لا اله فقد نفيت اسم الاله المستعار المنحول ، لأن الله عز وجل دعاك أن توحده وتنفى ما دونه مما تسمى باسمه الله ، وزعموا أنه اله دونه ، وتنزهه وتبرئه عن أن يكون دونه أحد أو معه فى ملكه أحد ، فأطلق لســـانك

على أن تقول لا اله ، وهو بالأعجمية (نه خدايست) هذا الذى تزعمون أنه اله دون الهى ، وقد سميتموه باسم الله ، ثم تقول (الا الله) وهو بالأعجمية (خدا وخداى) الذى له اسم الاله المستحق ، فاذا قلت ذلك فقد أجبتهم به ، ورددت عليهم قولهم ، وما سموا به أصنامهم ، ونفيت اسم الهك عنه ، ونزهت ربك عن كل ما أشركوا فيه ، وبرأته (٥٧٣) عن أن يكون فى ملكه من يشبهه (٥٧٤) ، وأثبته ملكا فردا ، ووحدته أحدا صمدا ، وسبحته بما هو له أهل ، وأصبت معنى الله بقولك فى الرد عليهم [وعلى] (٥٧٥) مقالاتهم الرجسة ، ونافحت عن ربك ، وانتقمت منهم نقمة ربك ، ولا شيت أقوالهم ، وأبطئت حجتهم ، ودمرت عليهم تدميرا ، ونصرت اسم ربك وقدسته من أقذارهم وفككت أسرته ، واذا قلت (لا) وزعمت أن ترجمته (ليس) لم يك لهم فى قولك جوابا ، وتلاشى كلامك ، وبطل المعنى ، وصار النفى جمودا ، ووقع الجحود موضعه على التحقيق ، فجحدت اسم ربك المستحق ، وهو الله ، وان كان الضمير على غير ذلك ، لأن المعنى فى كلامك يؤدى ههنا على خلاف ما فى الضمير ، لأن معناك من قولك هذا على النفى واثبات الرب ، وقولك على لسانك يؤدى نفى اسم الله لا اسم الصنم ، فكيف يغنى عنك ٠

ولو أنك تقول هات كوزا من ماء ، وفى ضميرك معنى الخبز ، وان أردت أن تظهر لك قبح تلك الترجمة ، وفحشه ، ورشد ترجمته وحسنه ، واصابة المعنى فى التمييز بينهما مثلت لك لتدركه ، فان هذا حرف لطيف لا يدرك ماقلنا ولا يفهمه الا من وفق للنظر ، وكان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أرأيت لو أن لك فرسا ، ولرجل حمار وقد سماه فرسا ، أتاك فقال هذا فرسى كفرسك، ما كنت تقول له ؟ ٠٠ ان قلت ليس فرسا (٥٧٦) ، نفيت فرسك ، وجحدت أن يكون فرسك فرسا ، لا حمارا باسم فرسك ، ولو قلت ليس حمارا كذبت لأنه حمار وليس بفرس ، قيل له [أى الترمذى] (٥٧٧) : اشرح لنا كيف سبيله، قال : ان قلت ليس فرسا (٥٧٨) الا الفرس لم يكن كلاما (٥٧٩) لأنك قد نفيت الفرس الذى هو فرسى وجحدته قبل أن تثبته وقبل أن تنفى فرسه [اذ] (٥٨٠) أنه ليس بفرس ، ألا ترى أنك حين قلت ليس فرسا نفيت فرسك لأنه هو الفرس ، ولم تقع كلمتك ونفيك على الحمار لأنك قلت ليس فرسا (٥٨١)، نفيت فرسك لأنه هو الفرس ولم تقل ليس حمارا (٥٨٤) ، وان قلت ليس حمارا (٥٨٣) ، لم يكن أيضا كلاما لأنك كذبت فى قولك ليس حمارا (٥٨٤) ، وانما هو حمار ، فاذا قلت لا فرس فقد رددت عليه ما جاء به من الاسم المستعار

من فرسك على حماره ، ثم قلت الا الفرس ، فأثبت اسم فرسك المستحق على فرسك الذى هو اسمه ٠

وكقول رجل للفلس هذا دينار ، فاذا قلت ليس دينارا (٥٨٥) نفيت الدينـــار لا الفلس ، لأن الفلس فلس وان سمى دينـــارا ، واذا قلت ليس فلسا (٥٨٦) لم يكن كلاما لأنه فلس ، وان قلت لا دينارا نفيت الفلس المسمى بدينار ، فاذا قلت الا الدينار ، أثبت الدينار الذى هو دينارك ٠

انتهى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثالث

الحواشى والتعليقات

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثـالث

الحـواشى والتعليقات

(★) **قال الامام :** استرعت هذه الافتتاحية للمخطوط انتباهنا للبحث عن وجود علاقة بين الحكيم الترمذى وبين الشيعة الامامية بوجه خاص ، وعن وجود علاقة بين فكرة الولاية عنده وعند المتصوفة عامة وبين عقيدة الامامية عند الشيعة بوجه عام · ولكننا لاحظنا أن للحكيم الترمذى موقفا مغايرا لموقف الشيعة من فكرة الامامة (عرضناه فى دراستنا عن المخطوط والترمذى) · ولعل هذه الافتتاحية التى افتتح بها المخطوط لا تعدو اضافة لقب الى ألقابه الأخرى ، كالحكيم ، والمحدث ، وذلك كما كان يقال عن الغزالى : أنه حجة الاسلام ، الامام أبو حامد الغزالى ·

ولكننا فى موضع آخر ، فى الرسالة الصغيرة الملحقة بالمخطوط موضوع التحقيق والدراسة ، وهى رسالة [فى تفسير قول لا اله الا الله] نجد الترمذى يقول : (ان البعض فسر هذا القول تفسيرا ظاهريا ، وكتم الباطن وما فى حشوه) · واذا أخذنا هذا القول على ظاهره أيضا لكان الترمذى مستخدما منهج الشيعة الباطنية فى التفسير ، وهو منهج التأويل ، واذا بحثنا عن جوهر وحقيقة قوله هذا وجدناه يرى لكل قول من أقوال القرآن حقيقة ظاهرة وحقيقة باطنة أعمق وأدق من المعنى الظاهر ، وهو ما نسميه روح النص والتفسير بالمعنى لا بالمبنى فقط ، ولعل الاتجاهات السائدة فى عصر الترمذى كانت ذات تأثير عليه بطريقة ما ، وان لم يؤدى هذا الى حشره فى زمرة الشيعة أيا كان اتجاهها ·

١ – بحثنا عن علاقة هذه العبارة بقول الله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة – البقرة/٣١) فوجدنا الآمدى يذكر أن البعض يرى أن المراد بالتعليم هو الالهام ، وبعث داعى آدم على الوضع ، وسمى الله معلما لكونه الهادى الى القلم ، لا بمعنى أنه أفهمه ذلك بالخطاب ، كقوله تعالى فى حق داود : (وعلمناه صنعه

لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) الأنبياء ٨٠ معنـــاه ألهمناه ذلك ، وقوله عز وجل فى حق سليمان : (ففهمناها سليمان ـ الأنبياء / ٧٩) أى ألهمناه ٠

ثم يحاول الآمدى أن يبين ما اذا كانت المعرفة باللغة اصطلاحا ومواضعة أم توقيفا ، فيقول أننا اذا سلمنا أن المراد بالعلم هنــا الافهام بالخطاب والتوقيف ، فهل أراد به كل الأسماء مطلقا ، أو الأسماء التى كانت موجودة فى زمانه، والأول ممنوع والثانى مسلم٠ واذا سلمنا أنه أراد به جميع الأسماء مطلقا ، فان ذلك يدل على أن علم آدم بها كان توقيفيا ، ولا يلزم أن يكون أصلها بالتوقيف لجواز أن يكون من مصطلح خلق سابق على آدم ، والبارى تعـــالى علمه ما اصطلح عليه غيره ، واذا سلمنا أن جميع الأسماء المعلومة لآدم بالتوقيف له ، فانه يحتمل أن يكون قد أنسيها ، ولم يوقف عليها من بعده ، وأصطلح أولاده من بعده على هذه اللغات ، ويكون الكلام فى هذه اللغات ٠

ثم يفند الآمدى هذه الآراء فيقول : (قولهم المراد من تعليم آدم الهامه بالوضع والاصطلاح مع نفسه ، وهو خلاف الظاهر من اطلاق لفظ التعليم ، ولهذا فان من اخترع أمرا واصطلح عليه مع نفسه ، يصح أن يقال انه ما علمه أحد ذلك ٠ ولو كان اطلاق التعليم بمعنى الالهام بما يفعله الانسان مع نفسه حقيقة ، لما صح نفيه ، وحيث صح نفيه، دل على كونه مجازا ، والأصل فى الاطلاق الحقيقة ، ولا يلزم من التأويل فيما ذكروه من التعليم فى حق داود وسليمان التأويل فيما نحن فيه ، الا أن الاشتراك فى دليل التأويل والأصل عدمه ٠ وقولهم: أراد به الأسماء الموجودة فىزمانه، انما يصح أن لو لم يكن جميع الأسماء موجودةفى زمانه، وهو غير مسلم، بلالبارى تعالى علمه كل ما يمكن التخاطب به ، ويجب الحمل عليه عملا بعموم اللفظ ٠ أما قولهم أن من الجائز أن يكون جميع الأسماء من مصطلح من كان قبل آدم فيرد الآمدى على ذلك بقوله ان كان ذلك محتملا الا أن الأصل عدمه فمن ادعاه يحتاج الى دليل ، وبه يبطل أنه يحتمل أنه أنسيها ، اذ الأصل عدم النسيان ، وبقاء ما كان على ما كان (راجع الأحكام

فى أصول الأحكام ـ سيف الدين الآمدى + ٦٣١ هـ ، ص ٧٣/٧٤ القاهرة سنة ١٩٦٧) ٠

وواضح أن هذا البحث يدخل فى نطاق ما اذا كانت اللغة اصطلاحا ومواضعة واتفاقا بين البشر أم أنها توقيف وتعليم الهى لا اجتهاد فيه ولا اتفاق ، ولقد اختلف المعتزلة والأشاعرة حول هذه المسألة فمنهم من ذهب الى أنها اصطلاح ومواضعة ، ومنهم من ذهب الى أنها توقيف، والمعتزلة ومنها الجبائيين وابن متويه، وابن المرتضى من الزيدية، ذهبوا الىأن دلالةاللفظ على المعنى اصطلاح اتفق أصحاب اللسان الواحد عليه ، بينما ذهب البلخى والأشعرى وابن فورك الى أنها توقيف ، لقوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها ـ البقرة / ٣١) اذ علمه سبحانه دلالة الأسماء على المسميات ، وذهب الاسفرائينى الى أن بعضها مواضعة وبعضها توقيف (راجع رياضة الافهام فى لطيف الكلام من كتاب البحر الزخار لابن المرتضى + ٨٤٠ هـ ، وقارن تذكرة ابن متويه ص ٣٧٩ / ٣٨٠) ٠

ومن الواضح أيضا أن الترمذى أقرب الى القائلين بأن اللغات توقيف وليست اصطلاحا أو اتفاقا ، وهذا ما توسعنا فيه بعض الشىء فى تقديمه للمخطوط ودراستنا عليه ٠

٢ ، ٣ ، ٥ ـ بحثنا عن علاقة الاسم بالمسمى ، خاصة قوله أن الاسم مأخوذ من السمة ، وانه مشتق من (سم) ، فوجدنا أولا أن لفظ الاسم ورد فى القرآن فى ثلاثة مواضع فقط مما يتصل بأسماء الأشياء التى يستخدمها الأفراد فى حياتهم اليومية ، وهذه المواضع هى قوله تعالى : (ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ـ النجم/ ٢٣) وقوله عز وجل : (ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ـ يوسف / ٤٠) وقوله سبحانه : (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم / ٧١ ـ الأعراف)

ثم وجدنا أن كل الآيات الأخرى التى تورد فيها كلمة الاسم فانما تكون فى حق الله تعالى واسمه ، كالأعلى ، والأعظم ، واسم ربك ، واسم الله ٠٠ الخ ٠

ثم بحثنا فيما اذا كان الاسم من حيث دلالته على الشىء هل هو نفسه الشىء ، بحيث أن الاسم يحمـــــل فى داخله دلالة الشىء ومعانيه ، فوجدنا أن ذلك ليس ضروريا الا اذا كانت اللغة توقيفا وليست اصطلاحا ومواضعة ، ولما كنا الى كونها مواضعة واتفاقا أميل لاتفاق ذلك مع الواقع ، فاننا لا نرى هذه العلاقة المطردة بين الاسم ومعنى الشىء ودلالته ، فكم من اسم له دلالة فى مجتمعنا غير دلالته فى مجتمع آخر ان لم يتناقض المعنيان تمام التناقض ٠

ولعل ما وجدناه عند ابن متويه فى تذكرته ، حول عـــلاقة الاسم بالمسمى ، يمكن أن يلقى ضوءا أكثر على هذه القضية وهو فى ذلك يقول : (قد يصح أن يدخل فى الأسماء قلب ثم لا يقتضى ذلك فى المسميات على ما يحكى عن عباد لأنه منع أن يصير المجاز حقيقة، والحقيقة مجازا ، وهذا بعيد لأن السواد لو سمى بياضا لم يخرج عما هو عليه فى ذاته ، وعلى هذا يوجد السواد ولا مواضعة عليه أصلا ، ولا يمكنه أن يمنع من صحة وقوع المواضعة من أهل اللغــة على خلاف ما وقعت لأنه لا يتبع المعنى ولا يعرف اسمه ، وكذلك فليس الاسم بموجب للمعنى ، لأن الأعجمى لقن لفظه وان لم يعرف معناها ، والذى يبين ثبوت هذه الطريقة فى كلامهم أن الغائط كان مستعملا فى المطمئن من الأرض ، ويجوز استعماله فى الكتابة عن الحدث ، ثم صار حقيقة فى هذا دون الأول ٠

وكذلك القول فى الدابة لأنها وضعت فى الأصل لكل ما يدب ، ثم صار حقيقة فى هذا الحيوان المخصوص :

وكذلك الملك موضوع للرسالة ثم يستعمل فى رسول مخصوص، وكذلك الصلاة وغيرها ، فثبت بهذه الجملة جواز أن ينقلب المجاز حقيقة والحقيقة مجازا ، ولا يوجب ذلك قلب المسمى ٠

ويعقب ابن متويه على العلاقة بين الاسم والمسمى بقوله : (ويصح عندنا قلب الأسماء والاتيان بمواضعة ثانية اذا حصل فيه غرض صحيح ، وعلى هذه الطريقة حسن الاصطلاح من أهل النحو

والعروض والفقه والكلام ، على ألفاظ أفادوا بها غير ما وضعت له فى الأصل ، وقد منع الشيخ أبو القاسم ـ يقصد البلخى ـ من جواز ذلك الا بوحى ، وأنه متى انقطع الوحى ، امتنع جوازه ، وما بيناه قد أبطله ـ التذكرة لابن متويه ص ٣٨٠ / ٣٨١) ٠

ولعل رأى ابن متويه هنا حول الاسم والمسمى ، وصلة كل منهما بالآخر ، وامكان قلب المعنى من حقيقة الى مجاز أو العكس ، يعد ردا موضوعيا على وجهة نظر الترمذى الذى جعل اشتقاق الاسم من سمة الشىء ، وبالتالى فان العلاقة بينهما ثابتة ولا تتغير ، ومن الواضح أنه متفق مع رأيه حول أصل اللغة وكونها توقيفا ، ومن ثم لا يتغير معنى الاسم المشتق من الشىء الذى تعلم معناه آدم عن الله عز وجل منذ بدء الخليقة ٠

٤ ـ هذه الزيادة من عندنا لكى تضبط العبارة وتصبح ذات معنى ٠ (*) ويمكن قراءة العبارة كلها منفية هكذا : (حتى أن نفى الاسم دليل على نفى وجود صاحب الاسم) لأن اثبات العبارة بمثابة تكرار للعبارة السابقة عليها وهى : (وكل اسم دليل على صاحبه) ٠

٦ ـ فى الأصل كتبت هكذا : (والأقوى) ولعل ما أثبتناه جعل المعنى أكثر استقامة ٠

٧ ـ فى الأصل كتبت هكذا : (وفى ذكر بيت الألف فقيل ٠٠) ولعل الأصح ما أثبتناه ٠

٨ ـ استطراد طريف من الحكيم الترمذى حول تفسير لفظ (اسم) وشرحه ٠ مما يوضح النزعة التحليلية عنده ، والتى سنلاحظها فى كثير من مواضع المخطوط ، حيث نجده يجعل لكل لفظ ، بل ولكل حرف من حروف لفظ ما معنى معين ، وبحيث يمكن أن نستنتج معنى اللفظ من مجموع معانى الأحرف المكونة له ، ولقد توسعنا فى نزعة الترمذى التحليلية فى دراستنا آرائه ٠

٩ ـ الخير والجوهر : يمكن قراءة الكلمة الأولى (الحيز) بأن يكون الله تعالى حين وضع للاشياء أسماءها ، وللالفاظ معانيها ، كانت

كلها تحمل فى داخلها الخير والفضيلة لا الشر والرذيلة ، وتكون حينئذ الأشياء قد اكتسبت ما فيها من شرور ورذائل من استخدام البشر لها ، لا من تسمية الله اياها ٠ وهنا يمـــكن أن تدخل فكرة الاصطلاح والمواضعة فى تسمية الأشياء ومسمياتها عند الترمذى ، واختلاف مدلول الاسم ومعناه من مكان وزمان الى مكان وزمان آخرين ، هذا من جهة ٠ ومن جهة أخرى يمكننا تفســير مســألة الاصطلاح والمواضعة على التســـــمية بين البشر ، أن نقرأ الكلمة السابقة (الخبر) بأن يكون كل اسم من الأسماء قد وسمه الله بأسم يدل على حقيقة ما فيه من الخبر والجوهر ، أى الحقيقة الباطنة والعرض الخارجى ، وفى هذا الحال يختلف خبر كل اسم بحسب خبرتنا به واستخدامنا ونظرتنا اليه ، ومن ثم بحسب ما نتفق عليهمن اصطلاح ومواضعة ٠

١٠ ـ سورة البقرة ـ آية/ ٣١ ٠

١١ ـ قول مبالغ فيه من الترمذى ، اذ أن ليس من المقبول ولا المعقـــول أن تكون الحروف المعجمة هى أصل العلم كله ، وأن كل اللغات قــد ابتدأت منها ، ولسنا بحاجة الى الاشارة الى اختلاف عدد الأحرف، فضلا عن طريقة كتابتها ونطقها ، ومخارج كل منها ، وشكلها ، فى اللغات السامية القديمة والعبرية والفـــارسية والآرامية والمصرية القديمة واليونانية واللاتينية والقبطية القديمة ، والحبشية ، واللغة المسمارية ، الى آخره من اللغـــــات المرتبطة بالحضارات الشرقية القديمة ٠ وكل هذه الأوجه المختلفة للفروق بين اللغات البشرية ، مما يؤكد مبالغة الترمذى حول كون الحروف المعجمة هى أصل العــلم ومنها ابتدأت كل اللغات ٠

١٢ ـ كلمة (طرفا) هذه يمكن أن تقرأ (ظرفا) بحيث يكون القلب ظرفا أى مكانا للعلم ، ويكون الصدر مكانا للتصورات ، والفم مـكانا للتعبيرات ، والكلمات المنطوقة ، كما يمكن أن تقرأ الكلمة (طريقا) فيكون القلب طريقا ووسيلة للمعرفة ، ويكون الصدر طريقا للتصورات والفم طريقا للتعبيرات والأصوات ٠

١٣ ـ رأى من الترمذى مبالغ فيه أيضا ، لأننا لا نستطيع أن نستوثق من هذا الخبر القائل بأن سيدنا آدم كان بالفعل أول من وضع اللغة وقسمها على هذا النحو تبعا للادوات وبحسب الجوارح ، ولعل كل هذا استنتاج مؤسس على التخمين من الترمذى ، وما بنى على التخمين فان العقل لا يقبله بسهولة ويسر ٠

★ ـ قال أبو عبد الله رحمه الله : بين كل موضع وآخر فى المخطوط ترد هذه العبارة خاصة فى أول كل فكرة جديدة ، ويمكننا من ذلك أن نستنتج أن مخطوط الترمذى مملى على كاتبه ، أو منسوخا من نسخة أخرى مملاة على كاتب ما ، وليست النسخة الأم التى هى بخط المؤلف ، لأنه لو صح هذا لكانت تلك العبارة التى تتردد كثيرا لا معنى لها ، ولا داعى لوجودها ٠

١٤ ـ بحثنا عن القول الذى نسبه الترمذى الى على بن أبى طالب فلم نتمكن من العثور عليه فى أى خبر من الأخبار ، ولا فى كتابه المنسوب اليه ، نهج البلاغة ـ وفى كل الأحوال فان الأعضاء السبعة التى أشار الترمذى الى أن الكلام يجرى تبعا لها تحتاج الى تحديد ، فالجوارح الظاهرة خمس جوارح ، يضاف اليها القلب والعقل اذا اعتبرناها من أدوات المعرفة وليس الكلام ٠ ومن المعروف أن ما يؤثر فى خروج الكلام وطريقة نطقه هو : اللسان ، الحلق ، الأسنان ، الأنف ، الشفتان والصدر ، تلك هى الأعضاء التى تتدخل فى مخارج الحروف وطريقة نطقها ، وهى ستة أعضاء فقط وليست سبعة ، ولعلنا نجد توضيحا لهذه الفكرة عند الترمذى فيما بعد ٠

١٥ ـ سبق أن أشار الى قن عدد الأحرف التى منها ابتدأت اللغات ، ثمانية وعشرون فقط وليست تسعة وعشرين كما يقول ، راجع هامش رقم ١١ حول هذه الفكرة ٠

١٦ ـ كتبت فى الأصل : (علم البدو) ولعل الصحيح ما أثبتناه لكى يتفق هذا مع ما سبق قوله من أن الحروف المعجمة هى أصل العلم ، ومنها ابتدأت اللغات ، وكذلك فان كلمة بدو ربما يفهم منها معنى البداوة

التى تقال فى مقابل الحضر والحضارة ، والمجال لا يحتمل هـــذا اللفظ بهذه الصورة الأخيرة ٠

١٧ ـ كتب ناسخ المخطوط هذه الأحرف بصورة غريبة اذ كتبها هكـــذا (أبى جاد) وكررها مرتين فى نفس السطر ، وبعد عناء شديد يمكن أن يتصوره القارىء ، وجـــدنا أنها ليست جملة خبرية كما فهمنا الناسخ ، وكما قرأها بعض الاخـــوة الباحثين فى آراء الحكيم الترمذى ، مثل الدكتور عبد الفتاح بركه والدكتور ابراهيم الجيوشى، والدكتور عبد المحسن الحسينى ، ولكننا على عكس هؤلاء وجدناها حروفا أبجدية ، على صورة الأبجدية المعاصرة فى لغتنا العربية (أ ب جـ د هـ و ز حـ ط ى ك ل م ن س ع ف ص ق ر ٠٠ الخ)٠

وكأن الترمذى أراد أن يجعل الأحرف العربية بصورتها الحالية، هى أصل اللغات كلها وأصل العلم للبشر كلهم ، وأن آدم عليه السلام كان يتحدث العربية أو يفهم بها ويتعلم بها ، واذا صح هذا فمـا هو رأيه بالنسبة للغة العبرية التى نزلت بها التوراة ، واللغـــة السريانية التى نزل بها الانجيل ، وبأى لغة كانت تنزل صحف ابراهيم ومزامير داود ، وهل معنى هذا أن لغة الأنبياء كلهم من بعد آدم كانت هى هذه العربية المعاصرة ، أم أن لها صورة أخرى غير ما نعرفها الآن ؟؟ ٠

وما موقف الترمذى أمام الآية التى يقول فيها الله تعالى : (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ـ ابراهيم / ٤) وهى تدل على أن اللغات أسبق من بعثة الرسل ، ولعل اختلاف لغـــات التنزيل بين الرسائل الدينية الثلاث (اليهودية والمسيحية والاسلام) يؤكد اختلاف لغات الأقوام الذين أرسلت اليهم هـــذه الديانات الثلاث ؟؟ ٠

١٨ ـ بحثنا فى آيات القرآن حول أول اسم لله سبحانه ، فوجدنا أنه (الله) كما قال سبحانه (هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ـ الحشر / ٢٤) ووجدنا أن هذا الاسم الأعظم (الله) ورد

بنفس الأحرف فى حوالى ٢٥٢٤ ألفان وخمسمائة وأربع وعشرين آية من آيات القرآن الكريم ، هذا بالاضافة الى الاشتقات الأخرى من اسمه تعالى مثل : (اله التى وردت فى حوالى ثمانين آية ، والها فى حوالى ست عشرة آية ، والهك فى آيتين فقط ، والهكم فى عشر آيات ، الهنا فى آية واحدة ، ثم كلمة الهه والتى اقترنت بالهوى ، ووردت فى آيتين ، أما كلمة آلهة والتى تفيد التعدد والشرك فى مقابل الوحدة والتوحيد فقد وردت فى ثمان عشرة آية ، وكذا لفظ آلهتكم وبنفس معنى الشرك وردت فى حوالى أربع آيات ، وكلمة آلهتنا وتفيد الشرك فى ثمان آيان ، وآلهتهم فى موضعين ، وآلهتى فى موضع واحد ، من آيات القرآن الكريم) ٠

ومن الواضح أن هذا اللفظ (الله) بصورته هذه لفظ عربى التركيب ، ولكنه أقرب الى الصورة العبرية فى النطق والتركيب ٠ مما يشير الى الصلة بين اللغتين ٠

١٩ - سورة الأعراف ، الآية / ١٨٠ ٠

٢٠ - مقارنة طريفة وتفرقة عميقة بين الاسم والصفة ، وبيان تحليلى لقيمة ووظيفة كل منهما ، خاصة حين جعل أحدهما خاصا بالمعنى والمنطق أى الفكر والعقل ، والآخر خاصا بالمبنى واللفظ واللسان أى الصوت، أحدهما خاص بالدلالة ، والآخر خاص بالمدلول ٠ وهذا التحليل ربما يقترب كثيرا من التفرقة بين اللغة حين تعبر عن فكر منطوق وبين الفكر حين يكون هو الكلمة غير المنطوقة ، وواضح الى أى حد يمكن أن يلتقى الترمذى فى مبحثه هذا مع فلسفة اللغة ، أو يلتقى مع المنطق فى مبحثه عن علاقة الألفاظ من حيث المفهوم والصدق ٠

٢١ - [تعالى] ما بين المعكوفتين زيادة من عندنا لكى نفرق بين قول الترمذى ، وقول الله سبحانه عن نفسه ، بالوصف أو بالاسم ٠

٢٢ - الوفاء بالتوحيد ، كتبناها هكذا حتى نفهم العبارة كلها ، أما فى الأصل فقد كتبها الناسخ : (الوفا التوحيد) هكذا بدون الهمزة

الأخيرة وبدون (ياء) الجر · وبوجه عام فان همزات النهاية لم يكتبها الناسخ أبدا كالحال فى كلمات : (الأسماء والسناء والضياء والهباء والماء وغيرها من الكلمات المماثلة ، كما أنه كثيرا ما كان يهمل أحرف الجر التى توضح الكلمة أو المعنى أو العبارة ، ولاندرى ما اذا كان هذا من الناسخ أم من المخطوط الأم الذى هو مفقود ولم نتمكن من العثور عليه ·

٢٣ ـ سورة الرحمن ، الآية / ٣ ·

٢٤ ـ لم نعثر على رواية لهذا الحديث فى الكتب الصحاح الا عند الترمذى فقط ·

٢٥ ـ فى الأصل : (فبا حروف) ولعل ما أثبتناه هو الصحيح ·

٢٦ ـ قارن تعليقنا رقم ٩ ، ومن الواضح أن الترمذى يؤكد على حمل الاسم لدلالة المسمى ومعناه ، لا الظاهرى فقط بل والمعنى المكنون الباطن أيضا · كما يلاحظ أنه يتحدث عن دلالة الأسماء على الجواهر المختفية فى العناصر ، وكأنه يتحدث عن جواهر متعددة فى الأشياء، منها المعنوى ومنها المادى ، وكلاهما طريق للمعرفة والاستدلال على الأشياء بعد استخدام الأسماء · أنظر الى أى حد يذهب الترمذى فى تحليل فلسفى للغة ، ومنطق للفكر ، وطبيعى واقعى للاشياء ، وميتافيزيقى لصور هذه الأشياء العقلية ككليات ؟؟ ·

كما أنه لم يكتف بالقول بواحدية الجوهر وعرضية كل ما عداه من الموجودات ، كما ذهب معظم المتصوفة الآخرين ·

٢٧ ـ هذا الحديث لم نعثر على رواية له فى كتب الأحاديث الصحيحة الأخرى ، ولا فى سنن أبى داود ، ولا عند الدرامى ، ولعل المصدر الوحيد هو الترمذى فقط ·

٢٨ ـ أضفنا هذه الكلمة لتوضيح العبارة ·

٢٩ - يقصد الترمذى اللسان الفارسى ، وهنا نلاحظ موضوعيته فى حكمه على اللغات ، فأبرز ثراء اللغة العربية بالألفاظ ، ودقتها فى تحديد معنى كل لفظ بحسب تركيبه ومبناه ، وهذه مزايا لغوية قد لا تتوفر فى أى لغة من اللغات الأخرى فى عصر الترمذى ٠

٣٠ - نلاحظ مبالغة الترمذى هنا فى روايته عن النبى صلى الله عليه وسلم، أنه قال أن الله تعالى لم ينزل وحيا قط الا بالعربية ، لأن هذا يتعارض مع قول الله تعالى : وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم - ابراهيم / ٤) قارن التعليق السابق رقم ١٧ ٠ ولعل الترمذى أراد أن يفصل بين الوحى وبين الرسالة ، أى أن الوحى الذى يحمله الملك يكون باللغة العربية ، أما الرسول فيرسل بلغة قومه المبعوث فيهم ، وتلك التفرقة بين لغة الوحى ولغة التبليغ من الصعب أيضا تصديقها ، لأنها مبنية على تخمين الترمذى الشخصى ، وهذا لا يلزمنا تعقله والايمان به ٠

٣١ - اضطررنا الى تخريج الآيات التى تدخل فيها الآية التى اقتطعها الترمذى ، حتى نفهم أبعاد فكرته التى أراد التعبير عنها بهذه الآية ، يقول تعالى : (وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ، وانه لفى زبر الأولين - الشعراء / ١٩٢ : ١٩٥) ٠

٣٢ - فى الأصل (وهو) وهذا خطأ لأن اللفظ ضمير يعبر عن كلمة الابانة، وهى مؤنثة ، الا اذا كان الضمير يعود على كلمة (فوضعه) وتقرأ اسما وليست فعلا ٠ ولكننا نعتقد أن ما أثبتناه هو الأصح ٠

٣٣ - نفس الغرابة فى الحكم منه على وحدة اللغات من حيث أصل الحروف ، راجع ردنا على ذلك فى تعليق رقم ١١ ، وتعليق رقم ١٥٠

٢٤ - فى الأصل (الحلقة) ولا معنى لها فى السياق ، ولعل ما أثبتناه هو الصحيح ٠

٣٥ - راجع التعليق السابق رقم (٣٤) ٠

٣٦ - من الواضح أن الترمذى يفسر نشأة اللغات واختلافها تفسيرا سطحيا وغريبا الى حد ما ، وربما نلاحظ خلطه هنا بين اللهجة وبين اللغة ، وما من لغة الا وتتضمن عدة لهجات ، ولعله أراد أن يرجع الى تفسير فكرة المواضعة والاصطلاح ، فذهب الى هذا الحد من الاسراف فى اخفاء الفروق بين اللغات والالسنة المختلفة ٠

٣٧ - لسن ونسل بمعنى واحد : - تتضح هنا براعة الترمذى فى الافادة من ثراء ووفرة اللغة العربية حين يحاول اعادة ترتيب الحروف فى الكلمة الواحدة بحيث تعطى معانى متفقة أحيانا ، وتعطى معانى مختلفة ومتفاوتة وربما متناقضة فى أحيان أخرى ، مثال ذلك استخدامنا لكلمة مثل (سوريا) حين نعيد تركيب حروفها فى أوجه مختلفة لتصبح مرة (روسيا) وأخرى (رواسى) وأخرى (سوارى) وغيرها ٠ أو كلمة (حلب) حين تصبح مرة (بلح) ومرة (حبل) هذا وسنلاحظ براعة الترمذى فى هذا المجال فى مواضع أخرى من المخطوط ٠

٣٨ - فى الأصل كتبت الكلمة بالتذكير (صاحبها) مع أن الحديث عن كلمتين تقاربتا ٠٠ وتشابهتا ٠٠ فى احداهما ٠٠ بخلاف صاحبتها ٠

٣٩ - أراد الترمذى أن يزيد التأكيد على أن للحرف فى الكلمة مدخلا كبيرا فى تحديد معناها ، فكأن الكلمة تستمد معناها من الحروف المكونة لها ، كما أن الجملة تستمد معناها من الكلمات المكونة لها أيضا ، وهذا واضح فى كل الألفاظ والكلمات ، وان كانت عبارة الترمذى أقرب الى المحسنات البديعية فى الكلام ، كالطباق والجناس ٠

٤٠ - لا ندرى ما اذا كانت هناك علاقة بين هذه الفكرة عند الترمذى ومثيلتها عند الفيثاغوريين ، أم أنها من بنات أفكار الحكيم ، قياسا على كونه يرى أن الحرف أصل الكلمة ، أو الاسم وبالتالى أصل العلم كله ٠٠ راجع التعليقات ١١ ، ١٥ ، ٣٣ ، ولعل هذا الاحتمال الأخير هو الأصح اذ ليس غريبا على عقلية الترمذى أن تصل الى

أن الواحد هو أصل العدد ابتداء دون افتقار الى مصادر غريبه عنه وأجنبية ، ولعل لهذه الفكرة علاقة بكون الله الواحد هو أصل الكثرة العددية فى العالم التى هى المخلوقات ، وتكون بمثابة التعبير الرمزى الرياضى عن العلاقة بين الخلق والمخلوق ٠

٤١ - رأينا أن لا نكتب الكلمة بالتذكير ، لكى تتناسب مع الكلمة التى تشير اليها وهى (أشكاله) المؤنثة ٠

٤٢ - أصل الكلمة (حد) : تتكرر هذه الجملة مرة أخرى ولكن ليشرحها الترمذى ويفسر أصل الاشتقاق والمكونات منها ، وكأنه يتبع أسلوب التركيب ثم التحليل ، أى الاجمال ثم التفصيل والتطويل من بعد ذلك ٠

٤٣ - (فأول العدد سبب فى الحيـــاة) : نلاحظ كيف ربط الترمذى بين الواحد العددى وفكرة الواحد التى تشير الى الوحدانية الالهية فى كونها مبدأ أول وسببا لنشأة الخلق والأحياء ٠ ثم اذا ربطنا بين هذه العبارة السابقة (راجع تعليق / ٤٠) وهى قوله أن الواحد أصل العدد ، لوجدنا أن هذا انما يعنى أن الوحدة هى سبب الكثرة . وأن الله هو خالق سائر الموجودات التى هى معدودات على حد عبارة الكندى ، حين ربط بين الموجودات والأعداد ٠ (راجع ذلك فى كتابنا عن فلسفة الاسلاميين جـ ١ ص ١٠١) ٠

وهنا نلاحظ الرمزية فى التعبير عند الترمذى بين الاله الواحد سبب الحياة ، وبين الموجودات أى الأعداد التى تتشعب فى سائر أشكالها عن الواحد ، فاذا كانت الأعداد من الواحد الى العشرة ، بل الى ما لا نهاية فى امكانية العد الحسابى ، هى تكرار للواحد الذى هو رأس العدد وأصله ، فان سائر الموجودات تتشعب وتتشكل وتتباين وتتكاثر بسبب الواحد ، وهو الله سبب الحياة ومصدر الخلق وأصله ٠

٤٤ - لعل الترمذى يقصد هنا بالحد النهاية ، فلكل شىء وموجود حدود تحدده وتميزه عن باقى الأشياء ، وهذه الحدود هى نهايات الأشياء بحيث لاتتداخل فى أشياء أخرى أو تختلط معها ٠ وهذه الحدود والنهايات

تدخل فى باب الكم وهو مبحث حسابى أصيل ، كما أن آخر الأشياء ومصيرها الى يوم الحساب ، يوم سداد الديون ، لتجزى كل نفس بما كسبت أو اكتسبت ، وهى عملية حسابية مقامة على أســـاس أخلاقى هو سلوكنا فى دنيانا هذه ٠

٤٥ ـ [تعالى] أضفنا هذه الكلمة لكى ندرك حقيقة الموضوع الذى يتحدث الترمذى عن مفتاح اسمه ، وهو الله جل جلاله ٠

٤٦ ـ حال : فى الأصل (حالا) ولكن المعنى لا يستقيم هكذا ، وصححناها لتتفق العبارة ويكون لها معنى ٠

٤٧ ـ فألهم : من الوله أى التعلق بالحب الشديد مما يشير الى الافتقار والحاجة ، وربما تقرأ زائدة حرفا هو (الميم) بين حرفى (الهاء) فتكون (فألهم) من الالهام ، بحسبانه تعـــالى ألهم كل الأنفس معرفته ، ومعرفتهم اياه ٠

٤٨ ـ فى الأصل (برهم) ومع صحة قراءتها هكذا أيضا الا أننا فضلنا وضعها فى صورتها الأكثر شيوعا فى الاستخدام ٠

٤٩ ـ اضافة سمة جديدة الى ســـمات اسم (الله) التى كان منها تعليق القلوب به ٠

٥٠ ـ هذه القراءة هى ما رأينا مناسبة للسياق ، أما فى الأصل فالكلمة كتبت بصورة غير مفهومة وهى (فالسعوا) ٠

٥١ ـ فى الأصل (أمر) مع أنها مفعول ٠

٥٢ ـ سورة الكهف ، الآية / ٥١ ٠

٥٣ ـ سورة ص ، الآية / ٧٤ ٠

٥٤ ـ سورة مريم ، الآية / ٨١ ٠

٥٥ ـ عزا : يفسرها الترمذى بالمنعة ، ولقد وضع التفسير بجانب الكلمة، فى داخل الآية ، ولقد آثرنا استبعادها من الآية حتى لا يحـــدث اضطراب أو تشويه فى قراءتها ، وذلك ما سنفعله مع كثير من الحالات المماثلة ، وهى عديدة فى المخطوط ٠

٥٦ ـ [هى] أضفناها لتتضح المعانى ٠

٥٧ ـ فى الأصل كتبت (بالسين) = (التسنية) ولا معنى لها لأن السياق فى العبارة يشير الى الثنائية والازدواج بين الله والأوثان ، وبين الضار والنافع ، وغيرها كما يشـــير التعبير التالى فى النص ، فراجع ذلك ٠

٥٨ ـ سورة النحل ، الآية / ٥١ ٠

٥٩ ـ راجع التعليق السابق رقم ٤٧ لمعرفة المقصود بالوله والتوله ٠

٦٠ ـ أصلحنا هذه الكلمة فى صيغة المثنى ، مع أن الأصل أوردها مفردة (يجعلونها) مما لا يتفق مع السياق السابق واللاحق ، الـــذى يتحدث عن مثنى وتثنية وازدواج ٠

٦١ ـ سورة الرحمن ، الآية / ٣ ٠

٦٢ ـ كتبت الكلمة بالتذكير (هو) مع أنها تعود على الربوبية ، ولعله يقصد مقام الربوبية ، فيتفق الضمير (هو) مع الكلمة التى يشير اليهـا ٠

٦٣ ـ [أن] أضفناها من عندنا ليتسق المعنى فى العبارة ٠

٦٤ ـ أصلحناها هكذا لأنها فى الأصل كتبت : (أفسد لك) مع أن هذا يعود على النفس الغاضبة ، اللهم الا اذا كان يقصد غضب النفس فى كونه مفسدا للانسان ولمعرفته ويكدرها ٠ ولكن الكلمة التالية لكلمة المعرفة كتبت بالتأنيث هكذا (كدرتها) ٠

٦٥ - [وجور النفس عدل منه عليها] : نلاحظ أن الترمذى يؤكد على وجود العدل الالهى والحكمة الالهية فى كل شيء وفى كل فعل من الأفعال التى نراها متناقضة أو متضادة ، الحسن والقبح ، والخير والشر ، الفضيلة والرذيلة ، الرضا والسخط ، العدل والجور ، حيث يؤكد أن الله تعالى كان عادلا كل العدل حين ترك النفس تجور ، لأنها لا تستحق فضل الله فى أن تكون عادلة دائما ، وكذلك فان الأنفس الساخطة كان سبحانه عادلا معها حين تركها تسخط لأنها لا تستحق ميزة وفضل أن تكون راضية ومطمئنة · وذلك مصداقا لقوله عز وجل « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها - سورة الشمس / ٧) فكان سبحانه عادلا فى أن بين وأوضح لكل الأنفس ما هو الفجور وما هى التقوى ، كما أن ترك كل نفس تختار ما تراه من رذيلة أو فضيلة ، هو مظهر الحرية الحقيقية التى يستمتع بها الانسان ، وما يرتبط بهذه الحرية من مسئولية وتكليف ·

وهكذا نلاحظ أن العدل الالهى عند الترمذى مبدأ واضح ، ومتداخل فى كل موجود ، وأن حكمنا نحن وتقويمنا للافعال والأشياء ، بمنظور انسانى ذاتى نفعى ضيق ، هو الذى يخلع على الأشياء هذا التفاوت بين العدل والجور ، بين الرضا والسخط ، وغير هذه من المثنيات فى الأفعال والأحوال والعلاقات بين الموجودات ·

٦٦ - الباطن : فى الأصل كتبها الناسخ (الباطل) ولعلها هفوة ليست مقصودة منه ، وقد يكون كتبها سماعا واملاءا وليس نقلا بالنظر ·

٦٧ - (كل ذلك عنده وفى علمه سواء) : يبدو لنا الترمذى هنا وكأنه يشير الى أن اختلاف موضوعات العلم والمعرفة انما يكون بالقياس الى الذات المخلوقة المدركة فقط ، ومن هنا تتفاوت أحكام الانسان عن أخيه الانسان حول مدرك واحد فى بعض الأحيان ، بل ربما يتفاوت هذا المدرك بالقياس الى الانسان الواحد نفسه وبحسب أحواله وظروفه الخاصة وكأنه من القائلين بنسبية المعرفة وأثر الذات الانسانية فى الحكم على المدركات ·

أما بالقياس الى الذات الالهية ، من حيث كونها عالمة ، فانهـا تعلم الأشياء علما متساويا وثابتا ، كما تصدر الأشياء عن هذا العلم الالهى ، بوصفها معلومات ، صدورا متساويا ومتكافئا بلا تفـــاوت ولا اختلاف بين ظاهر وباطن ، حقيقى وظنى ، صدق وباطل ، مشاهد ومختفى ، الى غير هذه من الثنيات المتقابلة فى المعنى والمبنى ، فالأشياء كلها عند الله تعالى وفى علمه ســــبحانه متساوية تمام المســاواة ، أما هذا التفاوت بين الأشياء فيبدو عندنا نحن بالقياس الى مصالحنا الذاتية الخاصة ، فالشىء شر اذا لم نجد فيه مصلحة، وهو ذاته خير اذا تحققت مصلحتنا به ومن خلاله ٠

وهذا المنظور النسبى الذاتى لا يمتد بحال ما الى أفعاله تعالى، ومن ثم فان حديثه تعالى عن نفسه بأنه : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ـ الحديد /٣) ليس فيه أى نوع من التناقض أو التقابل الا بالقدر الذى يبدو لنا من خلال اسقاطاتنا الذاتية فقط ٠ وليس ما يبدو لنا هو بعينه حقيقة ذاته تعالى ٠

٧٠ ـ [أن] ناقصة وأضفاها حتى لا تضطرب العبارة ٠

٧٠ ـ [أن] ناقصة وأضفناها حتى لا تضطرب العبارة ٠

٧١ ـ كتبت فى الأصل بصيغة الجمع ، مع أن العلو هنا يعود على النفس المفـــردة ٠

٧٢ ـ [من] ناقصة فى الأصل ، ووجدنا أن اضافتها تعطى بلاغة وقـوة للعبارة ، وان أمكنت قراءتها بدونها ٠

٧٣ ـ كتبت فى الأصل هكذا : (وأجعلهـ) ولا معنى لها ، فأصلحناها لعلها توضح ما أراد الترمذى التعبير عنه ٠

٧٤ ـ (علم المعرفة) : لعل الترمذى يقصد بعلم المعرفة هنا ، ذلك العلم الشامل ، وتلك المعرفة السامية ، وهى معرفة الله تعالى ، التى تعتمد على كثير من الخطوات السابقة ٠ أو على حد تعبير الصوفية ، تعتمد

المعرفة السامية ، وهى معرفته جل جلاله ، على أحوال ومقامات يترقى العارف فيما بينها ، ويرقاها تدريجيا الى أن يصل الى تحقيق هدفه ومبتغاه ٠

ومما نلاحظه على حديث الترمذى عن (علم المعرفة) هذا أنه يتبع المنهج التجريبى فى التعلم ، فلم يطلب من العارف أن يعتمد على التأمل العقلى أو النظر المجرد الخالص ، بل كان واقعيا فطلب منه أن ينظر فى كل ما يجرى حوله من أمور ، مهما بدت بسيطة أو سطحية ، فسيجد فى كل أمر وفعل وفى كل مهنة مصدرا لنوع من المعرفة وللالهام وللتعلم ، وهى دعوة مفيدة من الترمذى يمكن أن تعد دعوةمفتوحة لكلمن أراد علما وقصد الىاكتساب ثقافةومعرفة، فلا نستهين بأى أمر من الأمور ، أو بواقعة من الوقائع ، ونقلل من شأنها بدعوى أنها ليست ذات قيمة يعتمد عليها أو يعتد بها ٠

وهذا أسلوب تربوى وتعليمى من الترمذى يحسب له تماما ، فتأمل كيف يدعونا الى أن نتعلم العبارة والرياضة والتوبة والتفويض والاخلاص والصبر من كل من المحترفين والسياسيين والقادة والقصارين وخدم الملوك وساقيهم وطباخيهم ، ومن أسلوب الآباء فى تربية الأطفال على التوالى ٠

وكأننا نستطيع أن نحصل على ما نريده من علم ومعرفة وثقافة من مصدره المناسب مما يدور حولنا فى حياتنا اليومية ٠

٧٥ ــ (علم مجان وعلم بثمن) : لعله يقصد بالعلم المجان ذلك النوع من المعارف الفطرية ، التى تعرفها النفس دون مشقة البحث وعناء الاطلاع والتعلم ٠ ولعله يقصد أن العلم الذى يحصل بثمن هو العلم الذى يحصل لطالبه بالاكتساب والدروس والمجاهدة والمشقة ودوام السعى والطلب المستمر ، وكأن العلم المجانى فطرى والهامى ولدنى من عند الله تعالى ٠ والآخر على عكسه من حيث المصدر وكيفية الحصول ، بصرف النظر عن قيمة ونوعية هذين العلمين ٠

٧٦ ــ [جوانب] ناقصة فى الأصل ، وأضفناها لكى يكون للعبارة معنى ٠

٧٧ ـ فى الأصل : (رفعها) ولعل المقصود الرفعة فى المرتبة الأعلى وليس الرفع والحمل ، والمعنى الأول هو الذى يتحقق مع تطهير العارف لنفسه ، بل تطهيره لأعز جوانب نفسه ، ولعله يقصد الجانب الناطق أى العاقل منها ، لأن من المسلم به أن يكون العارف قد طهر الجانب الغضبى والجانب الشهوانى ، أى الجانب الحيوانى من نفسه ، قياسا على تقسيم أفلاطون وأرسطو للنفس الانسانية الى الأقسام الثلاثة المعروفة (نفس غضبية ونفس شهوانية ونفس ناطقة عاقلة) ·

٧٨ ـ [من] أضفناها الى الأصل لتستقيم عبارة الترمذى ونفهم ما أراد قوله ·

٧٩ ـ (يراها) : لعل الترمذى قد استخدم هذه الكلمة للتعبير عن أن النفس المتطهرة ، يراها من جود الله وكرمه ما لا تحصيه هذه النفس ولا تستطيع عده ، مما هو أشبه بالكرامات التى حرمت منها وهى دنسة ذليلة مهانة · واذا كانت هذه النفس قد هانت على صاحبها ورخصت عنده ، فانها لا تحرم عند الله من كرمه وجوده · فالرؤية هنا فى كلمة (يراها) تعبير عن فضل الله ولطفه وعنايته تعالى التى لا تحرم منها الأنفس المتطهرة التى قد وصلت الى درجة رفيعة تكون فيها وكأنها ترى فضل الله وكرمه وجوده ، على حد عبارة الترمذى ، رؤية عيانية وليس مجرد احساس أو شعور · فلو أن الترمذى قال : (وان كان يجيئها من ربه ـ أى رب العارف ـ ما لا تعد ولا تحصى ـ أى النفس ـ بكرمه ووجوده) لكانت العبارة أضعف فى المعنى وأقل تأثيرا فى الانسان وكذلك فان التعبير بالرؤية يدل على أن علم الله تعالى لا يفارق صغيرة ولا كبيرة الا اشتمل عليها ورعاها وأحصاها· وتوجد فى القرآن آيات كثيرة تستخدم كلمة الرؤية واشتقاقاتها المختلفة فى أسلوب بليغ ، وأكثر قوة وتأثيرا من استخدام ألفاظ أخرى ، ربما كانت تفى بالغرض المطلوب ·

٨٠ ـ [هم] : أضفناها لتوضيح تعريف الأحرار الكرام ، وكانت ناقصة فى الأصل فلاحظنا أن المقصود بالأحرار الكرام مضطرب وليس محدودا ·

٨١ ـ تلفظوا : فى الأصل (تلحظوا) ولا معنى لها ، لأن الشفاه لا تلحظ شيئا ولكنها تلفظ ، أى تنطق بالألفاظ ، أو بمقالات على الألسنة يلتذ بها اللئيم من الناس ٠

٨٢ ـ فى الأصل (وشممون) ونظنها لا توضح شيئا على هذه الصورة ، فضلا عن أنها هى ذاتها غير واضحة ، فأصلحناها واستقام المعنى بذلك ٠

٨٣ ـ أصلحناها هكذا لأنها كتبت فى الأصل (وحد) وهى لا تفيد معنى اذا تركت على هذا النحو ٠

٨٤ ـ بين الأحرار الكرام واللئام : مقارنة طريفة يعقدها الترمذى بين هذين النوعين من البشر ، أو بين درجتين من درجات المؤمنين ، بحسب التضحية بالنفس وبذلها من أجل مرضاة الله ، وهؤلاء هم الذين يؤثرون الآخرين على أنفسهم : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ـ الحشر / ٩) ٠

أو بحسب الأثرة الذاتية والتمركز حول الأنا وحدها ، وهو ما قصده الترمذى بعبارة النفس ، وهم من يقول فيهم القرآن الكريم : (أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، وأضله الله على علم ـ الجاثية / ٢٣) ٠

ان الفئة الأولى تتجاوز ذاتها وتفنى فى العبودية والعبادة للمعبود الأوحد ، وأولئك هم عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ٠

والفئة الثانية تؤكد أولا بأول على ذاتيتها المفرطة لدرجة أن منطقهم الحقيقى الذى يسيرون عليه هو ما تنطق به شفاههم وألسنتهم وهو الذى يتلذذون به ، بل ان قلوبهم الضعيفة تبادر الى تصديق هذا المنطق الغريب ومتابعته ، وهو منطق الشهوات الحسية واللذات الجسدية ٠

وهذه الفئة الأخيرة يرى الترمذى ضرورة حرمانها من الحصول على الحكمة الالهية العليا ، بل يرى حرمانها من نور الهداية الالهية، ومن العناية واللطف الربانيين ، كما يحرم عليها امكانية الحصول على المعرفة الحقيقية للذات ، لأن زادهم وعتادهم وكل عدتهم لا تؤهلهم لمثل هذه المرتبة الرفيعة ٠

وهكذا فانه تعالى يذكر أن حكمته لا يهابها الا لمن يستحقها من خلقه وعلمه لا يمنحة الا لمن يؤهل نفسه ويعدها لذلك المستوى من المنن الالهية ـ والعطايا الربانية ، وذلك فى قوله تعالى : (يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ـ البقرة / ٢٦٩) ٠

وقانا الله شر لؤم النفس وخبثها ، وجعلنا من بين خلقه الأحرار الكرام ٠

ولعل الترمذى أراد بالأحرار من لم يصبحوا عبيدا الا لله وحده، وليس لأنفسهم ، وذواتهم ، وفى هذا تتحقق قمة الحرية الحقيقية ، وهم ، الى جانب كونهم أحرارا ، كرام أيضا لأنهم يبذلون كل ما عندهم من غال أو نفيس ، حتى أنفسهم ذاتها ، من أجل مرضاة الله، وابتغاء وجهه الكريم ٠

٨٥ ـ الطريق : فى الأصل يوجد خرم محل هذه الكلمة ، وأثبتناها اتفاقا مع سياق العبارة ، واتساقا مع الفكرة ، باعتبار أن علم التصوف يسمى بعلم البحث عن الطريق ، أى الطريق الذى يتبعه سالكه للوصول الى معرفة الله ، معرفة حقيقية ويقينية ، ويسمى مريدو هذا العلم بأهل الطريق أو أصحاب الطريقة ، ويسمى شيخهم أو رائدهم ، بشيخ الطريقة أو رائد الطريق ٠

٨٦ ـ فى الأصل كتبت بالتذكير مع أنها تشير الى كلمة مؤنثة هى (طاقتهم)

٨٧ ـ فى الأصل كتبت بدون حرف العطف (واو) مع أن تكرار الكلمة هنا يفيد ضرورة العطف، على ما قبلها ٠

٨٨ ـ فى الأصل (صراحا) مع أن هذا لا يتفق مع الكلمة المفردة (بيانا) فلابد أن تكون صفتها مفردة مثلها وليست جمعا كما وجدنا فى الأصل ٠

٨٩ ـ فى الأصل الاقتصاد ، ولا معنى لها فى سياقها ، فأصلحناها الى (الاعتقاد) لعلها تتفق مع سياقها ٠

٩٠ ـ [القوى] أضفناها كصفة للاعتقاد ، باعتبار أن كلمة (السمت) موصوفة بالحسن ، والهدى موصوف بالصلاح ، فلابد أن يوصف الاعتقاد بالقوة أو الرسوخ ، والا فلو لم يتبع الاعتقاد وصف ما ، فلا مكان للكلمة ذاتها حينئذ ٠

٩١ ـ روى هذا الحديث مالك والترمذى وابو داود وابن حنبل (راجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى جـ ٢ ص ٥٣٤ نشرة فنسنك ، ليدن سنة ١٩٣٦ / ١٩٦٥) وقارن جـ ١ ص ٣٤٢ أحاديث عن الرؤيا كما رواها البخارى والترمذى وابن حنبل والدرامى وأبو دواد ومالك ٠

٩٢ ـ الخلق فى المقادير مأخوذ بالعبودة للزوم الحجة : ـ لعل الترمذى يقصدر هنا ما يسمى بميثاق التوحيد ، وعقد العبودية لله ، وهو ما أخذ فيما يسمى بميثاق عالم الذرات ، والذى تشير اليه الآية الكريمة (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم !! قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ـ الأعراف / ١٧٢) ولعل فى هذا تأكيدا على أن كل بنى البشر وقد اطلعوا على حقيقة الاله ، وتعرفوا عليها ، وتكشفت لهم وتجلت فى حياة سابقة على هذه الحياة ، وفى مرحلة من الخلق سابقة على مرحلتنا الدنيوية هذه التى تلازم فيها الأرواح والأنفس الأبدان ، وذلك أيضا هو ما يؤكد فطرية التوحيد والتسليم للالوهية ، والنزعة الكامنة فى كل منا الى التدين ، وان كان يحتاج البعض الى بعض الوقائع المكتسبة حتى يعود لفطرته ، أو تظهر فيه هذه الفطرة ٠

٩٣ - فى الأصل (آبق) وهى خطأ ، بل ربما تؤدى الى معنى مخالف لما يريده الترمذى ٠

٩٤ - [ثم] ناقصة فى الأصل ، وأضفناها استطرادا مع طريقة عـرض الترمذى ، وليستقيم المعنى ٠

٩٥ - راجع ما أشرنا اليه حول يوم الميثاق فى التعليق رقم ٩٢ ٠

٩٦ - فى الأصل (منهم) والصحيح ما أثبتناه اتساقا مع السياق ، وهو أن الخلق فى الميثاق تعلموا ولم يعلموا ، فيكون العلم موجها اليهـم وليس مأخوذا منهم ٠

٩٧ - يوم البدء : من الملاحظ أن المقصود بالبدء هنا ، هو بداية الخـلق ، والنشأة الأولى ، وذلك فى حياة قبل بدء الحياة على الأرض ، بهبوط سيدنا آدم عليه السلام ، ولعلنا نتأمل قول الله تعالى لآدم وحواء، حين اقتربا من الشجرة التى حذرهما الله سبحانه من الاقتراب منها، وأكلا منها بناء على تغرير الشيطان لهما : (قال اهبطوا منهـا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتـاع الى حين - الأعراف / ٢٤) ٠

وبصرف النظر عما اذا كان الهبوط سقوطا فى الدرجة والمرتبة والمكانة ، أو هبوط مكانى من السماء الى الأرض ، أو من مكان الى آخر، نقول بصرف النظر عن ذلك فاننا يمكننا أن نلمس وجود حياة قبل هذه الحياة ، التى اتحد فيها الجسم بالنفس ، فالبدء هو بدء الخلق الالهى للانسان ، وهو لم يزل فى العلم الالهى وفى عقله سبحانه ، وهى مرحلة من الخلق تسبق مرحلة الخلق من خلال الأمر الالهى ، ثم فعل التكوين ٠

وكذلك نلاحظ طرافة التصوير الذى يسوقه الترمذى للانسان ، وقد وجه بين أنواع ودرجات مختلفة من الحياة ، حياة قبل دنيانا هذه ، ثم حياة فى دنيانا هذه ، ثم حياة ثالثة فى القبر وما قبل

البعث ، ثم حياة رابعة بعد البعث ، وما أجمل هذا التصور للانسان وأكمله ، بوصفه أكرم خلق الله فى أرضه، اذ أنه لا يموت موتا أبديا، بل تنتهى مرحلة أولى لتبدأ مرحلة ثانية ، وتنتهى الثانية ، بما نسميه مجازا بالموت ، لتبدأ ثالثة ، ثم يبعث الانسان من جديد فى حياة أبدية ليلقى نعيما أبديا فى جنان الله ، أو يلقى عذابا لا نهائيا فى النار التى توعد بها الله عباده الكافرين كل شىء بنظام واحكام ولا مكان للعبث فى مرحلة ما ، أو مع موجود ما من الموجودات ٠

وانظر الى ذلك الحوار الطريف بين أهل النار وأهل الجنة ، فى صورة الأعراف ، حين قال فريق للآخر كما يذكر الله عز وجل : (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا نعم ، فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ـ الأعراف / ٤٤)٠

وانظر فى الآيات السابقة واللاحقة من سورة الأعراف كلها ، حيث تجد تصويرا رائعا للوحة جمالية من الحوار بالكلمة والصورة بين أهل الجنة وأهل النار ، وبينهما حجاب كأنه من زجاج يسمح بالرؤية والسمع ولكنه لا يسمح بالانتقال من هنا الى هناك ٠

٩٨ ـ رواه الترمذى والبخارى ، راجع ج ٢ ص ٧١ من المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ٠

٩٩ ـ فى الأصل (ليصب) مع أن السياق يحتم اصلاحها لتعبر عن الاصابة لا الصب ٠

١٠٠ ـ فى الأصل (صاير) ولا معنى لها اذا كانت الكلمة تعود على فعل الرش ، وليس على المقادير ، وتكون مؤخرة الى هذا الحد ، وحينئذ تقرأ (والرش صائر هو المقادير) كناية عن أن هذه المقادير المقدرة هى الرش ، لأنه أى الرش ، هو هى تماما ٠

١٠١ ـ (الرش قسمة بين العبيد مقدرة) يتضح من حديث الترمذى عن فكرة النور الالهى ، الذى يخرج الأشياء والمخلوقات من الظلمة الى

النور ، وهى ظلمة الخلق الأول ، أن هذا النور مرادف للهـــداية والعناية الالهية ، كما يتضح أن الترمذى يجعل لطف الله وعنايته ورحمته وهدايته ، خاصة ببعض المخلوقات دون البعض الآخر ، وكأنه يرى أن الله يعلم ويعنى بالكليات ، لا الجـــزئيات ، اذ كيف يعلم الأشياء على نحو جزئى ويعلم ما هى فيه ظلمة وظلام وضلال ورغم هذا لا ينشر عليها النور ، هذا من جهة ٠

ومن جهة أخرى نجد تناقضا فى آراء الترمذى ، فضلا عن تناقضه مع ما تذكره العقيدة الاسلامية، من أن الله يعلم أصغر الأمور، وأقل الأشياء ، وأنه سبحانه لا يغرب عن علمه مثقال ذرة فى السماء أو فى الأرض ، نقول ان فكر الترمذى يتناقض حول فهم كلمة (رش) وتفسيرها على أنها تفيد الخصـــــوص والتخصيص ، لا التعميـــم والعموم على سائر الخلق ، كالصب ، أو يعلم الترمذى أن استمرار الرش ودوام تدفقه من قبل الله سبحانه ، يمكن أن يعم أيضا ســـائر مخلوقاته ، فالشمس ترسل أشعتها ليس صبا فى اتجاه واحد ، ولكن رشا لأشعتها وتشعيبا لها فى جميع الاتجاهات ، ومن هنا تتعرض كل الأشياء الواقعة فى منطقة الأشعة لدفء الشمس وضوئها وحرارتها ، بصرف النظر عن الجزء الآخر من الأرض والذى يكون فى ظلام نتيجة كروية الأرض ٠

ولله المثل الأعلى حيث أن انتشار نوره لا يحجبه كوكب أو أرض فيعم الجميع ، فوسعت رحمته كل شىء ، ولا يؤوده حفظ السموات والأرض وما بينهما ، كما تمتد هدايته الى سائر الأشياء ، ويعـــم مدده ولطفه كل المخلوقات ٠ ولكن الأشياء نفسها منها ما لا يقبل ، ولا يستعد للتلقى ولقبول ما يعرض عليه من رحمة وحفظ وهدى ومدد ولطف وعناية ، لجحود ذاتى ، أو لمرض نفسى ٠

ولعل هذا هو ما قصده الرسول الكريم صلى الله عليه من عمومية النور الالهى واشتماله لسائر خلق الله ٠

أما تفسير الترمذى فيقصد منه الى تأكيد مفهومه عن الولاية والتى سنعود اليها فى موضع آخر :

ويتضح تناقض الترمذى أكثر حين يذهب فى استطراده حول تفسيره للرش وفهمه له ، فيذكر أن الرش هو المقادير ، وأنه قسمة بين العبيد مقدرة ، وكأنه يصور الله بصورة غير عادلة ، وأن العدل الالهى مضطرب عنده ٠ فاذا كانت الأرزاق والآجال مقدرة أيضا ومتفاوتة فيما بين الناس ، بحيث لا يتساوون فى أرزاقهم وأعمارهم ، فان هذا لا علاقة له بكون النور الالهى خاصا بأناس دون الآخرين ٠

وهنا يتضح الاتجاه الجبرى القدرى عند الترمذى ، ولعله كان يدور حول تفسير قول الله تعالى : (يهدى الله لنوره من يشاء ٠٠ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ـ سورة النور / ٤٥ : ٤٠)

١٠٢ ـ لم نعثر على رواية لهذا الحديث فى أى من الكتب الصحاح ، ولا فى سنن أبى داود ، أو مسند الدارمى ٠

١٠٣ ـ لم نجد رواية لهذا الحديث بنصه ، ولكننا وجدنا نصا آخر ، هو قوله صلى الله عليه وسلم : (ان الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم) رواه ابن ماجه ، راجع المعجم ج ١ ص ٣٨ ٠

١٠٤ ـ فى الأصل (فاستراحوا) ونعتقد أن ما أثبتناه أصح ٠

١٠٥ ـ فى الأصل (يظهر) والأصح ما أثبتناه اتساقا مع سياق الفكرة ذاتها ٠

١٠٧ ـ فى الأصل (أطراف الأسنان) ولا معنى لها ، لأن الحروف تتعلق بالأسنان وليس بأطرافها ، فلعل المقصود أطراف اللسان ، أى مقدمته وجوانبه من حيث تأثيرها فى كيفية نطق الحروف وفى مخارجها ، كما يلاحظ أن دور الأسنان فى خروج الأحرف قد ورد فى جملة سابقة من نفس العبارة ، والتكرار لا محل له خاصة وهو غير مفيد٠

١٠٨ ـ فى الأصل (الحرف) بالمفرد ، فى حين أن هذا الحكم الأخير عام وشامل لكل الحروف ، وليس لحرف واحد ، فى كونها تلفظ وتنطق بالمخارج النهائية التى يخرج منها الحرف الواحد ٠

١٠٩ - أضفنا هذا الضمير لزيادة الايضاح ، وتسهيل النطق بالعبـــــارة مجتمعة ٠

١١٠ - (الحرف هو الحد) واذا كنا نلاحظ هنا أن الترمذى يكرر هنا ما سبق أن تحدث عنه حول تقسيم الحروف على الأعضاء ، ابتداء من الصدر وانتهاء بالشفتين ، الا أنه هنا يبدو لنا وقد اقترب من البحث الذى يدخل فى علم الصوتيات الحديث ، من حيث العلاقة المكانية بين الحرف ومصدره ، وأن هذه العلاقة تنتهى بمجرد خروج الحرف من مستقره ٠

ثم قوله بأن الحرف هو الحد ، يمكن أن يوضح به الى أى درجة يكون الحرف نهاية المطاف لحركة العضو الذى هو علته ومصدره ومســـتقره ٠

ونحن نرى من ذلك أن الكلمات هى حدود الجملة المفيدة ، وأن الحرف هو حد الكلمة الواحد ، بصرف النظر عما اذا كانت ذات معنى أو غير ذات معنى ٠ كما أن الواحد الحسابى هو حد الأعداد الحسابية ، فأى محاولة فى العد والاحصاء ، لابد وأن تنتهى بعـــدد ما يكون الواحد هو نهايته أيضا ، ومن هنا يقال أن مبدأ تسمية الواحد من الـ (حـــد) ٠

١١١ ، ١١٢ - سورة المائدة ، الآية / ٦ ٠

١١٣ - (فذلك منهم شكر) انتبه الى عمق فكر هذا الترمذى الحكيم ، اذ يرى أن الشكر ليس فقط مجرد النطق والتلفظ بالحمد والثناء على نعم الله، بل هو شكر عملى من خلال ما يؤديه الانسان الشاكر لربه من مناسك وطاعات فى سبيل مرضاته تعالى ، وتأمل كيف يتدرج الترمذى بين العبارات حين يقول عن التطهر (أنه تطهر يرتبط به احياء للقلب) وكأنه قلب الكافر أو المشرك ، أو قلب المؤمن المنافق ، ممن لم يتطهرون يعد قلبا ميتا جامدا ٠

ولعل التطهر هنا أوسع من أن يكون مجرد اغتسال بالماء ، بل هو تطهير للنفس الشهوية ، ومحاولة اماتة الجسد اماتة صناعية فى الحياة الدنيا ، وهو مستوى من الزهد والتقشف ، أو قل انه نوع من الاعتدال الطبيعى للنفس المؤمنة ايمانا حقيقيا ، وذلك كله تطهير يؤدى الى حياة حقيقية للقلب ، تلك الحياة التى بها تكتمل نعمة الايمان ، واذا اكتملت هذه النعمة ، أمكن تعقل وتفقه كل الأمور وكل العبارات ، فتكون العبارة واعية وعميقة ، ولا تكون الصلاة مجرد حركات ايقاعية اعتيادية ، ولكن تكون لها مقاصدها ومغزاها ، وكذلك الحال بالنسبة للحج ، الذى قد يبدو للبعض ، فى بعض أركانه ومناسكه ، نوعا من الحركات والأفعال اللامعقولة ، مع أن لها أسرارها وحقيقتها التى تخفى على المؤمن ايمانا سطحيا ، ذلك المستوى من الايمان الذى يوقع صاحبه فى تلك الأحكام الخاطئة الجزافية ، والاتفاقية ، فقلوب هؤلاء فى حالة أقرب الى الموت منها الى الحياة ٠

ويحضرنى هنا قول الله تعالى : (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد _ ق / ٣٧) فلكل انسان وحيوان، قلب يؤدى الوظيفة الفسيولوجية الطبيعية التى يعرفها الجميع ، ولكن القلب المقصود هنا هو القلب الباطنى الواعى ، المتطهر المدرك ، وذلك هو الحى حياة حقيقية ٠

وذلك نموذج آخر من نماذج دقة الترمذى فى نظرته الى بعض آيات القرآن ، اعتمادا على تحليل دقيق ، وتعليل عميق للغة وألفاظها، وسنرى من بعد نماذج أخرى ، اذا لم تزد على هذه دقة وعمقاء فلن تقل عنها ٠

١١٤ _ أضفنا هذه الكلمة لتوضيح المعنى ، ولك أن تتصور العبارة بدونها فلن يستقيم لها معنى ٠

١١٥ _ لم نعثر على رواية أخرى لهذا القول الذى رواه الترمذى عن وهب بن منبه ٠

١١٦ ـ فى الأصل (هباء) والأصح ما أثبتناه اتفاقا مع السياق ٠

١١٧ ـ فى الأصل (وأشراعه) ونعتقد أنها لا تصح على هذه الصورة من صور الاشتقاق اللغوى ، فاما أن تكون (أشرعة) واما أن تكون (شراعة) بالمفرد ، ورأينا أن الجمع أقرب للسياق ٠

١١٨ ـ فى الأصل (له) ولا معنى لها بأى حال ، وللقارىء أن يتصور المعاناة التى يعانيها المحقق لكى يضبط كلمة مثل هذه وبحيث تتناسب والسياق ٠

١١٩ ـ فى الأصل (طوله قد) ولا تفيد العبارة معنى بذلك ، فأصلحناها لضبط العبارة واستقامة المعنى المطلوب ٠

١٢٠ ـ فى الأصل (طبق) ونعتقد أن اضافة حرف (الألف) يقرب المعنى المطلوب ، وان كان يمكن اصلاحها الى كلمة (طفق) الا أن مراد الترمذى أن يعبر عن صورة معينة هى أن البحر والدنيا تكاد تطبق على من فيها ، ممن يتعلقون بها روحا وجسدا ، وهذا ما ستوضحه بعض العبارات التالية من النص ٠

١٢١ ـ فى الأصل (فأرساها) والفاء لا قيمة لها هنا ، خاصة وأنه لم يضيفها الى كلمة (أجراها) ٠

ويبقى حكمنا على تصور الترمذى هنا ، وهو تصور غريب ومخالف للمألوف ، اذ كيف للملاح الماهر أن يجرى بسفينته اذا هبت العواصف والرياح ، ويرسيها اذا هدأت وسكنت ، والمفروض أن العكس هو الصحيح ، اللهم الا اذا كان الترمذى أراد أن يعبر عن الفئة التى تستطيع أن تكبح جماع نفسها وشهواتها ، فتظهر أنفسهم اللوامة وتتغلب على الانفعالات والشهوات الباطنة والظاهرة على السواء ٠ وذلك يكون عند الترمذى دليل المهارة والحكمة فى قيادة النفس والسيطرة على الذات ٠

ولعلنا ندرك أن كل الأمثلة التجريبية هذه وغيرها مما أورده

الترمذى ، هى كناية ومجازا للتعبير عن وجهة نظره الحقيقية حــول صراع الانسان المؤمن مع شهواته وضد نزواته ٠

١٢٢ - وجدنا رواية هذا الحديث على نحو مختلف فى الصيغة وهو : (لو كان لابن آدم واد من ذهب) - راجع المعجم المفهرس ج ٢ ص ١٩٢ رواه البخارى و**الترمذى** ٠

١٢٣ - أضفنا هذا الضمير لتوضيح العلاقة بين حرص الانسان على الدنيا وبين طلب المزيد دائما ٠

١٢٤ - أى التوبة من العبد وقبولها من الله ٠

١٢٥ - أضفنا هذه العبارة لتوضيح المعنى المقصود ، ولتيسير فهم السياق ، وتمهيدا للتمثيل والتشبيه الذى سيورده الترمذى حول هذه الفكرة٠

١٢٦ - فى الأصل (رحلال) ولا معنى لها طبعا ٠

١٢٧ - فى الأصل (على) والأصح (عن) لأن الاعراض يكون عن الشىء ، والاقبال يكون عليه ، ولعل الناسخ تدارك ذلك فى العبارة التالية فى النص حين تحدث عن اعراض القلب عن جميع شهوات النفس ٠

١٢٨ - فى الأصل (وقع) والأصح أن نظهر تأثير الانسان الذى يعــرض عن الشهوات ، ويقبل على التوبة ، ويبرز دوره وفعاليته ، بأنه هو الذى يوقع بقلبه فى بحار العظمة ، الا أنها تقع تلقائيا وحدها ٠

١٢٩ - فى الأصل (وامتلأ) وكأنها معطوفة على وقع القلب ، ولكن الأصح أن نؤكد على أن الامتلاء مسبب ومتوقف على وقوع القلب فى بحــر العظمة ٠

١٣٠ - أضفناها توضيحا للمقصود ببحر العظمة هذا ، والعلاقة بينــه وبين جريان السفينة فيه ٠

١٣١ ـ أضفناها للفصل بين كلمتين مكررتين (أخذها أخذها) ولافادة التحقق الفعلي للاخذ ٠

١٣٢ ـ فى الأصل (دين) وان كانت هذه تعطى معنى أن الذنوب بمثابة الذين الذى يدين به الانسان وعليه أن يسده ويرده ، الا أن كلمة رين أوضح وأفصح باعتبار أن القلوب ترتكب الذنوب نتيجة صدأ أو طبقة حاجبة وعازلة بين الحق والصواب والفضيلة ، وبين قلب المنافق أو المشرك أو الفاسق أو العاصى ، ولعل كلمة رين تتأكد قيمتها وأهميتها فى السياق التالى للنص ، كما تتضح فى قوله تعالى: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا انهم عند ربهم يومئذ لمحجوبون ـ المطففين / ١٤ ، ١٥) ٠

١٣٣ ـ فى الأصل (صديت ويترايا) فأصلحناها لتقترب من النطق المعتاد ٠

١٣٤ ـ فى الأصل (وعظيم) والأصح ما أثبتناه لأن موقع الذنوب يعظم عند الانسان اذا كانت الغشاوة قد انجلت عن قلبه، وزالت عنه الكدورات، وتطهر تطهيرا تاما ، وهذا العظم هو ما يجعل الانسان يبادر بالندم ثم التوبة الخالصة ، التى تحمل العزم على عدم تكرار الذنب والوقوع فى معصية ما ٠

١٣٥ ـ فى الأصل (المطعين) ولا معنى لها ٠

١٣٦ ـ فى الأصل مرفوعة ، وهى خطأ ٠

١٣٧ ـ فى الأصل (سواهما) بالتثنية مع أن الكلمة تعود على الجنة والنار والقيامة ٠

١٣٨ ـ لعله أراد أن يوضح ما يختص بالأسماء الحسنى ، ويفصل القول فى الأسماء التى علمها الله سبحانه لآدم عليه السلام ٠ والتى كانت، من وجهة نظر الترمذى ، هى أصل العلم بكل الأشياء والأحوال والأفعال ومبعثها ومصدرها ٠

١٣٩ - أضفناها للتوضيح ، خاصة وأن هذه بداية باب جديد ٠

١٤٠ - اشارة الى احصاء هذه الأسماء أثناء التسبيح ، سواء أكانت منفصلة وغير مرتبة أم متصلة ومرتبة ، كما وردت فى القرآن الكريم : (هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى - الحشر / ٢٤) وقوله عز وجل : (٠٠٠ أيا ما تدعوافله الأسماء الحسنى - الاسراء / ١١٠) ٠

١٤١ - لم نعثر على رواية أخرى لهذا الحديث ٠

١٤٢ - [ونرى غير] كان علينا أن نضيف هذه الجملة لتستقيم فكرة الترمذى حول مخالفة العدد الذى أورمده الحديث السابق ، والتوقيت الذى وقته أبو هريرة ٠ ونحن نرى أن الحق فى جانب الترمذى اذ أننا لا نستطيع أن نفصل فى الله سبحانه وتعالى ، بين ذات وصفات وأسماء ، فلما كانت ذاته تعالى مطلقة وغير محدودة ، كانت صفاته وأسماؤه أيضا كذلك غير محدودة ولا متناهية ٠ ومن هنا فان أى أسماء نتصورها له سبحانه فان له غيرها مما يزيد عليها ، لأننا لا نستطيع أن نحصى احصاء تاما هذه الأسماء والصفات ، بل ولا الأفعال أيضا يمكننا أن نحصرها ، لأن الأفعال الالهية تتناسب مع طبيعة ذاته تعالى ، وهى ذات فاعلة قادرة مريدة ، وهى لا نهائية ولا محدودة فكذلك تكون أفعالها أيضا كذلك لا متناهية ولا محدودة، لأن الأفعال تنتج عن الذات الفاعلة ، وتتناسب معها ٠

١٤٣ - فى الأصل (يويدى) ولا معنى لها ٠

١٤٤ - أضفاها للتمييز بين المصادر المختلفة لفعل (القول) الذى تكرر فى هذه الفقرة ٠

١٤٥ - علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فأقرأوا ما تيسر من القرآن - المزمل / ٢٠) ٠

١٤٦ - استقيموا ولن تحصوا ، استقيموا تفلحوا ، رواه ابن ماجه والدارمى

ومالك وابن حنبل - راجع المعجم المفهرس ج ٥ ص ٤٩٧ ٠

١٤٧ - فهذا الفضل ما يحتاج الى احصـــــائه) أى زيادة العد والحصر لبقية الأسماء ، لا حاجة للانسان المؤمن بها ، طالما أنه بعده وحصره واحصائه لاسم واحد من أسماء الله الحسنى يمكن أن يدخل الجنة ، وذلك يعد تدرجا من الترمذى لكى يرفض أن يكون الاحصاء هـــو مجرد العد فقط دون التحمل والصبر والاطاقة ، والعمل بها ، فما أهون أن يعد الانسان أشياء ، وأسهل أن ينطق بألفاظ دون أن يعيها أو يفهم معناها ومضمونها ، وبالتالى يعمل بهذا المضمون والمعنى ٠ ولذلك لم يقتصر الايمان على كونه نطقا باللسان ، بل لابد أن يصاحبه تصديق واعتقاد بالقلب ، ثم عمل بأركان هذا الايمان ٠

وكذلك فان أسماءه تعالى ينطبق عليها هذا المبدأ ، وهو أن لا يكتفى المؤمن بمجرد تحريك حبيبات المسبحة أو أصابعه ناطقا بكل اسم من أسمائه تعـــالى دون أن يكون قادرا على الوعى بالمعنى والمضمون الخاص بكل اسم أو وصف من أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى ٠

١٤٨ - فى الأصل (حياله) ولا معنى لها ، ولعل الأصح ما أثبتناه على اعتبار أن من يحصى الاسم الواحد معترفا به وبمعناه خاصة اذا كان اسما شاملا لكل الاسماء الأخرى ، والتى تنتج عنه أو تحمل عليه ضرورة ، كاسم الله ، أو الاله الواحد ، الرب ، أو المعبود ، أو الحق ، نقول ان محصى هذا الاسم الواحد المجمل الشامل ربما يتساوى ، عند الترمذى ، بمن أحصى كل الأســماء الأخرى ، أى الحسنى ، اذا أن هذا الأخير يؤمن ويحصى تفصيلا ، بينما ذاك فقد أحصى وأمن اجمالا ، مع وعيه لما يندرج تحت هذا الاجمال من معان وأسرار وحقائق ، ومن هنا فلا فرق بينها باعتبار أن كلا منهما قد آمن بالله واحد ، لم يختلفْ بين هذا وذاك ، واذا كانت المسألة عدا واحصاء فقط لكان هناك خلاف بينهما ، ولكن المسألة تتعدى من العد والاحصاء الى التحمل والقـــدرة والاطاقة والوعى التـــام بما يحصى ويعـــد ٠

١٤٩ ـ فى الأصل (يتحر) وهى تعطى التدقيق ، ولكن السياق عند الترمذى يشير الى البحر والابحار والتبحر ، لافادة أن علم الصوفية هذا بحر لجى عميق يحتاج الى بحار ماهر ٠

١٥٠ ـ فى الأصل (جر) ولا معنى لها خاصة وأن ما غير جازمة لما بعدها ، فضلا عن أن السياق يشير الى الجرفان لا الى الجر ٠

١٥١ ـ فى الأصل (عالم) مع أنها خير ليس ٠ والحديث الوارد هنا رواه أيضا الدارمى ـ راجع المعجم جـ ٤ ص ٣١٩ ٠

١٥٢ ـ روى هذا الحديث أيضا الدارمى ، راجع المعجم جـ ٤ ص ٣٣٠ ٠

١٥٣ ـ راجع سورة فاطر ، الآية / ٢٨ ٠

١٥٤ ـ روى هذا الحديث أيضا الدارمى ـ راجع المعجم المفهرس جـ ٤ ص ٣٣٠ ٠

١٥٥ ـ فى الأصل (فاستفارات) ولا معنى لها فى سياقها ، لأنّ القلوب تستنير بالعلم ، ولا مجال للفائدة بمعناها الحسى المادى الى حد ما ٠

١٥٦ ـ كثيرا ما نلاحظ أن الناسخ كان يكتب سماعا دون وعى ولا ضبط فنجده يكتب الرحمن هكذا (الرحمان) ويكتب هؤلاء (هاولا) ويكتب كلمة هكذا (هاكذه) وفسر على ذلك كثيرا من الكلمات المشابهة ٠

١٥٧ ـ أضفنا كلمة (العبد) لتوضيح أن الناطق بالربوبية هو العبد وليس الله ، وذلك كله اتساقا مع العبارة التالية مباشرة فى النص ، لاحظ ذلك ٠

١٥٨ ـ فى الأصل (احتراز) وهى تنافى المعنى المطلوب ، وهو الابتغاء والسعى للحصول على منفعة وامتلاكها ، لا الاحتراز بمعنى الحذر والاحتياط والخوف ٠

١٥٩ - رواه النسائى وابن حنبل ، راجع المعجم المفهرس جـ ٥ ص ٦١ ٠

١٦٠ - فى الأصل (وسوسه بالعجائب) والعبارة على هذا النحو لا تصح وتعطى معنى غير واضح ، هذا اذا أعطت أى معنى ٠

١٦١ - (علم حتى سكن) لم يكتفى الترمذى بأن يعلم الانسان كل هذه الأسماء الحسنى الالهية ، وأن يعلم ما يلزم عنها من رد فعل انسانى عند من يعلمها ، من رجاء وأمل واستغناء واستسلام الى غير هذا ، بل أراد الترمذى أن يؤكد أيضا على وجود السكنية وحلولها فى قلب من يعلم هذا العلم ٠ فلا نكتفى من العالم النظرى بمجرد الحصول على مبدأ أو قاعدة من القواعد الأخلاقية أو المبادىء الاجتماعية مثلا ، بل لابد أيضا أن يستتبع ذلك سلوكا عمليا متناسبا مع تلك القاعدة ومنسجما مع ذلك المبدأ ٠ وهنا يهدأ عقل من يعلم مثل ذلك العلم وتطمئن نفسه ، ويسكن قلبه ، وهذا ما يقربنا من تعريف اليقين عند منكرى الاسلام ، وأنه هو المعرفة التى يطمئن لها قلب العارف وتستقر بها نفسه وتهدأ ، ويسكن كله ، وكأنما دوام سعى النفس الى المعرفة يؤكد أنها لم تحصل بعد على اليقين المطلوب والذى تبحث عنه ويسبب قلقها وتوترها لعدم الوصول اليه ، وحينما تصل اليه وتحصل عليه تهدأ وتستقر وتسكن ، وهنا يقال يقنت النفس وأيقنت ، أى هدأت وسكنت لأنها حصلت على اليقين الذى كانت تسعى اليه ٠

١٦٢ - فى الأصل كتبت بلا (ألف) هكذا (وقشعر) ولا تصح هكذا ٠

١٦٣ - رواه ابن حنبل وابن ماجه ، راجع المعجم المفهرس جـ ٢ ص ٩٠ ٠

١٦٤ - فى الأصل (لم) ولا يسهل نطق العبارة بها ، وربما أراد الترمذى من هذه العبارة كلها أن ما أورده حول فكرة الخوف والرجاء ، وهذا الحديث القدسى السابق ، كلها أفكار مجملة ومختصرة ، وأن تفصيل القول فيها موجود فى كتب أخرى ، وعند أناس آخرين ٠ بل انه يرى أن فكرته هذه وان كانت نظرية الا أن ممارستها العملية موجودة

فى الأخبار ، أى فيما روى أهـــل الطريق من أخبـــار ، وكتب عن أحوالهم ومقاماتهم وسلوكهم ٠

وهذه وجهة نظر من الترمذى تذكرنا بمنهج البحث فى العـــلوم التجريبية ، خاصة العلوم التاريخية ، من حيث ضرورة الرجوع الى مصادر التطبيق ، والرد اليها لنجد الفكرة النظرية مطبقة عمليا ، ومروية لنا بالتواتر الكتابى من خلال رجال ثقاة فى التاريخ ، وذلك ما يسمى بالمنهج الاستردادى فى التاريخ ٠

وكأن الترمذى أراد أن يؤكد لنا أن كـــلامه هذا وكثير غيره ليس محض ادعاء ، ولكنه مدعوم بالاسانيد والأدلة التطبيقية ، وعلى من أراد معرفة ذلك فعليه أن يرجع الى كتب السير والأخبار ليتحقق بنفسه من صحة هذه الفكرة ، وأنها ليست ادعاء باطـــلا ولكنها دعوة حقيقية ٠

١٦٥ ـ سورة الزخرف ، الآية / ٨١٦ ٠

١٦٦ ـ (وهو يعلم) أراد الترمذى أن يؤكد أن مسألة النطق بالشهادة أو الشهادتين لا تكفى وحدها ، بل لابد من أن يعلم الانسان بمضمون الشهادة وقيمتها ومتطلباتها ، ولعل فى هذا ردا على من يأخذون الأشياء كلها بمظاهرها ، كالقول بأن من قال لا اله الا الله دخل الجنة ، فالقول ليس النطق فقط ، ولكنه يتعدى النطق الى الاعتقاد القلبى والسلوك العملى ٠

وسنرى فى نهاية (علم الأولياء) وهو الكتاب موضوع هذا التحقيق وهذه الدراسة ، رسالة صـــغيرة الحجم ، اذ لا تتجـاوز أربع صفحات ، ولكن قيمتها كبيرة ، بما تنطوى عليه من مبنى ومعنى ، تقام عليهما أركان الدين الاسلامى ، وكل أفعال وأخلاق الانسان المسلم الحقيقى وقيمه بوصفه مؤمنا ايمانا عميقا وصادقا ٠

١٦٧ ـ تأمل ســـورة (محمد) الآية / ١٩ ، حيث يمكنك أن تلاحظ أن الآية تشير الى أن من يهتدون من البشر يزيدهم الله هدى ، ويأتيهم

تقواهم ، وأن الله سبحانه يعلم توبة التائبين ونجواهم ، كما أن السورة كلها تشير الى مقارنة بين المؤمن والكافر ، ومتقلب فكر كل منهما واتجاه ذكرهم وباطنهم · (فاعلم أن لا اله الا الله واستغفر لذنبك ـ محمد / ١٩) ·

١٦٨ ـ لم يذكر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى رواية أخرى لهذا الحديث ، ولم يشر الا الى رواية الترمذى فقط راجع المعجم ج ٤ ص ٣٢٦ ·

١٦٩ ـ فى الأصل (أسماءه) والأصح ما أثبتناه ·

١٧٠ ـ (فالنور يطفىء النار) مع أن هذه العبارة تبدو واضحة فى قراءتها ، الا أن معناها غريب الى حد ما ، اذ لا نستطيع أن نتصور كيف أن النور ، وهو من مسببات النار ونتائجها ، الى جانب الاحراق والدفء وغيرهما من خواص النار ، أن يصير هو علة اطفائها والقضاء عليها · اللهم الا اذا كان الترمذى يقصد أن النور الذى يأتى من مصدر غير النار يطغى على النور الذى ينتج من اشتعال النار ويتغلب عليهما ، بحسبانه أقوى ، منهما ، وبحسبان أن ضوء النار أو نورها يعد من احدى خواصها الجانبية ، لا الأساسية ، كالقوة على الاحراق والتدفئة ، وربما كان يقصد تعبيرا مجازيا وهو أن نور الهدى والمعرفة الربانية يطفىء نار الضلال والكفر والشرك ، وهكذا يمكن فهم العبارة ·

١٧١ ـ فى الأصل (كاتف) ولا معنى لها مثل كلمة (كيف) بمعنى أنه تعالى جعل المخلوقات وفطرها على وجود هذه المعانى ، أو الأحوال ، المتناقضة ـ أى الخوف والرجاء ، المضار والمنافع ، الخير والشر الحسن والقبيح ، وغيرها من هذه الثنائيات المتقابلة فى المبنى والمعنى · ولا يمكن لأى مخلوق أن يقهر هذه الأحوال المتضاده ويسيطر عليها ، بأن تتجاور وتحل فى مكان واحد ، أى مخلوق واحد ، بل ان من قهرها وسخرها وسيطر عليها ، ووضعها على هذه الصورة هو الاله سبحانه ، القادر الحكيم ،وليست الطبيعة أو المادة غير الحية وغير العاقلة ، كما ذهب الماديون ·

١٧٢ ـ فى الأصل (ولا تعتروه) وهى خطأ لأن أصل الكلمة اعترى يعنرى ، وليست اعترى يعترو ٠

١٧٣ ـ سورة الذاريات / ٤٩ ٠

١٧٤ ـ فى الأصل (يكون) والأصح اضافة (لام التعليل) للوقوف على السبب الذى من أجله خلقت الأشياء ، مثنى مثنى ، ومعرفة الحكمة الالهية من هذا الازدواج فى نوعية المخلوقات

١٧٥ ـ سورة الأنبياء الآية /٥٢ ٠

١٧٦ ـ سورة آل عمران ، الآية /١٨ ٠

١٧٧ ـ فى الأصل (تنزيل) والعبارة لا يستقيم نطقها اذا ظلت هذه الكلمة بدون (هاء الملكية) ٠

١٧٨ ـ سورة النور الآية / ٢٦ ٠

١٧٩ ـ (فكل واحد منهما شكل لصاحبه) لا يحسبن انسان أن الترمذى ينزع ههنا الى التجسيم ، أو الحلول ، بأن تصور أن عبارة لا اله الا الله تتجسد فى هيئة المؤمن وصورته ، كما توهم بعض غـــلاة الشيعة ، ولكننا نرى أن عبارة الترمذى هذه تعبر عن وعى نافذ وفكر عميق عنده ، اذا أنه أراد أن يؤكد أن المؤمن الحقيقى الصادق فى ايمانه يعد صورة مطابقة لقوله لا اله الا الله ، كما يمكن أن يكون كل منهما دليلا على الآخر ، وكأن بينهما علاقة تضايف منطقى مثل تلك العلاقة التى بين الأب وابنه ، أو بين الأخ وأخيه ، أو الزوج وزوجه ، فكل منهما يحيل الى الآخر ويشير اليه اشارة عقلية وذهنية وربما وجودية فى بعض الأحيان ٠

وهذا يذكرنا بفكرة القصـــد والاحالة التى شـــاعت فى مذهب الفينومونولوجيا المعاصر عند هوسرك ، وكانت شعارا على مذهبه

وعـــــلامة من علامات منهجه فى الوعى بالاشـــياء والادراك الانسانى لها ٠

١٨٠ _ (أى الله) أضفناها لتوضيح المتحدث ، ومن تعود عليه كلمة (على) والكرم والتكرم ٠

١٨١ _ حاولنا العثور على ترجمة له ، أو الوصول الى بعض آرائه ، فلم تسعفنا المصادر التى وصلت اليها ايدينا ٠

١٨٢ _ سورة فاطر ، الآية / ١١ ٠

١٨٣ _ سورة البينة ، الآية /٧ ٠

١٨٤ _ (والمؤمنون آمنوا به عرفانا) هكذا ينفى الترمذى أى قول يؤذن بأن البشر أجبروا على الايمان ، أو ألجئوا على التسليم بوجود الله ووحدانيته ، بل انه يؤكد اختيار الانسان الايمان ، وأنه عرف ربه باختياره وارادته ، وليس كما تصور الكثير من أن المؤمن آمن جبرا لا اختيارا ، ويلاحظ أن رأى الترمذى هنا أقرب الى العدل الالهى ، والى توضيح التكليف وأهمية المســـئولية حتى يغلق الباب أمام اعتذارات الكفار وتعليلات الملحدين الذين يرتكنون على المشـــيئة الالهية فى كل شىء ، مرددين أنه لو شاء الله هداهم لهداهم للايمان ، ومتغافلين عن أن هناك فى آيات القرآن وما تحـويه من أفـــكار ، ما تسمى بالآيات الكونية ، وما تسمى بالآيات الدينية الايمانية ، ففى ضوء الآيات الكونية يمكن تأويل الشرور وأوجه الابتلاء كلها ، وكأنها من قبيل المتشابه فى القرآن ، أما الآيات الدينية الايمانية فهى الآيات المحكمة التى لا تحتمل التأويل ٠

والمهم أنه لكى يصح التكليف ، وتصح النبوة والرسالات ، ويحسن الثواب والعقاب ، ويصدق وجود الجنة والنار ، لابد من التسليم بأن المؤمن بالله مؤمن باختياره وارادته ، ولم يلجأ الى هذا ، وأن المشرك والملحد مشرك وملحد بارادته واختياره ، ولم يجبر على

شركه والحاده ، ولكل من المؤمن والمشرك استحقاق الثواب والمدح أو الذم والعقاب تبعا لما ارتبط مع ارادته من أفعـــال هى طاعات أو معاصى ٠ وهذا قد يقرب بين الترمذى والمعتزلة من هذه الوجهة بالذات ٠

١٨٥ - فى الأصل (بأيديهم) وهى تبعد تماما عن السياق الذى يتحدث عن البارىء المصور وهو الله سبحانه وتعالى ٠

١٨٦ - فى الأصل (صنف) والأصح ما أثبتناه لابراز الاختلاف والتباين بين خلق الملائكة وخلق آدم عليهم السلام ، والكلمة لو تركت بدون (الفاء) لكانت استطرادا وتفصيلا للعبارة التى قبلها ، والترمذى لم يقصد ذلك ، بل خلافة ٠

١٨٧ - [وكل] أضفناها لأنها تفيد أن العبارة شاملة لكل الأصناف السابقة للملائكة ، وأنهم كلهم مطبوعون ومجبورون على ما هم فيه ، وما هو مخلوقين من أجله ، بحيث لا تتغير صفة ووظيفة ملائكة الرحمة ، لكى يصبحون ملائكة الموت أو العكس ٠ وهنا تبرز فكرة الجبر فى الملائكة ، بعكس اختيار وحرية البشر ٠ ولك أن تقرأ هذه العبارة بدون الكلمة المضافة ، فلن تفهم حقيقة ما يريد الترمذى التعبير عنه٠

١٨٨ - فى الأصل (كلهم) ولا تتسق مع الضمير الذى يسبقها (فهو) ولا مع الكلمة اللاحقة (سخر) ولعلها تعود على العبارة السابقة (سائر الخلق) ٠

١٨٩ - فى الأصل (يضع) وهى تعطى معنى مخالفا لما يقصده الترمذى ٠

١٩٠ - فى الأصل (يسر) بالمفرد ، فى حين أن الفعل يعود على اثنين هما : العلم بالله والعلم بتدبير الله ، لاحظ الفقرة التالية مباشرة فى النص ٠

١٩١ - أصلحناها اتساقا مع ضمير الغائب ، وليس المخـاطب ، كما فى الأصل (قلبك) ٠

١٩٢ - فى الأصل (التناهى عن النهى) ولا تفيد المعنى المقابل للانتحـــار بأمر الله ، فأصلحناها لافادة المعنى المطلوب ٠

١٩٤ - (علم) أضفناها لتوضيح أن العلم هنا عبارة عن معرفة بعـــلم التدبير وليس بالتدبير ذاته ٠

١٩٥ - فى الأصل (تصور) مع أنها تعود على صورة الأعمال التى يتصورها من عرف علم التدبير ، ولا بد أن تقرأ العبارة : تصورت له صورة أو صور الأعمال ، أى مراتبها ٠

١٩٦ - لعل الترمذى يقصد بالبيعة الأولى ، بيعة التوحيد التى أخذت فى ميثاق عالم الذرات (ألست بربكم) ٠

١٩٧ - فى الأصل (تفاوت) والأصح نصبها لأنها اســـم (ان) كما فى الجملة ٠

١٩٨ - فى الأصل (اختلف) مع أنها تعود على كلمة (المثوبات) وهى جمع مؤنث ٠

١٩٩ - أن تنكسر كسرا ، أفضل من أن تتجه الى غير قبلة الصلاة ، وذلك تعبيرا عن أن وظيفتها هى هذه فحسب ٠

٢٠٠ - فى الأصل (شياء) ولا معنى لها ٠

٢٠١ - يستخدم اليد اليسرى ٠

٢٠٢ - لا يستخدم اليد اليمنى ، أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يجعل لكل يد مجالا معين تستخدم فيه بحسب نوعية هذا المجال ، وتبعا لكون اليد اليمنى أفضل من اليسرى ٠

٢٠٢ - أى وضع السارية أو العمود أو العصى فى مقابل حاجبه الأيسر ، حتى لا يحجب عنه رؤية القبلة ، فى الأصل كانت الكلمة (حتى)

ولا معنى لها فأصلحناها الى (حطه) ٠

٢٠٤ - فى الأصل (محمد) مع أنها اسم ان ٠

٢٠٥ - [ما] أضفناها لتوضيح الذى ألقاه صاحب الشهادة عند موته ٠

٢٠٦ - فى الأصل [تسلما] وهى لا تصح لأن القاء ما باليد معناه الاستسلام والتسليم لله ، لا الاستلام منه ٠

٢٠٧ - [فيها] أضفناها لتوضيح معنى العبارة وفهمه ٠

٢٠٨ - [الشهادة] أضفناها لتوضيح الشىء الذى يقع عليه فعل القول ، وهو شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ٠

٢٠٩ - روى هذا الحديث : البخارى ومسلم والدارمى وابن حنبل بالاضافة الى رواية الترمذى ، راجع المعجم المفهرس ج ١ ص ٧٩ ٠

٢١٠ - ضبطنا هذه الكلمة هكذا ، اتساقا مع العبارة وتوضيحا للفكرة ، لأنها كتبت فى الأصل بصورة لا يمكن فهم شىء منها ، وهى : والتائب على موعود الله تعالى ! ! ٠

٢١١ - سورة الشورى ، الآية / ٢٥ ٠

٢١٢ - [أى التائب] أضفناها لزيادة الايضاح ٠

٢١٣ - [لو] أضفنا هذا الحرف لضبط المقصود بالعبـــارة ، وهو اثبات الامتنـــاع ٠

٢١٤ - [وهو] أضفناها لتوضيح المعنى الخاص بالمخلط ٠

٢١٥ - [الشهادة] أضفناها للتوضيح أيضا ٠

٢١٦ - بمعنى يأس وقنط من كل مخلوق ، أما أمله الوحيد فمعلق بالخالق

ورحمة ربه ، وتلك هى قمة الزهد والتعبد والاستسلام لله وحده ٠

٢١٧ - [لو] لو افترضنا العبارة بدون اضافة هذا الحرف فلن نفهم منها فكرة ما ٠

٢١٨ - [أى الشهادة] أضفنا هذه العبارة للتوضيح ٠

٢١٩ ، ٢٢٠ - روى هذين الحديثين الترمذى والدارمى ومسلم وابن حنبل والبخارى ، راجع المعجم جـ١ ص ٧٩ ٠

٢٢١ - سورة الحجر ، الآية / ٩٢ ٠

٢٢٢ - روى هذا الحديث نفس رواة الحديثين السابقين فى تعليقى : ٢١٩، ٢٢٠ ٠

٢٢٣ - فى الأصل (نظرة) ولا علاقة لها بالسياق ٠

٢٢٤ - [أهل] أضفناها لتوضيح مدلول العبارة ، ومن يعود عليهم فعل (لا يزال) ٠

٢٢٥ - فى الأصل (مغرقة) ولا معنى لها ، فأصلحناها اتساقا مع ما قبلها ٠

٢٢٦ - فى الأصل (أحدهما) بالتذكير ، ولا تتفق مع كلمة (المنزلتين) المؤنثة ٠

٢٢٧ - (جوارحك السبع) لعل الترمذى يقصد بها الحواس الخمس بالاضافة الى القلب كآلة لادراك الله تعالى ومعرفته ، بأن يحفظ الانسان عن اعتقاد المحرمات وتصديقها ، ويضاف الى هذه الجوارح الست ، الجارحة السابعة وهى مكمن الممارسة الجنسية عند الرجل والمرأة ، بأن يحفظها صاحبها عن استخدامها فى الطريق الحرام أو يبتذلها ٠ وكم من آية فى القرآن الكريم تشير الى مسئولية الانسان

فى حفظ كل حواســـه وقلبه ، كما تدعوه الى الامتناع عن الزنى والاعتدال فى ممارسة الجنس · وهكذا يمكن أن نفهم المقصـــود بالجوارح السبع التى على الانسان أن يحفظها ·

٢٢٨ - [به] أضفناها لتحديد وقوع الحكم الالهى على الانسان ·

٢٢٩ - لعل الترمذى يقصد بها - أى هذين الوجهين - صنع الله وأوامره ، وقد سبق أن فصل القول فيهما ، حين تحدث عن المنزلة الأدنى من منزلتى أهل لا اله الا الله ·

٢٣٠ - فى الأصل (حافظ) مع أنها خبر كان أو يكون فى النص ذاته ·

٢٣١ - أصلحناها اتساقا مع قول الترمذى (قد راض نفسه) أى روضها وهيأها لقبول أمر ما ، وبذلك تصبح مؤهلة وصالحة لتلقى ذلك الأمر ، والأصل كان مكتوبا بكلمة نشك أن لها معنى ما ، وهى كلمة (وأهلشت) ·

٢٣٢ - هكذا أصح وأقرب للاتساق مع الخازن الأمين للامانة الالهية ، أما الأصل فمكتوبة فيه كلمة لا علاقة لها بالسياق وهى كلمة (اليد)

٢٣٣ - فى الأصل (رونه) ولا معنى لها ·

٢٣٤ - فى الأصل (يسقيه) ولا تتفق مع حرف (لم) ·

٢٣٥ - [أى بلا اله الا الله] أضفناها لتحديد موضوع الكلام الذى يتحدث عنه الترمذى ، اذ أن طول المثال الذى ضربه قد يؤدى الى أن ينسى القارىء المقصود به ودلالته ·

٢٣٦ - [أى قائلها ومعتقدها من الخلق] الزيادة من عندنا للتوضيح ، وتذكير القارىء بمصدر النطق والاعتقاد والوفاء ، فيما يتصـــل بقول لا اله الا الله ·

٢٣٧ ـ فى الأصل (الذى) مع أنها تعود على الجوارح السبع وهى مؤنثة، جمعا أو مفردة ٠

٢٣٨ ـ فى الأصل (المنطق) ولا علاقة لها بالسياق ٠

٢٣٩ ـ [هى] أضفناها ليكون للملة معنى ، وقوة فى العبارة ٠

٢٤٠ ـ سورة الذاريات ، الآية / ٥٦ ٠

٢٤١ ـ سورة الأنبياء ، الآية / ٢٥ ٠

٢٤٢ ـ فى الأصل (ماشتركنا) والأصح ما أثبتناه ٠

٢٤٣ ـ أى نعمه وألطافه تعالى ، وفى الأصل كتبت (الآية) ولا تضبط العبارة بها ٠

٢٤٤ ـ فى الأصل (بقلب) ولا معنى لها ٠

٢٤٥ ـ جمع مفازة ، أى الصحراء المنبسطة ٠

٢٤٦ ـ فى الأصل (حجاب) مع أنها مفعولة لاختراق كلمة لا اله الا الله ٠

٢٤٧ ـ [به] أضفناها ضبطا للعبارة والمعنى ٠

٢٤٨ ـ (فى) أصلحناها ليتضح عنوان الباب ويفهم ، لأنها فى الأصل كتبت (باب وان سر الله تعالى) ٠

٢٤٩ ـ [قال أبو عبد الله الترمذى رحمه الله تعالى] الاضافة من عندنا لتوضيح أول الباب ، ومن هو قائله ٠

٢٥٠ ـ فى الأصل (خلق) ولا تفيد المطلوب ٠

٢٥١ ـ أى سر الله تعالى ، وهو لا يدرك ولا يتعلم ، ولا يمكن أن يمتلكه انسان ما ٠

٢٥٢ ـ [هو] أضفناها لتوضيح المقصود بالعلم الذى لا يدرك منتهاه ، وأن قياسه كقياس بحر مظلم عميق ليس له آخر ، لا ينجو منه سباح ما ٠ وهى فكرة اعتمد عليها الغزالى من بعد كتابه المنقذ من الضلال ٠

٣٥٣ ـ فى الأصل (انقطع) ، والأصح تأنيثها لأنها تشير الى الصفات التى لا يمكن حدها ولا حصرها ٠

٢٥٤ ـ رواه ابن حنبل بالاضافة الى الترمذى ، راجع المعجم ج ١ ص ٠١١٠

٢٢٥ ـ [أنه] أضفناها لزيادة الايضاح ولتسهيل نطق العبارة وفهمها ٠

٢٥٦ ـ [فيه] أضفناها لزيادة الايضاح ولتسهيل نطق العبارة وفهمها ٠

٢٥٧ ـ (الموكأنه) بعد صعوبة بالغة أدركنا أن هذه الكلمة قد تعبر عن عن مصطلح نحته الترمذى من كلمتى (الموالاة) و (كأنك) ، وهى التشابه بين العبد المقرب وبين الله ، ولعل ما يوضح صحة ما ذهبنا اليه حول هذا المصطلح ، القول التالى فى النص الذى يذكر فيه الترمذى قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين سأله سيدنا جبريل عن معنى الاحسان ، فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ٠ واذا افترض المسلم الصادق ، المؤمن ايمانا حقيقيا ، هذه (الكأنية) فى كل أفعاله وأحواله ومعتقداته ، جعل الله معه وقريبا منه ورقيبا عليه فى كل شئونه وخواطره ٠

٢٥٨ ـ فى الأصل (اليه) ولا يضبط المعنى بها ، بل ان مبنى العبارة لا يستقيم ٠

٢٥٩ - فى الأصل (انفتقا) وهذا دليل آخر على أن كاتب المخطوط كتبه سماعا واملاء لأن معظم أخطائه سماعية ٠

٢٦٠ - فى الأصل (تراى) ولا معنى لها ، ويلاحظ حذف الهمزات باستمرار من الطريقة التى كتب بها المخطوط كله ٠

٢٦١ - سورة النساء ، الآية / ١٠٥ ٠

٢٦٢ - سورة الأعراف ، الآية / ١٤٦ ٠

٢٦٣ - انتفاء الموانع وزوال الحجب وانفصال الغمام الكثيف ، وهى من الفتق أى الفصل والانفصال ٠

٢٦٤ - فى الأصل (له) والاصح بالتأنيث لأنها تعود على النفس ، (ياأيتها النفس المطمئنة) ٠

٢٦٥ - سورة التكاثر ، الآيات ٥ : ٧ ٠

٢٦٦ - فى الأصل (تسلسلت) ولا معنى لها ، بل تعطى معنى مخالف للمطلوب وللسياق ٠

٢٦٧ - [نفسه] أضفناها مزيدا للايضاح ٠

٢٦٨ - سورة التوبة ، الآية / ١٢٢ ٠

٢٦٩ - سورة آل عمران ، الآية / ١٠٤ ٠

٢٧٠ - (وجود ما فى الأشياء من المعانى) تأكيد جديد لما قلناه من قبل من أن الترمذى لا يكتفى بالبحث عن الأشياء ذاتها فقط لمجرد معرفتها ، ولكن ما يعنيه هو الوقوف على معانى ودلالات هذه الأشياء ، فالمعرفة معرفة بظواهر الأشياء أى مجرد وجودها ، ثم معرفة بباطن وجوهر هذه الأشياء ، أى معناها ولا دلالتها الداخلية ٠

٢٧١ ـ رواه ابن حنبل ومالك والنسائى بالاضافة الى الترمذى ، راجع المعجم المفهرس جـ ١ ص ٤٤٨ ٠

٢٧٢ ـ وردت هذه الآية : (يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) فى موضعين أحدهما الآية : ٢ من سورة الجمعة ، والآخر الآية / ١٦٤ من سورة آل عمران ٠

٢٧٣ ـ سورة يوسف ، الآية / ١٠٨ ٠

٢٧٤ ـ سورة النمل ، الآية / ٦٢ ٠

٢٧٥ ـ فى الأصل (هد الله) ولا معنى الله ، فأكملناها استرشادا بالآية التالية ٠

٢٧٦ ـ سورة الشورى ، الآية / ١٣ ٠

٢٧٧ ـ فى الأصل (كلمتى) ولا معنى لها ٠

٢٧٨ ـ سورة يوسف ، الآية / ١٠٨ ٠

٢٧٩ ـ سورة النمل ، الآية / ٦٣ ٠

٢٨٠ ـ لعبيد أتقياء ولأحرار كرماء ، قول عيسى بن مريم على هذا النحو يصح ، ولكن على نحو ما كتب فى المخطوط يتناقض مع قصد الترمذى من ايراده ، اذ أن الناسخ كتبه هكذا : (لا عبيد أتقياء ولا أحرار كرماء) وهذا أيضا من الدلائل القاطعة على أن ناسخ المخطوط كان يكتب املاءا وسماعا وليس نقلا كما أشرنا مرارا ٠

٢٨١ ـ سورة الأعراف ، الآية / ١٨١ ٠

٢٨٢ ـ سورة النساء ، الآية / ٥٩ ٠

٢٨٣ ـ [فقد] ناقصة فى المخطوط ، مع أن الآية القرآنية تتضمنها لافادة

التحقيق ، وهذا دليل اهمال الناسخ حتى فيما يتصل بالآيات القرآنية، التى أصلحنا كثيرا منها ٠

٢٨٤ ـ سورة النساء ، الآية / ٨٠ ٠

٢٨٥ ـ (رفعه) لا ندرى لماذا استخدم الترمذى هذه الكلمة فى حق رسولنا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أنه قد ورد فى أكثر من آية قرآنية أنه ميت ، وأنه قد مات ، ولعل كلمة الرفع هذه لم تذكر الا فيما يتصل بسيدنا عيسى عليه السلام ٠

ولعل الترمذى أراد أن يميز بين سـائر الكائنات البشرية الأخرى وبين موته صلى الله عليه وسلم ، باعتبار أن الأرض لا تأكل كل أجساد المخلوقات الأخرى ٠ وكأنما أراد الترمذى أن يؤكد أن الله سبحانه وتعالى رفع محمدا الى جواره ليزداد رفعة ومكانة عن بقية خلق الله ، ومع تقديرنا لهذا الرأى وذاك التمييز الا أننا لا ننسى أن القرآن أشار الى أن كل الأنفس البشرية ، خاصة النفس المطمئنة ، الطيبة الزكية ، سترتفع الى خالقها عند موت صاحبها ، وارتفاعها هـو الرجعة الى جوار الله ، اذ أن الموت موت للاجسام فقط وليس للنفوس ، وذلك تصديقا لقوله تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ـ سورة الفجر / ٢٨ ، ٢٩) والرجوع الى الله ليس الا رفعا فى المكانة ورفعة فى الدرجة ٠

٢٨٦ ـ (خواص الأولياء) يلاحظ أن الترمذى يضع هنا نظريته فى الولاية والأولياء ، وكيف أن طاعتهم واجبة كوجوب طاعة الأنبياء ، فكأنه يريد أن يقول أن الخاصية التى اختص بها الله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، والميزة التى ميزه بها ، قد اختص بها سبحانه أولياءه الصالحين أيضا ، أو خاصة الأولياء ، وهم أولو الأمر من الخلفاء فى الأرض ٠ بل ان الترمذى يجعل للاولياء خاتما كما أن للانبيـاء خاتما أيضا ، ومن المعروف أن للترمذى كتابا ضخما حول (ختم الولاية) ضمنه نظريته فى الولاية الى جانب كتب أخرى من مصنفاته

٢٨٧ - يرى الترمذى أن خواص الأولياء سيكونون يوم القيامة فى درجة عليا وفى مكانة عظيمة ، وفى مقام قريب من الله لدرجة أنهم سيكونون محل غبطة وحسد الأنبياء والشهداء ، ومن المعروف أن الجسد والغبطة لا يحصلان الا من كائن أقل درجة أو مكانة نحو كائن أعلى منزلة ودرجة ومكانة ، وكأنه غبطة الأنبياء والشهداء لمكانة خاصة الأولياء يتضمن ضرورة القول أن هؤلاء فى مكانة ومنزلة أفضل وأكرم من مكانة الآخرين ، وهى وجهة نظر من الترمذى تحتاج الى أخذها بحيطة وحذر شديدين ، ولعل الترمذى قال بها فى بدء نظرته الى مقامى الولاية والنبوة ، قبل أن يتعمق فيها ، ويعدل منها فى كتبه الأخرى ، مما يؤكد أن كتابنا هذا اسبق تصنيفا من كتب الترمذى الأخرى التى تناولت نظرية الولاية، والتى كانت آراؤه فيها أخف حدة منها فى كتابه هذا عن علم الأولياء ٠

٢٨٨ - فى الأصل (التفوا) وهى من الأخطاء الشائعة فى المخطوط ٠

٢٨٩ - فى الأصل (تتقى) ولا معنى لها خاصة وأن حرف الجر (على) يتبعها ، وهذا يفيد الابقاء على بعض الأشياء ، وهو نوع من الاتقاء والتقية خاصة حينما يتبع ذلك الحذر كما فى الفقرة التالية من النص مباشرة ٠

٢٩٠ - فى الأصل (يتخوف) ولا معنى لها ، ولعل ما أثبتناه هو الأصح ٠

٢٩١ - فى الأصل (جواهرا) وهى لا تتسق مع العبارة ، فضلا عن أنها لا تصح لغويا ٠

٢٩٢ - فى الأصل (فتشيى) ولا معنى لها ٠

٢٩٣ - فى الأصل (لهفيت) ولا معنى لها ، ولعله يقصد الخوف على المعرفة والحرص عليها ٠

٢٩٤ ـ فى الأصل (مزمتها) وكيف يخاف الانسان ويحرص على أن لاتضيع مزمة شىء ما ٠

٢٩٥ ـ فى الأصل (ببقى) ولا تفيد شيئا الا أن الناسخ نسخ سماعا ٠

٢٩٦ ـ فى الأصل (الأمية) والأصح هنا الاسناد الى الاسم لا الى الصفة ٠

٢٩٧ ـ فى الأصل (معصيته) والانسب أن تقرأها كما أثبتناها حتى تستقيم العبارة كلها فى المبنى ويتضح المعنى المراد ٠

٢٩٨ ـ وردت هذه الآية فى مواضع كثيرة من آيات القرآن الكريم ، ولعل الترمذى قصد سورة آل عمران / ١٠٢ ، قارن تعليق ٣٠٠ ٠

٢٩٩ ـ [فى] أضفناها لتكتمل العبارة ويسهل نطقها واستيعاب المقصود منها ٠

٣٠٠ ـ سورة آل عمران ، الآية / ١٠٢ ٠

٣٠١ ـ فى الأصل (فصار) مع أن (التقوى) كلمة مؤنثة ، بدليل حديثه عنها السابق واللاحق ٠

٣٠٢ ـ فى الأصل (على تقوى) والتقديم والتأخير هنا يجعل العبارة مضطربة ولا يجعل المعنى واضحا ٠

٣٠٣ ـ سورة التغابن ، الآية / ١٦ ٠

٣٠٤ ـ لعل الترمذى يقصد علم التقوى الظاهر فى مقابل علم التقوى الباطن ، أو يقصد العلم فى مقابل الحكمة التى تنبثق من هذا العلم، أى المعنى الباطنى والمعنى الظاهرى للاشياء ٠

٣٠٥ ـ أى أن عمر الانسان فى أكثره يكون فارغا من ضرب التقوى الظاهر أو علم التقوى ، ويكون عطلا من أعمال الطاعات لله ، لما يشغله من

الأكل والشرب والنكاح والقعود والمشى ، وكل مستلزمات المعيشـــة والحياة ، وكلها لا علاقة لها بالطاعات والأوامر ٠

٣٠٦ ـ روى هذا الحديث البخارى الى جانب الترمذى ، راجع المعـــجم المفهرس ، جـ ١ ص ٤٦٥ ٠

٣٠٧ ـ سورة الأنفال ، الآية / ٢٩ ٠

٣٠٨ ـ سورة الأحزاب ، الآية / ٤١ ٠

٣٠٩ ـ فى الأصل (التقوا) وكأنها اشتقاق من الفعل (لقى) فى صيغة الجمع ، وطبعا لا علاقة لهذا بالسياق ٠

٣١٠ ـ فى الأصل (وهو) وذلك لا يتوافق مع كلمة (التقوى) المؤنثـــة، بدليل وصفه لها بأنها التقوى الظاهرة ، ولعل هذا فى مقـــابل التقوى الباطنة ٠

٣١١ ـ فى الأصل (يستفروا) ولعل الناسخ نسى حرف (الغين) أو لعلها أمليت له (بالقاف) من الاستقرار والكلمة على هذين النحوين لا تعطى معنى ما ٠

٣١٢ ـ فى الأصل (فيترايا) وهذه طريقة فى الكتابة شاعت فى كثير من مواضع المخطوط ٠

٣١٣ ـ فى الأصل (ممده) ولا معنى لها ٠

٣١٤ ـ فى الأصل (وستغفرت) هكذا بلا حرف (ألف) وبلا معنى ٠

٣١٥ ـ فى الأصل (ووافا) بدون حرف (الهاء) ٠

٣١٥ ـ (مكرر) [اذا] أضفناها ليسهل نطق العبارة وفهمها ، ولك أن تتخيل العبارة بدونها فستجدها مضطربة فى المبنى ، ولا معنى لها ٠

٣١٦ - [حال] أضفناها لتتسق مقارنة كلمة التقوى المؤنثة مع كلمتى الظاهر والباطن المذكرتين ، وربما لم يقصد الترمذى الى وصف التقوى ذاتها ، ولكنه أراد وصف مقام التقوى أو الحال التى يصل اليها قلب المؤمن الذى يشرق عليه النور الالهى ، بعد أن تستغفر الملائكة لعيوبه وذنوبه ، وبعد استجابة الله سبحانه لاستغفارهم وصلواتهم٠

٣١٧ - هنا جاء حرف الجر (على) بمعنى (مع) وذلك للتعبير عن أن الانسان التقى لا يعمل شيئا ما الا مع ذكره لله ، وهو على حال ذكره لله ، وتبعا للنية والقصد ،وليس عن غفلة أو سهوا واتفاقا ٠

٣١٨ - فى الأصل (ألحظه) وتعطى معنى ليس هو المطلوب ٠

٣١٩ - يقصد الترمذى الى الاشارة الى أن درجة التقوى الصادقة تصل بصاحبها فى ادراكه بقلبه الى مكانة يرى فيها الاشياء كلها معلولة وناتجة عن النور الالهى ، كما أنها تسعى اليه أيضا وتبتغيه ، وكان النور الالهى هو العلة الفاعلية والعلة الغائية فى آن واحد ومن جهة واحدة ٠

٣٢٠ - سورة يونس ، الآية / ٦٢ ٠

٣٢١ - سورة يونس ، الآية / ٦٣ (الذين آمنوا وكانوا يتقون وليس كما كتبها الناسخ مضيفا كلمة (بآياتنا) ٠

٣٢٢ - فى الأصل (فاطمئنت) وهى خطأ لغوى املائى ٠

٣٢٣ - فى الأصل (فكان) بالتذكير مع أنها اشارة الى كلمة (التقوى) المؤنثة ، الا اذا كان يقصد مقام التقوى ٠

٣٢٤ - كتب الناسخ هذه الآية على نحو غريب هو : (وما يكون فى شأن ، ولا يتلوا منه من قرآن ، ولا يعملوا من عمل الا كنا عليكم شهودا) وأصلحناها طبعا من سورة يونس الآية / ٦١ ٠

٣٢٥ ـ فى الأصل (وهو) بالتذكير ، وهذا خطأ ٠

٣٢٦ ـ سورة المائدة ، الآية / ٧ ٠

٣٢٧ ـ فى الأصل (فسادا أو خطاء) وهذا يخـــالف المألوف فى اللغـــة العـــربية ٠

٣٢٨ ـ لعل الترمذى يقصد بالمقرب السابق ، من قال تعالى فى حقهم : (السابقون السابقون أولئك المقربون ـ الواقعة / ١١) وهذه الفئة هى أعلى درجة من درجات المتقين بالقياس الى أصحاب الميمنة ، أى أصحاب اليمين ، وهذان النوعان يقالان فى مقابل أصحاب الشمال راجع درجة كلفئة وجزاءها وما وعدها الله تعالى بهفى سورة الواقعة كلها التى انفردت بوصف الدرجات الثلاث ٠

٣٢٩ ـ لم نشأ أن نخرج هذه الآيات القصيرة الخمس ، التى تتضمن الأوجه الخمسة للتقوى ، لأن منها الكثير الذى يتكرر فى أكثر من سورة من سور القرآن ٠

٣٣٠ ـ أصلحناها هكذا لأنها فى الأصل (فايتقى) ولا معنى لها ٠

٣٣١ ـ سورة الزمر ، الآية / ٣ ٠

٣٣٢ ـ فى الأصل (يزجـــوا) بصيغة الجمـــع وليس المفرد مما يخالف الســـياق ٠

٣٣٣ ـ فى الأصل (مشركوا) وهذا خطأ لغوى لأن كلمة اسم فى صيغة الجمع وليست فعلا فى حالة الجمع حتى يوضع حرف (الألف بعد الواو) ٠

٣٣٤ ـ أضفنا كلمة (الآية) لتحديد المقصود بالنزول فى العبارة ٠

٣٣٥ ـ سورة القمر ، الآية / ٤٧ ٠

٣٣٥ ـ مكرر ـ سورة القمر ، الآية / ٤٩ ٠

٣٣٦ ، ٣٣٧ ـ سورة يس ، الآية / ٤٧ ٠

٣٣٨ ، ٣٣٩ ـ سورة البقرة ، الآية / ٣٠ ٠

٣٤٠ ـ سورة ص ، الآية / ٦٩ ٠

٣٤١ ـ [تعالى] أضفناها لتحديد المصدر الذى تسبق منه الرحمة الى العبد ، خاصة بعد عرض تلك الحظوظ المختلفة والمتعددة للعباد من رحمة الله التى تسبق غضبه سبحانه وتعالى ٠

٣٤٢ ـ سورة الأعراف ، الآية / ٢٠١ ٠

٣٤٣ ـ سورة آل عمران ، الآية / ١٣٣ ٠

٣٤٤ ـ سورة آل عمران ، الآية / ١٣٥ ٠

٣٤٥ ـ سورة البقرة ، الآية / ١٥٥ ٠

٣٤٦ ـ فى الأصل (معين) مع أنها اسم (ان) ٠

٣٤٧ ـ [فى] أضفناها للتوضيح ، وبيان أن الرحمة الالهية العظمى ، التى تسبق غضبه ، تجب فى كل حال من أحوال العبد الصـــابر الذى يصلى الله عليه ٠

٣٤٨ ـ سورة الأحزاب ، الآيات / ٤١ : ٤٣ ٠

٣٤٩ ـ فى الأصل (وجب) مع أنها لابد وأن تتفق مع عبارة (أخرج) قلب المؤمن من الظلمات الى النور راجع العبارة فى النص ٠

٣٥٠ ـ سورة الحديد ، الآية / ٢١ ٠

٣٥١ ـ فى الأصل (شهوت) ولا معنى لها ، كما تبعد عن اللغة العربية الشائعة فى اشتقاقاتها ٠

٣٥٢ ـ فى الأصل (الاكثار) مع أن هذه الكلمة لا تتقابل مع الدرجة الثانية، وهى (الغفلة) ٠

٣٥٣ ـ فى الأصل (وتخلا) ولا معنى لها فى السياق ٠

٣٥٤ ـ [عليه] أضفناها لتحديد الموضوع الذى يوجه اليه الشك ويقع عليه الظن ٠

٣٥٦ ـ فى الأصل (وساة) ولا معنى لها فى سياقها ٠

٣٥٧ ـ رواه الدارمى وابن ماجه ، بالاضافة الى رواية الترمذى ، راجع المعجم المفهرس ، جـ ٤ ، ص ٣٣٠ ٠

٣٥٨ ـ فى الأصل (علم) والأصح ما أثبتناه اتفاقا مع السياق الخاص بما يروى عن عيسى عليه السلام ، ويلاحظ أن الترمذى ، أورد هذا الحديث من قبل على أنه مروى عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، راجع التعليق رقم ١٥١ ٠

٣٥٩ ـ رتبنا هذه العبارة على ذلك النحو ، لأنها فى المخطوط قد كتبت بطريقة مخالفة ، هكذا : (كأنه جعل عيسى عليه السلام العلم ٠٠) ونظن أن اعادة ترتيب العبارة التى أثبتناها أقرب الى اللغة والمعنى ٠

٣٦٠ ـ [اذ] أضفناها لتوضيح السبب الذى من أجله يشعر الترمذى الى أنه قد قال بهذه الأنواع الثلاثة من العلم ، ونحن نرى أن هذه الفقرة مضطربة ومتناقضة ، لأنه قد أشار فى النص وقبل بضعة سطور ، الى أن هذا التقسيم الثلاثى هو المروى عن عيسى عليه السلام ، ثم يعود فى موضع آخر ويذكر أن هذا التقسيم واحد عند سيدنا عيسى

وثلاثى عنده هو ، أى الترمذى ، ويضاف الى هذا التناقض ما سبق أن ذكره حول روايته الحديث عن نبينا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم ، راجع التعليقين : ٣٥١ ، ٣٥٨ من التعليقات السابقة ٠

٣٦١ ـ [هو] أضفناها لبيان أن العلم الذى أعطاه الله للخلق ، وهو العلم بتوحيده ، يفضى بهؤلاء الخلق الى القنوت ، ورفع هذا الحرف (الى) من النص لا يعطى المعنى المطلوب ٠

٣٦٢ ـ سورة الروم ، الآية / ٢٦ ٠

٣٦٣ ـ [هو] أضفناها للتوضيح ، ولسهولة نطق العبارة وفهم المراد منها وهو أن (القنوت) هو كذا وكذا ٠٠

٣٦٤ ـ فى الأصل (الركود) وهى على هذا النحو لا تشير الى بيـــان ما فى القنوت من سكون وخضوع واستسلام ، وذلك فى حق الانسان أقرب من كلمة ركود التى تستخدم فى حق الجمادات والمياه الراكدة ، ومن الممكن قراءة الكلمة (بالركون) لما فيها أيضا من الخضوع والاستسلام والتوكل والتفويض ٠

٣٦٥ ـ فى الأصل (ربا) وهى لا تستقيم مع الجملة التى وردت فيها ٠

٣٦٦ ـ (يتلوه الجزء الثانى) والترمذى يستخدم كلمة جزء هنا بمعنى أقرب الى باب أو فصل أو مبحث ثان ، خاصة وأنه فى أول المخطوط ولم يشر الى ما يمكنه تسميته بالجزء الأول فى مقابل هذا الجــزء الثانى ، ولعله أراد أن يبين لنا أن القسم الأول ، أو الموضوعات السابقة ، كانت تخص بصلاة الله على عباده : أى رحمته بهم ، وتعرفه لهم ليعرفوه ، وأن هذا يستلزم من العبد فعلا مردودا به ، وهو موضوعات القسم الثانى من المخطوط ، وهو ما يتصل بأحوال الصبر والشكر ، وسنلاحظ كيف أن هذين المقامين عند الصوفية يتلازمان وجودا وعدما ، كل منهما مع الآخر ٠ كما أنهما معا طريق الحصول على الرحمة الالهية ، والسبيل الموصل الى استمرارها وامدادنا بها منه تعالى ٠

٣٦٧ ـ وضعت البسملة بجانب عنوان الباب مباشرة ، ولكننا فضلنا وضعها هكذا على سبيل التنسيق ، ويلاحظ أنه لم يكرر كلمة (الجزء الثانى) ولكنه وضع كلمة (باب فى كذا ٠٠) ، مما يؤكد صحة تعليقنا رقم ٣٦٦ ٠

٣٦٨ ـ فى الأصل (ضريت) أصلحناها هكذا الى (أضرت) لأنها تعبر عن وقوع الضرر على الانسان بالابتلاء ٠

٣٧٠ ـ فى الأصل (الستعملك) ولا معنى لها ، ولعل هذه الكلمة تعود على كلمة الشكر وأنه باعتباره سرورا للقلب ، فانه يستعمل كل الانسان، وخير أن يشكر الانسان ربه شـــــكرا خالصا لوجهه من أن يشكره ويمدحه تعالى لسبب ما أو لهدف ما ، بأن يكون هذا الانسان مبتليا ابتلاء ما فى نفسه أو فى ماله أو فى ولده أو زرعه ٠٠ فيكون ممدوحا هو الآخر ٠ وكأن الشكر الحقيقى الذى قصد اليه الترمذى هو الذى لا يكون مرتبطا بما وقع أو اتقاء وترقبا لما يحتمل أن يقع ووقاية منـــــه ٠

٣٧١ ـ فى الأصل (شىء) والأصح ما أصلحناها اليه ٠

٣٧٢ ـ سورة النحل ، الآية / ١٢١ ٠

٣٧٣ ـ فى الأصل (سواهم) بالجمع ، علما بأن الترمذى يشير الى اثنين فقط هما سيدنا نوح وسيدنا ابراهيم عليهما السلام ، بل ان العبارة التالية فى النص تؤكد هذه الثنائية وتوضحها ٠

٣٧٤ ـ سورة الأنبياء ، الآية / ٨٥ ٠

٣٧٥ ـ فى الأصل (ظهر) مع أنها اشارة الى النار ، وهى مؤنثة ٠

٣٧٦ ـ فى الأصل (يرى) ولا معنى لها فى السياق الذى يشير الى اشتعال النار ، وذلك فى قوله تعالى : (أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم

أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ـ الواقعة / ٧١ ، ٧٢) ولا علاقة هنا بالنظر والرؤية ، ويوضح ذلك تكرار هذه الكلمة فى النص من بعد ذلك بالصورة الصحيحة (يورى) ٠

٣٧٧ ـ (ومن) وبصرف النظر عما اذا كانت بعض أحرف الجر تؤدى وظيفة كل منها الأخرى ، فان السياق يستلزم استخدام حرف (عن) لأنه أقوى فى التعبير عن المطلوب من حرف (من) كما فى النص ٠

٣٧٨ ـ اقتطع الترمذى كثيرا من آيات القرآن مستدلا بها على تأكيد فكرة ما، ودون التقيد بنص الآية ، وهذه كانت طريقة شائعة عنده ، مثال ذلك استخدامه لقوله تعالى : (أن أشكر لى ولوالديك الى المصير ـ لقمان / ١٤) ٠

٣٧٩ ـ سورة القلم ، الآية / ٤٨ ٠

٣٨٠ ـ سورة النحل ، الآية / ١٢٦ ٠

٣٨١ ـ [تعالى] أضفناها لتوضيح ما قصده الترمذى بكلمة (له) فى النص ، ولكى لا يكون الله سبحانه يخاطب بنفس الطريقة التى يخاطب بها الانسان ، دون تمييز بين كل منهما ، ودون تخصيص ٠

٣٨٢ ـ [مقترنا بالعمل] أضفناها للتمييز بين درجتين للشكر، أحدهما شكر لله فقط ، والأخرى شكر ملازم للعمل وناتج عنه ، أو مقارن له ، وهناك آيات قرآنية توضح هاتين الدرجتين ، اذ أن الله سبحانه أراد أن يبين لنا أن العمل شكر له تعالى ، وهكذا يمكننا أن نرى كيف أن درجة العالم العامل ، أى العابد العامل خير من درجة العابد الذى لا يعمل ، أى المتفرغ للعبادة وحدها ٠

٣٨٣ ، ٣٨٤ ـ سورة سبأ ، الآية / ١٣ ٠

٣٨٥ ـ [مما] أضفاها مزيدا للتوضيح وضبط العبارة ٠

٣٨٦ - فى الأصل (فبكا) وهى تخالف المألوف فى كتابة اللغة العـــربية أو نطقها ·

٣٨٧ - [لأجل] أضفناها لافادة التعليل ، وتبرير سبب طلب سيدنا ادريس عليه السلام البقاء ، ثم ان العبارة لا تستقيم قراءتها الا بعد اضافة هذه الكلمة أو ما يؤدى معناها ·

٣٨٨ - فى الأصل (للعملة) وهذه لا تتصل بالسياق بأى صورة ما ·

٣٨٩ - فى الأصل (كرا) ولا معنى لها ·

٣٩٠ - فى الأصل (استعماله) والكلمة تعـــود على الروح ، التى وان استخدمت أحيانا بالتذكير الا أن الترمذى أضاف وصفا مؤنثا اليها، وهو أنها (مكدرة) ولابد من اضطراد التأنيث مع كل الأوصـــاف والأفعال التى تتعلق بالاسم الموصوف ·

٣٩١ - بمعنى أن المؤمنين من العباد أقل عددا من الكافرين ، وفى الأصل كتبت العبارة : (قليل فى الكافرين) ولا يمكن أن تفهم الكلمـــة على هذا النحو ، اذ العلاقة بين الكافرين والمؤمنين علاقة انفصـــال تام وليست علاقة تضمن بأى صورة من الصور ·

٣٩٢ - فى الأصل (قليل من) وهى وان أعطت معن الأقلية بين الأتقياء بالقياس الى المؤمنين ، الا أنها لا تفيد علاقة التضمن أو الاشتمال التى تقع بين دائرتى المؤمنين ودائرة الاتقياء وهى دائرة صـغيرة تدخل كلها فى الدائرة الكبيرة وهى دائرة المؤمنين ·

٣٩٣ - (الأنبياء قليل فى الأولياء) واضح أن الترمذى فى حديثه عن قلة عدد أصحاب درجة ما بالقياس الى درجة أخرى ، بين أن الأنبياء والنبوة فى درجة أخص من درجة الأولياء والولاية ، وكذلك فعل فى تخصيص الرسل والرسالة عن الأنبياء والنبوة ، وهذا يبين أن الترمذى كان يتأرجح فى رأيه بصدد مكانة الولاية والأولياء ، بين جعلها أعلى وأخص من النبوة والرسالة أحيانا ، وجعلها أدنى وأعم منها فى حين آخر ·

٣٩٤ ـ سورة آل عمران ، الآية / ١٤٥ ٠

٣٩٥ ـ سورة الزمر ، الآية / ١٠ ٠

٣٩٦ ـ فى الأصل (من شدة نفسه) وأصلحناها بما يتفق والسياق ، وهكذا فان عدم دقة الناسخ فى كثير من المواضع جعلتنا نسمح لأنفسنا بالتصرف فى حدود معينة ، وان لم نحاول أبدا الخروج على المطلوب فى سياق النص ٠

٣٩٧ ـ فى الأصل (فتثب) ولا علاقة لها بالسياق ٠

٣٩٨ ـ فى الأصل (من) والأصح أن يكون العوض عوضا عن كذا وليس من كذا ٠

٣٩٩ ـ [وجزاء الشاكر] أضفناها للتمييز بين جزاء الشاكر بالتواضع ، والشاكر بالتكرم ، خاصة وأن الفقرة السابقة عليها فى النص توضح ذلك ٠

٤٠٠ ـ فى الأصل (لم) وهى لا تعطى المعنى المطلوب ٠

٤٠١ ـ [هذا] أضفناها توضيحا لمعنى الكلمة ، واتساقا مع كلمة (ذلك) التى أتت فى النص من بعد ، لتشير الى الصنف الثانى من الكلمة ٠

٤٠٢ ـ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ـ البقرة / ١٥٣ ، ولقد وردت هذه الآية بعد آية أخرى فيها الحض على الذكر ، حيث يرتبط بذكرنا له تعالى ذكره لنا ، فيقول عز وجل : (فاذكرونى أذكركم وأشكروا لى ولا تكفرون ـ البقرة / ١٥٢) ٠

٤٠٣ ـ هذا الحديث يذكر عنه الامام الشوكانى أن العقيلى قد ضعفه وقال : (ليس فى شىء من كتب الحـــديث) راجع للامام الشوكانى + ١٢٥٠ هـ) كتاب الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضــوعة ، باب النكاح ص ١٢٥ ٠

٤٠٤ ـ واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ـ سورة ابراهيم ، الآية / ٧ ٠
٤٠٥ ـ سورة الزمر ، الآية / ١٠ ٠

٤٠٦ ـ فى الأصل (وزدادة) ولا معنى لها فأصلحناها الى (ازدادت) ٠

٤٠٧ ـ فى الأصل (مثل ما) وهى طريقة شائعة فى الكتابة فى كثير من مواضع المخطوط ٠

٤٠٨ ـ فى الأصل (واسارتى) ولا معنى لها فأصلحناها الى (آثرنى) ٠

٤٠٩ ـ فى الأصل (هديته) من الهداية ، ونعتقد أن الترمذى قد قصد الاهداء لا الهداية ، لأن الله وحده هو الذى يهدى ، أما الاهداء فمن صنع البشر ، كما أن سياق النص يشير الى ذلك حيث يقول : (أكرمته وأغنيته وجزلت عطيته ٠٠)

٤١٠ ـ فى الأصل (هذا) وأصلحناها لتتفق مع الكلمات المؤنثة التى تشير اليها ، وهى (صفة) ، (القربة) ٠

٤١١ ـ فى الأصل (ربه) وأصلحناها لأنها تعود على النفس وليس على صاحبها ، وذلك واضح فيما أورده الترمذى من بعد عن الصابر الذى يقع نفسهفتذل وتنقاد لربها ٠

٤١٢ ـ فى الأصل كتبت منفصلة (فها هنا) ٠

٤١٣ ـ فى الأصل (مثقال) مع أن الكلمة مفعولا للالقاء ٠

٤١٤ ـ فى الأصل (فيثب) ولا معنى لها يتفق مع السياق ٠

٤١٥ ـ فى الأصل (اقتضاء) ولا تتسق مع العبارة ٠

٤١٦ ـ فى الأصل (الذى) مع أنها تعود على كلمة (الأحوال) وهى جمع ٠

٤١٧ ـ فى الأصل (فيه) مع أنها تعود على كلمة الأحوال أيضا ، وهى جمع ٠
٤١٨ ـ [فهو أن] أضفناها لزيادة الايضاح ٠

٤١٩ - فى الأصل (يومئذا) ولا تساير السياق لغويا ٠

٤٢٠ - [مؤمنا] أضفناها لاكتمال الجملة وتوضيح المعنى ٠

٤٢١ - فى الأصل (لاقا) وهى من الأخطاء الكتابية الشائعة ٠

٤٢٢ - فى الأصل (فهذا) مع أنها اشارة الى كلمة (صفة) المؤنثة ٠

٤٢٣ - فى الأصل (كان) ولا يحتاج اليها السياق هكذا ٠

٤٢٤ - فى الأصل (الحياة) ولا علاقة لها بالسياق ٠

٤٢٥ - سورة ابراهيم ، الآية / ٥ ٠

٤٢٦ - فى الأصل (تفصل) ولعل ما أثبتناه يتفق مع السياق والمعنى ٠

٤٢٧ - سورة طه ، الآية / ٥٠ ٠

٤٢٨ - فى الأصل (حدود) مع أن استقامة العبارة لا تتوافر الا باضافة أداة التعـــريف ٠

٤٢٩ - فى الأصل (أبصر) مع أن الفعل يعود على كلمة مؤنثة هى (العين)

٤٣٠ - فى الأصل (ذلك) مع أنها اشارة الى كلمة (الصورة) المؤنثة ٠

٤٣١ - فى الأصل (لظة) ولا معنى لها هنا ٠

٤٣٢ - فى الأصل (عين) بالمفرد ، مع أن الفعل المقارن لها فى النص هــو (أبصرتا) المثنى ٠

٤٣٣ - فى الأصل (الذى) مع أنها تعود على أهل الخشية ، وهى كلمة جمع٠

٤٣٤ - سورة فاطر ، الآية / ٢٨ ٠

٤٣٥ - سبق أن أورد الترمذى هذا الحديث فى موضع آخر من المخطـــوط

ولم نجد رواية له الا عند الترمذى وحده ، راجع المعجم المفهـــرس لألفاظ الحديث جـ ٤ ص ٣٢٦ ، وقارن هامش رقم ١٦٨ ٠

٤٣٦ ـ فى الأصل (عماد) ٠

٤٣٧ ـ سورة الروم ، الآية / ٣٢ ٠

٤٣٨ ـ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، فلا خوف عليهم ولا هـــم يحزنون ـ الأحقاف / ١٣ ٠

٤٣٩ ـ فى الأصل (آلاؤه) مع أنها اسم (لأن) السابقة فى النص هى وصفات المحبوب ولطفه وأخلاقه ٠

٤٤٠ ـ فى الأصل (تعظيم) ولعل الصواب ما أثبتناه ٠

٤٤١ ـ لعل الترمذى يقصد فاذا حدث ووجد الحب فى القلب وجد ٠٠٠

٤٤٢ ـ [تعالى] أضفناها لتوضيح من هو الذى يجرى الى الناس من كل اسم حوائجهم ، كما فى النص ٠

٤٤٣ ـ سورة : المنافقون ، الآية / ٨ ٠

٤٤٤ ـ فى الأصل (أعدهم) ولا معنى لها ، لأن السياق أقرب الى الاعزاز والاجـــلال ٠

٤٤٥ ـ فى الأصل اتبع الناسخ هذه الكلمة بكلمة اليهم ، ولا محل لها ، اذ لا يحتاجها نص الكلام ٠

٤٤٦ ـ فى الأصل (يقولون) وهى لا تتسق مع قول الترمذى : (ومخاصم يخاصم فى أحكام الله) ٠

٤٤٧ ـ فى الأصل كتب الناسخ هذه الكلمة بطريقة غريبة لا تعطى أى معنى، هكذا (فيما ولا) ٠

٤٤٨ ـ رواه ابن حنبل ، بالاضافة الى الترمذى ، المعجم المفهرس ج ٣ ص ١٢٩ ٠

٤٤٩ ـ لم نجد لهذا الحديث رواية أخرى فى المعجم المفهرس لألفاظ الحديث

٤٥٠ ـ فى الأصل (فسقط) مع أنها اشارة الى الكلمة المؤنثة (درجة) ٠

٤٥١ ـ لم نجد لهذا الحديث رواية أخرى فى المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبـــوى ٠

٤٥٢ ـ فى الأصل (جاء) والأصح (قال) لأن جاء لم يتبعها حرف الجر (عن) ٠

٤٥٣ ـ ورد هذا الحديث بصيغة مختلفة الى حد ما ، مثل قول البخـــارى ومسلم : (لو يعلمون ما فى الصف المقدم) وقول ابن ماجه وابن حنبل والترمذى : (لو أن الناس يعلمون ما فى النداء والصف الأول) راجع المعجم المفهرس ج ٤ ، ص ٣٢٠ ٠

٤٥٤ ـ لعل المقصود أن من يقف خلف الامام بالضبط ، وكأنه واقف فى مكان خياله وظله ، ربما يحصل على نفس درجة الامام من الرحمة من الله تعالى التى هى صلاته على عبيده ، ويحصل على الاستغفار من الملائكة ، وهو صلاتهم على عباد الله المصلين ٠

٤٥٥ ـ [الصف] أضفناها لتوضيح أن المقصود هى منتهى الصف الأول للمصلين ، وليس منتهى الصلاة فى الصفوف كلها من جهة اليمين ٠

٤٥٦ ـ فى الأصل (خمسون) مع أنها مفعول الفعل أخذ ، وذلك فى قول الترمذى : (يأخذ من على يسار الامام ٠٠٠)

٤٥٦ م ـ ورد هذا الحديث بصيغة مختلفة الى حد ما ، هى كما ذكرها البخارى ومسلم وابن ماجه بالاضافة الى الترمذى أن الله جعل الرحمة مائة جزء ٠٠ راجع المعجم المفهرس ج ٢ ، ص ٢٤٠ ٠

٤٥٧ ـ فى الأصل (عنه) مع أن أى حديث يروى عن ابن عباس ، يجب أن يتبعه القول (رضى الله عنهما) أى عن سيدنا عباس وعن ابنه عبد الله وشبيه بهذا أيضا الأحاديث المروية عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ٠

٤٥٨ ـ [المسجد] أضفناها لتحديد جهة الدخول ومقصده ٠

٤٥٩ ـ فى الأصل (لوجدت مكان) والصحيح ما أثبتناه لأن العبارة تتضمن جواب شرط هو (لدخلت) وهذا يؤكد ضرورة وجود أداة شرط هى (لو) ، كما أن المكان مفعول للايجاد فى الجملة (لو وجدت) ولا يجب رفعه ٠

٤٦٠ ـ فى الأصل (أحد) مع أنها مفعول فعل (يزاحم) ٠

٤٦١ ـ لم نعثر على أى رواية لهذا الحديث ، فى المعجم المفهرس ، ولعله من الأحاديث الموضوعة ، أو لعله أضيف للحض على المسلك الحسن تجاه الآخـــرين ٠

٤٦٢ ـ فى الأصل (من) والأصح ما أثبتناه ٠

٤٦٣ ـ ورد هذا الحديث فى المعجم المفهرس بصيغة أخرى ، ذكرها البخارى والنسائى وابن حنبل ، وهى : (لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه لله) راجع المعجم جـ ٢ ص ٥١٦ ، ٥١٨ ٠

٤٦٤ ـ فى الأصل (فللمتقون) ولا تحتاج الى تعليق !! ٠

٤٦٥ ـ فى الأصل (دأب) مع أنها اشارة الى قدمى المتقى ٠

٤٦٦ ـ فى الأصل (تبرك) !!

٤٦٧ ـ لم نجد رواية أخرى لهذا الحديث فى المعجم المفهرس ، وكان الترمذى وحده هو مصدر روايته ٠

٤٦٨ ـ [الله تعالى] أضفناها لتوضيح فاعل الارسال ، وصاحب السلطان٠

٤٦٩ ـ فى الأصل (حبسها) والحبس ليس له صوت ، أما حسيس النار فهو صوتها وهى تأكل الأشياء ٠ وذلك فى قوله تعالى : (لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ـ الأنبياء / ١٠٢) ٠

٤٧٠ ـ [حدثنا] أضفناها لأنها ضرورية فى مجرى رواية الحديث ، ولعلها سقطت من الناسخ ٠

٤٧١ ـ (الورود) لعل المقصود هنا تفسير قوله تعالى عن النار : (وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا) ، ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ـ مريم / ٧١ ، ٧٢) ٠

٤٧٢ ـ فى الأصل (برا) مع أن المقصود هو الفرد البار أو الفاجر وليس البر أو الفجور ذاتيهما ٠

٤٧٣ ـ [عليه السلام] أضفناها احتراما وتعظيما لمقام أبى الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعا السلام ٠

٤٧٤ ـ رواه ابن حنبل وابن ماجه ـ راجع المعجم حـ ٥ ص ٧٢ بالاضافة الى رواية الترمذى له ٠

٤٧٥ ـ سورة مريم / ٧٢ ٠

٤٧٦ ـ لم نعثر على رواية واحدة لهذه الحديث الذى انفرد الترمذى بذكره٠

٤٧٧ ـ أى أخطاء صغيرة ، وفى الأصل كتبها الناسخ (هبأة) ولا علاقة لها بالسياق ٠

٤٧٨ ـ فى الأصل (شره) وهى عكس المراد التعبير عنه تماماً ٠

٤٧٩ ـ فى الأصل (وقد هناك) ولقد فضلنا حذف (قد) بدلا من أن نضيف

(يوجد) بحيث تصير العبارة (وقد يوجد هناك تخليط وتفريط ٠٠ الخ ، فأحيانا ما كنا نفضل الحذف على الاضافة والمسألة متوقفة على صيغة العبارة المكتوبة حينئذ ٠

٤٨٠ _ راجع التعليق السابق رقم ٤٧٧ ٠

٤٨١ _ راجع التعليق السابق رقم ٤٥٧ ٠

٤٨٢ _ فى الأصل (واستعاذه) وتلك أيضا من الأخطاء الشائعة ٠

٤٨٣ ، ٤٨٤ _ روى هذين الحديثين ابن حنبل الى جانب رواية الترمذى لهما ، راجع المعجم المفهرس ، **ج ٢ ص ٢٣٧** ٠

٤٨٥ _ [هى] أضفناها لتوضيح العلاقة بين كلمة (أسباب) التى وردت مكررة مرتين متتاليتين فى النص ٠

٤٨٦ _ فى الأصل (يتواخون) ولعل ما أثبتناه أقرب للمعنى المراد ، وقد يكون الترمذى أرادها من المؤاخاة والتآخى ، ولكن كتابتها على تلك الصورة لا تصح ٠

٤٨٧ _ رواه ابن حنبل وأبو داود ، بالاضافة الى رواية الترمذى ، راجع المعجم ج ٢ ص ٢٣٨ ٠

٤٨٩ _ [فانظر] أضفناها للتوضيح ، واتساقا مع العبارة التالية فى النص، راجع ذلك ٠

٤٩٠ _ [أردت] أضفناها لتوضيح النص والعبارة ، ولو حاولنا تخيل العبارة بدونها لما وجدنا لها معنى ما ٠

٤٩١ _ فى الأصل (رداه) وهى وان أعطت ما يقترب من المعنى الا أنها مكتوبة خطأ من الناحية الاملائية ٠

٤٩٢ ـ فى الأصل (منها) مع أنها اشارة الى عبارة الترمذى (القميص الالهى) وهو مذكر ٠

٤٩٣ ـ [من] أضفناها ليستقيم نطق العبارة ، ويتضح المعنى ٠

٤٩٤ ـ مزج الترمذى بين آيتين من سورتين مختلفتين ، وتلك طريقته فى استخدام الآيات ، كما قلنا من قبل ، وهو هنا مزج بين قوله تعالى : (وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر ـ القمر / ٥٠) وقوله عـــز وجل : (وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ـ النحل / ٧٧) راجع ما كتبه هو حول هذه الفقرة فى النص ٠

٤٩٥ ـ فى الأصل مكرره (هو هو) ولا ندرى ما اذا كان التكرار هنا غير مقصود أم أنه بقصد التأكيد ٠

٤٩٦ ـ سورة الصافات ، الآية / ١٩ ٠

٤٩٧ ـ فى الأصل (الخمس) بالتذكير ، علما بأنها جمع لكلمة (اسم) ولابد أن يتعاكس العدد والمعدود ٠

ولعل الترمذى قصد بالأسماء الخمسة هنا ، ما سبق أن أشـــار اليها فى النص وهى : الرب ـ الله ـ الرحم ـ النار ـ اليوم ، ولعله يقصد هنا اليوم الآخر الذى يستحق فيه المتقون رحمة ربهم ويحصلون فيه على عتقهم من ناره تعالى ، اذا كانوا من واصلى الأرحام ، وبالتالى من المقربين ٠

٤٨٩ ـ بالرغم من أن الترمذى قد تحدث عن الشكر من قبل حين جمع بينه وبين الصبر فى باب واحد ، الا أنه يعود هنا ويفرد له مع الحمد مبحثا مستقلا ، ولعله أراده بيانا تفصيليا وتوضيحيا عن مقـــام الشـــكر ٠

٤٩٩ ـ سورة التين ، الآية / ٤ ٠

٥٠٠ ـ سورة الانفطار ، الآية / ٧ ٠

٥٠١ ـ فى الأصل (التقوم) والأصح ما أثبتناه لغة واشتقاقا فى التعبير عن المعنى المطلوب ، اذ أن التقوم من الحكمة والاعتدال ، وذلك فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ـ سورة النساء / ١٣٥) وقوله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ـ سورة المائدة / ٨) أما المقصود من خلال سياق النص فهو التقويم ، أى حسن الصورة والمنظر والتسوية وجمال الصنعة واتقانها ٠

٥٠٢ ـ سورة الانفطار ، الآية / ٨ ٠

٥٠٣ ـ فى الأصل (حامد) مع أنها خبر (كان) فى الأصل ٠

٥٠٤ ـ فى الأصل (هاذتين) وهو نحت غريب عن اللغة العربية ، ولا معنى له ٠

٥٠٥ ـ فى الأصل (ثما) هكذا !!

٥٠٦ ـ فى الأصل (هنوات) بالنون ، والأصح ما أثبتناه لأنها جمع (هنه) اللهم الا اذا كان الترمذى قصد (هفوات) بالفاء ، جمع هفوة ، ولكننا نشك فى استخدام هذه الكلمة التى لم يسبق استخدامه لها فى النص ، وفى كل الأحوال فان معنى الهفوة ومعنى الهنة لا يختلفان

٥٠٧ ـ فى الأصل (أغواه) والأصح ما أثبتناه اتفاقا مع السياق ٠

٥٠٨ ـ سورة الأنفال ، الآية / ٥٣ ٠

٥٠٩ ـ فى الأصل (النسج) ولا معنى لها ، فضلا عن أنها لا علاقة لها بالسياق ٠

٥١٠ ـ فى الأصل (ثلاث) والأصح ما أثبتناه باعتبار أن العدد لابد وأن يكون مخالفا للمعدود ٠

٥١١ ـ فى الأصل (فيبهوا) وهى خطأ ٠

٥١٢ ـ فى الأصل (لأجزاء) بدون حرف (الألف) مع أن السياق يلزمها ٠

٥١٣ ـ [تعالى] أضفناها لتوضيح أن القول هنا لله سبحانه وليس لقائل غيره ٠

٥١٤ ـ فى الأصل (وذهبت) مع أنها اشارة الى كلمة مذكرة هى (الغشاء)

٥١٥ ـ [من] أضفناها للتوضيح ، ولتستقيم العبارة فى المبنى والمعنى ٠

٥١٦ ـ فى الأصل (تجزى) ولا تعطى المعنى المطلوب ٠

٥١٧ ـ وردت هذه الآية فى موضعين أحدهما قول الله تعالى : (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الانسان لظلوم كفار ـ سورة ابراهيم / ٣٤) والموضع الآخر قوله عز وجل (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم ـ النحل / ١٨) ٠

٥١٨ ـ [عن] أضفناها للتوضيح ٠

٥١٩ ـ [فى فضل التسبيح والاستغفار] وضعنا هذا العنوان من عندنا ، بعد تأمل فى محتوى الباب ٠

٥٢٠ ـ فى الأصل (ما يرام) ولا معنى لها فى السياق ٠

٥٢١ ـ فى الأصل (دائنا) وهى لا تتفق مع المعنى المطلوب ٠

٥٢٢ ـ فى الأصل (وديوانا طويلا) ولا علاقة لها بالسياق ٠

٥٢٣ ـ فى الأصل (وتحتمى) ولا معنى لها ٠

٥٢٤ ـ فى الأصل (الديوان) ولا معنى لها ، كما سبق فى التعليق السابق رقم ٥٢٢ ٠

٥٢٥ ـ فى الأصل (طريقا) مع أنها اسم مبتدأ لفعل (ليس) ٠

٥٢٦ ـ فى الأصل (اليها) ولا تتفق مع سياق العبارة ٠

٥٢٧ ـ فى الأصل (طريقا) مع أنها مبتدأ للفعل (كان) راجع تعليق ٥٢٥٠

٥٢٨ ـ فى الأصل (الطراة) ولا معنى لها ٠

٥٢٩ ـ سورة المائدة ، الآية / ٢٧ ٠

٥٣٠ ـ سورة الشورى ، الآية / ٢٣ ٠

٥٣١ ـ فى الأصل (لأعمالهم) واللام هنا لا داعى لها ٠

٥٣٢ ـ فى الأصل (الرقة) ولا علاقة لها بالسياق ٠

٥٣٣ ـ فى الأصل (الذكرين) ولا تصلح للسياق ٠

٥٣٤ ـ فى الأصل (وثلاثة مساؤهم) ولا معنى لها ٠

٥٣٥ ـ سورة الكهف ، الآية / ٢٤ ٠

٥٣٦ ـ فى الأصل (حرمت) مع أن الكلمة فى السياق وليست فعلا ٠

٥٣٧ ـ فى الأصل (فاطمأنت) مع أن السياق كله بصيغة المخاطب المفرد٠

٥٣٨ ـ فى الأصل (العبد) مع أن سياق الحديث بعد ذلك فى النص بصيغة الجمع لا المفرد ٠

٥٣٩ ـ سورة الأنبياء ، الآية / ١٠١ ٠

٥٤٠ ـ سورة الأنبياء ، الآية / ١٠٢ ٠

٥٤١ ـ ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم ـ الحجرات / ٧ ، ولقد كتب الناسخ الكلمة الأخيرة (قلوبهم) · وهذه من الأخطاء الكبيرة التى وقع فيها الناسخ ·

٥٤٢ ـ فى الأصل (عرفه) ولا تتفق مع العبارة ·

٥٤٣ ـ في الأصل (أهل) ولعل ما أثبتناه هو الأصح ·

٥٤٤ ـ فى الأصل (بعير) ولعل الأصح ما أثبتناه ·

٥٤٥ ـ فى الأصل (اختصم) ولا علاقة لها بالسياق ·

٥٤٦ ـ فى الأصل (الذى) مع أن السياق لا يتفق مع صورتها هذه ·

٥٤٧ ـ [من اختص] أضفناها حتى تتضح العبارة ويكتمل معناها ·

٥٤٨ ـ فى الأصل كتبت فى صيغة الجمع هـــكذا (يسموا) مع أن الكلمة وردت للتعبير عن سمو القلب وعلو شأنه ، (سما ، يسمو ، سموا)·

٥٤٩ ـ فى الأصل (لأتينا) ولا تتفق هكذا مع السياق ·

٥٥٠ ـ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم ـ آل عمران / ٣١ ·

٥٥١ ـ سورة الصف / الآية / ٤ ·

٥٥٢ـ فى الأصل (وفا) والأصح ما أثبتناه ·

٥٥٣ ـ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ـ ســـــورة الصف ، الآية / ٢ ·

٥٥٤ ـ سورة آل عمران ، الآية / ٣١ ·

٥٥٥ - فى الأصل (المحببين) ، ولعل الأصح ما أثبتناه ، ويمكن أن تكون (المحببين) بالباء الواحدة ٠

٥٥٦ - [الله تعالى] أضفناها لتوضيح هدف الوصول الذى يقصده السالكون ، وأن المتحدث هو الله سبحانه ٠

٥٥٧ - الخصال الأربع هى البر والتقوى والتواضع لله وذل النفس ، وبتوافر هذه الخصال تتحقق العبودة الحقة من الانسان الصادق فى عبادته والذى يقتدى بسيرة رسولنا صلى الله عليه وسلم ٠

٥٥٨ - كان فراغنا من نسخ هذا المخطوط للمرة الأولى فى يوم الأربعاء وهو الأول من ابريل سنة ١٩٦٤ م بدار الكتب المصرية ، ثم تركنا تحقيقه ودراسته والتعليق الى أن تنضج معرفتنا بالتصوف ، والى أن تتناسب الظروف لاخراجه فى الصورة المناسبة له ولقيمته الفكرية فى مجاله ، وبالصورة التى نرضاها نحن عن أنفسنا فى تقديم عمل مثل هذا العمل الذى نقدر قيمته كل التقدير ، ونحن نقصد قيمة النص ، أما قيمة عملنا نحن المتعلقة به ، من تقديم ودراسة وتبويب وحواش وتعليقات فان هذا كله متروك لمحكمة الفكر ٠

٥٥٩ - وضعنا هذا العنوان من عندنا ، لهذه الرسالة التى تقع فى حوالى أربع صفحات من صفحات المخطوط أضافها الترمذى ، أو الناسخ ، أو لعله صاحب المجموع الذى اشتمل على مخطوط علم الأولياء ضمن ما اشتمل ليه من نصوص أخرى ، ونظرا لاتصال موضوع الرسالة هذه بموضوع كتاب علم الأولياء ، ألحقناها أيضا فى التحقيق والنشر والتعليق لما لها من فوائد كثيرة ، منها أن الترمذى يعرض لشرح قول لا اله الا الله ، وفرق بين أهل هذا القول وبين قائليها بأسلوب فلسفى عقائدى عميق ودقيق ٠

ونحن نرى أن هذه الرسالة الصغيرة تلقى كثيرا من الضوء على ما قد يبقى من غموض فى مسألة التوحيد وفكرة الواحد الأحد، ومفهوم التنزيه ، كما أننا نرى أنها أقرب الى روح الحكمة الدينية، أو علم الكلام منها الى مجال التصوف الذوقى الخالص ٠

٥٦٠ ـ فى الأصل (رد) والأصح ما أثبتناه ٠

٥٦١ ـ النساء ، الآية / ١٤٥ ٠

٥٦٢ ـ سورة النساء ، الآية ١٤٦ ٠

٥٦٣ ـ سورة النساء ، الآية / ٩٦ ٠

٥٦٤ ، ٥٦٥ ـ [الترمذى] أضفناها من عندنا لتوضيح المخاطب ، لأن الكلام هنا رواية عن طريق الناسخ للرسالة ٠

٥٦٦ ـ هذا تعبير شيعى من الترمذى ، وان كنا نشك فى كونه باطنيا أو من الحشوية ، راجع تعليقنا السابق (★) فى الصفحة الأولى من الحواشى والتعليقات ٠

٥٦٧ ـ فى الأصل (فهو) مع أنها اشارة الى اللفظة المؤنثة (كلمة) ٠

٥٦٨ ـ فى الأصل (هؤلاء) مع أنها اشارة الى اللفظة المؤنثة (كلمة) ٠

٥٦٨ ـ فى الأصل (هؤلاء) مع أن الأصنام غير حية ولا عاقلة حتى يشار اليها بهذه الكلمة ٠

٥٧٠ ـ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله ـ العنكبوت / ٦١ ، والناسخ لم يورد جزءا من وسط الآية وهو (وسخر الشمس والقمر) ، وتلك أيضا من أخطائه الكبيرة ٠

٥٧١ ـ فى الأصل (بالا) مع أنها أداة استثناء وليست أداة للنفى كما يتطلب السياق ٠

٥٧٢ ـ (ليس ٠٠٠ لا) تفرقة طريفة ودقيقة من الترمذى بين ما تفيده كل كلمة من هاتين الكلمتين ، تتشابه مع فلسفة السلب والنفى الحديث والمعاصر ، كما تقترب المعتزلة بين العدم المطلق وبين المعدوم

الذى هو مرحلة من مراحل الوجود ، وهو ما يدخل عندنا تحت ما نسميه بالعدم الوجودى ٠

٥٧٣ ـ فى الأصل (بريته) ولا تصح مع السياق ٠

٥٧٤ ـ فى الأصل (شبهه) ولعل الأصح ما أثبتناه ٠

٥٧٥ ـ [وعلى] أضفناها لتستقيم العبارة فىَ المعنى والمبنى ٠

٥٧٦ ـ فى الأصل (فرس) مع أنها مفعول ٠

٥٧٧ ـ [أى الترمذى] اضافة وتحديد مصدر القيل والقال ٠

٥٧٨ ـ راجع التعليق رقم ٥٧٦ ٠

٥٧٩ ـ فى الأصل (كلام) مع أنها مفعول كسابقتها ٠

٥٨٠ ـ [اذ] أضفناها لضبط العبارة وابراز المعنى المراد التعبير عنه ٠

٥٨١ ـ فى الأصل (فرس) (راجع تعليق ٥٧٨) ٠

٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ـ فى الأصل (حمار) مع أنها مفعول ٠

٥٨٥ ـ فى الأصل (دينار) والأصح ما أثبتناه ٠

٥٨٦ ـ في الأصل (فلس) مع أنها مفعول مثل الكلمات السابقة ٠

مراجع الکتاب

مراجع الدراسة ومصـــادرها

أولا : المصـــادر

١ ـ **القرآن الكريم**
ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (محمد فؤاد عبد الباقى)
ـ تفصيل آيات القرآن (جول لابوم) ٠

٢ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف (فنسنك وآخرون)**
ـ ليدن من سنة ١٩٣٦ الى ١٩٦٥ ٠

٣ ـ **تحصيل نظائر القــرآن**
ـ دار الكتب المصرية رقم ٣٢٨٢ ج (مخطوط)

٤ ـ **أبواب فى صفة العـــلم**
ـ مكتبة معهد المخطوطات العربية رقم ١٠٤ (مخطوط)

٥ ـ **بيـان الكسب**
ـ مكتبة معهد المخطوطات العربية رقم ١٠٤ (مخطوط)

٦ ـ **اثبـــات العلل**
ـ مكتبة ولى الدين مخطوط رقم ٧٧٠

٧ ـ **جوانب كتاب من الرى**
ـ مكتبة معهد المخطوطات العربية ، ضمن المخطوط السابق رقم ١٠٤

٨ ـ **شفاء العلل**
ـ ضمن المخطوط السابق رقم ٧٧٠ (ولى الدين)

٩ ـ **العــلل**
ـ دار الكتب المصرية رقم ١٢٥ ٠

١٠ ـ **علل العبـادات**
ـ ضمن المخطوط السابق رقم ٧٧٠ (ولى الدين)

١١ ـ علـم الأولياء

ـ دار الكتب المصرية ، مجاميع طلعت ٦٩٤ تصوف (وهو موضوع التحقيق والتقديم والدراسة والتعليق)

١٢ ـ غرس العـــارفين

ـ مكتبـة معهـد المخطوطات العـربية ، ضمن المخطوط الســابق رقـم ١٥٤ ٠

١٣ ـ غـــور الأمور

ـ مكتبـة معهـد المخطوطات العـربية ، ضمن المخطوط الســابق رقـم ١٥٤ ٠

١٤ ـ الفروق ومنع الترادف

ـ مكتبـة معهـد المخطوطات العـربية ، ضمن المخطوط الســابق رقـم ١٥٤ ٠

١٥ ـ فى خلق هذا الآدمى

ـ ضمن مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٧٧٠ (ولى الدين) ٠

١٦ ـ فى كيفية خلق الانسان

ـ ضمن مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٧٧٠ (ولى الدين) ٠

١٧ ـ الأكياس والمغترون

ـ ضمن المخطوط السابق رقم ١٠٤ (مكتبة معهد المخطوطات العربية)

١٨ ـ مسألة فى الايمان والاحسان والاسلام

ـ ضمن المخطوط السابق رقم ٧٧٠ (ولى الدين) ٠

١٩ ـ المسائل المكنونة

ـ دار الكتب المصرية مخطوط رقم ٣٢٨٢ ج ٠

٢٠ ـ مكر النفس

ـ دار الكتب المصرية مخطوط رقم ٣٢٨٢ ج ٠

٢١ ـ **منـــازل القربة**
ـ ضمن المخطوط السابق رقم ٧٧٠ (ولى الدين) ٠

٢٢ ـ **أنواع العـلوم**
ـ ضمن المخطوط السابق رقم ٧٧٠ (ولى الدين) ٠

ثانيا : المطبوعات (المراجع)

١ ـ **بدء شأن أبى عبد الله**
ـ نشرة الدكتور عثمان يحيى فى مقدمته لكتاب ختم الأولياء ٠

٢ ـ **بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب**
ـ نشرة نقولا هير ، القاهرة سنة ١٩٥٨

٣ ـ **ختم الأولياء**
ـ نشرة وتحقيق د٠ عثمان يحيى مع ملاحق فى نظـــرية الولاية ، بيروت سنة ١٩٦٥ ٠

٤ ـ **الرياضة وأدب النفس**
ـ تحقيق آربرى والدكتور على حسن عبد القادر ـ القاهرة سنة ١٩٤٧

٥ ـ **الصلاة ومقاصدها**
ـ تحقيق حسنى زيدان ، القاهرة سنة ١٩٦٥ ٠

٦ ـ **معـــرفة الأسرار**
ـ تحقيق د٠ محمد ابراهيم الجيوشى ، القاهرة سنة ١٩٧٧ ٠

٧ ـ **منازل القاصدين الى الله**
ـ تحقيق د٠ محمد ابراهيم الجيوشى ـ القاهرة سنة ١٩٧٧ ـ ٨ ـ نوادر الأصول ، استانبول سنة ١٢٩٣ هـ

وكل هذه الكتب المطبوعةخاصة بالحكيم الترمذى نشرها المحققون مع مقدمات طيبة فى الفترة بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٧٧ ٠

ثالثـــا :

أما عن المراجع العامة فى التصوف والصوفية وسيرتهم وترجماتهم فقد اعتمدنا على كثير من المصنفات منها :

١ ـ ابن عطاء الله السكندرى ، وتصوفه ، الدكتور أبو الوفاء التفتازانى ، مصر سنة ١٩٥٨ ٠

٢ ـ تأويل مختلف الحديث ، لابن قتيبه + ٢٧٦ هـ ، نشرة محمد زهدى النجار ، مصر سنة ١٩٦٦ ٠

٣ ـ تذكرة الحفاظ ، للذهبى + ٧٤٨ هـ ، حيدر أباد سنة ١٣٣٤ هـ ٠

٤ ـ التصوف الثورة الروحية سى الاسلام ، الدكتور أبو العلاء عفيفى ، مصر سنة ١٩٦٣ ٠

٥ ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ، الكلاباذى + ٣٨٠ هـ ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه سرور ، مصر سنة ١٩٦٠ ٠

٦ ـ تلبيس ابليس لابن الجوزى + ٥٩٧ هـ ، نشرة مصر ، بدون تاريخ ٠

٧ ـ التنوير فى اسقاط التدبير ، لابن عطاء الله السكندرى + ٧٠٩ هـ ، مصر سنة ١٣٤٦ هـ ٠

٨ ـ الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ، د٠ عبد الفتاح بركة ، القاهرة سنة ١٩٧١ ٠

٩ ـ حلية الأولياء ، لأبى نعيم الأصبهانى + ٤٣٠ هـ ، مصر سنة ١٩٣٨ ٠

١٠ ـ الرسالة القشيرية ، القشيرى + ٤٦٥ هـ ، مصر سنة ١٩٥٩ ٠

١١ ـ الأصول العامة للفقه المقارن ، للاستاذ محمد تقى الحكيم ، جـ ١ بيروت سنة ١٩٦٣ ٠

١٢ ـ طبقات الصوفية ، السلمى + ٤١٢ هـ ، تحقيق نور الدين شريبه ، مصر سنة ١٩٥٣ ٠

١٣ ـ الطبقات الكبرى ، الشعرانى + ٩٧٣ هـ ، مصر سنة ١٩٢٥ ٠

١٤ ـ علم القلوب ، أبو طالب المكى + ٣٨٦ هـ ، تحقيق عبد القادر عطا ، مصر سنة ١٩٦٤ ، ويسمى قوت القلوب ٠

١٥ ـ عوارف المعارف ، السهروردى + ٦٣٢ هـ مصر سنة ١٩٣٩ ٠

١٦ ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيميه + ٧٢٨ هـ تصحيح محمود فايد ، مصر سنة ١٩٥٥ ٠

١٧ ـ اللمع ، للسراج الطوسى + ٣٧٨ هـ ، تحقيق د٠ عبد الحليم محمود وطه سرور ، مصر سنة ١٩٦٠ ٠

١٨ ـ مقدمة ابن خلدون ، لابن خلدون + ٨٠٨ هـ ، تحقيق على عبد الواحد وافى ، مصر سنة ١٩٦٥ ٠

١٩ ـ ميزان الاعتدال ، للذهبى + ٧٤٨ هـ ، تحقيـــق البجاوى ، مصر مصر سنة ١٩٦٣ ٠

٢٠ ـ لطائف المنن ، لابن عطاء الله السكندرى + ٧٠٩ هـ ، مصر سنة ١٣٢٢٠ ٠

٢١ ـ نيكلسون : الصوفية فى الاسلام ، ترجمة نور الدين شريبه ، مصر سنة ١٩٥١ ، لنفس المؤلف : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، ترجمة الدكتور أبو العلاء عفيفى ، مصر سنة ١٩٥٦ ٠

محتویاتِ کتاب

الفهـــارس

١ ـ فهرس المقدمة والدراسـة

الصفحة

٢ ـ فهرس القســم الثــانى

نص كتاب علم الأولياء (*)

(*) جعلنا الفهرس مفصلا ليسهل لكل انسان أن يعثر على مطلبه بالتحديد دون عناء ، وما أحوج الباحثين الى مثل هذه الفهــارس التفصيلية ، خاصة فى النصوص التى تنشر حديثا .

الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ٣٢٧٤ / ٨٣